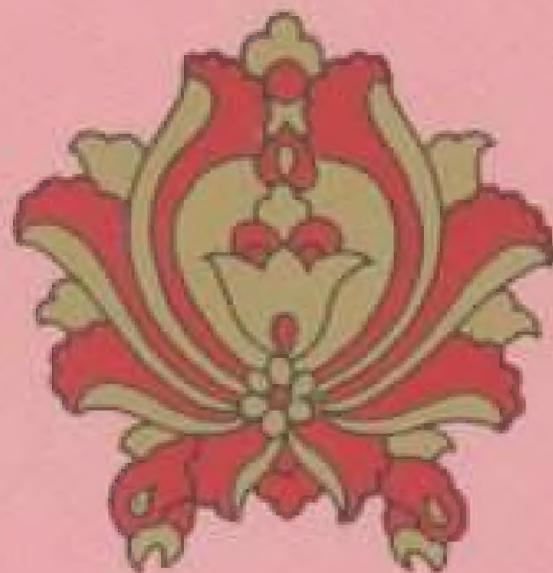


مِنْهُدُ النَّزَالِ



دَسْتُور

الْوَدْعَةُ الشَّفَافِيَّةُ  
بِيَبْنِ الْمُسَلَّمِينَ

دارالشرف

# دستور دستور دستور

# دارالشروق



## مقدمة

هذا كتاب يتعرض لحاضر المسلمين ومستقبلهم، ويشارك في إنعاشهم من الغيبة الطويلة التي ألمت بهم! إنها إغماءة مقلقة حقاً، ظنها أعداء الإسلام بواحد موت، ولكننا خبراء بأمتنا وتاريخها وكبواتها ونهضاتها، ومن أجل ذلك قررنا اعتراف العلل المؤذية ومتابعة جرائمها هنا وهناك حتى تعود العافية ونستأنف نشاطنا العتيد..

ملهم هذا الكتاب وصاحب موضوعه الأستاذ الإمام حسن البنا، الذي أصفعه ويصفه معى كثيرون بأنه مجدد القرن الرابع عشر للهجرة.. فقد وضع جملة مبادئ تجمع الشمل المتفرق، وتوضح الهدف الغائم، وتعود بال المسلمين إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم، وتتناول ما عرّاهم خلال الماضي من أسباب العوج والاسترخاء بيد آسية، وعين لامة، فلا تدع سبباً لضعف أو خمول..

وعملى كان تأصيل هذه المبادئ وشرحها على ضوء تجربى المستفادة خلال أربعين عاماً فى ميدان الدعوة، قضيت بعضها مع الإمام الشهيد، وبعضها مع الرجال الذين رباهم، وبعضاً آخر مع مؤمنين أحبو دينهم، وواجهدوا فى سبيله، وقاوموا ببساط شديد جميع القوى التي أغارت عليه وحاولت إطفاء نوره، وتنكيس رايته..

إن الظروف التي بدأ فيها حسن البنا دعوته ما تزال قائمة مع خلاف طفيف حيناً وكثيف حيناً آخر.

### وهذه الظروف تنشأ من منبعين رئيسيين:

الاستعمار العالمي الذي اكتسح بتفوقه المدنى والعسكرى كل شبر من أرض الإسلام، وحاول أن يغير معاملها جملة وتفصيلاً لصالحه الخاصة..

والمنبع الآخر - وهو الأخطر والأثبت يجيء من الأدواء التي استشرت في الكيان الإسلامي نفسه، نتيجة فساد عام في أحواله المادية والأدبية، العلمية والعملية، الفردية والاجتماعية، التربوية والسياسية..

والواقع أن الاستعمار العالمي انحدر إلى أقطار فقدت القدرة على الحياة الصحيحة،

واسترق جماهير كان نسبها إلى دينها أبعد شيء عن الصدق، وقطع أو صالاً كانت ميتة أو شبه ميتة.

كان قلب العالم الإسلامي مذهولاً أو مسلولاً، والروس ي Mizqon جناحه الشرقي في التركستان وسiberia.

وكان قلب العالم الإسلامي مذهولاً أو مسلولاً، والأمريكان يشنون حرب إبادة على مسلمي الفلبين !!

وكان هذا القلب على بلائه وعنائه، وأجنحته الغربية تُهشّم وتستذل.

ثم أطبق الظلام على أرضه جموع، واستفاق عناصر المقاومة بعد ما فقدت الأمة الكبيرة كل شيء تقريباً، وتوزعت جهود المقاومين على جبهات عديدة مضنية . . . !!

كان ذلك في مبادئ القرن الرابع عشر وأواسطه، ولا ريب أن الأخلاف العانين كانوا يحصلون ثمرات انحراف قديم، وإسفاف غبرت عليه أيام كالحة !

ومن الخطأ القول بأن حسن البناء أول من رفع راية المقاومة في هذا القرن الذليل . لقد سبّقه في المشرق العربي ، والمغرب العربي ، وأعماق الهند وإندونيسيا ، وغيرهما ، رجال اشتربوا مع الأعداء في ميادين الحرب والسياسة والتعليم والتربيّة ، وأبلوا بلاء حسنا في خدمة دينهم وأمتهم .

وليس يضرّهم أبداً أنهم انهزوا آخر الأمر ، فقد أدوا واجبهم لله ، وأتم من بعدهم بقية الشوط الذي هلكوا دونه . .

إن حسن البناء استفاد من تجارب القادة الذين سبقوه ، وجمع الله في شخصه موهب تفرق في أناس كثرين.

كان مدمنا لتلاؤه القرآن يتلوه بصوت رخيم ، وكان يحسن تفسيره كأنه الطبرى أو القرطبي ، وله مقدرة ملحوظة على فهم أصعب المعانى ثم عرضها على الجماهير بأسلوب سهل قريب .. وهو لم يحمل عنوان التصوف ، بل لقد أبعد من طريقة كانت تتنمّى إليها بيته .

ومع ذلك فإن أسلوبه في التربية وتعهد الأتباع وإشعاع مشاعر الحب في الله كان يذكر بالحارث المحاسبي وأبي حامد الغزالى . . .

وقد درس السنة المطهّرة على والده الذي أعاد ترتيب مسند أحمد بن حنبل ، كما درس الفقه المذهبى باقتضاب فأفاده ذلك بصرى سديدا بن هيج السلف والخلف .

ووقف حسن البناء على منهج محمد عبده وتلميذه صاحب المنار الشيخ محمد رشيد

رضا، ووقع بينه وبين الأخير حوار مهذب. ومع إعجابه بالقدرة العلمية للشيخ رشيد، وإفادته منها، فقد أبى التورط فيما تورط فيه.

ولعله كان أقدر الناس على رفع المستوى الفكري للجماهير مع محاورة لبقة لابتعاد عن أسباب الخلاف ومظاهر التعصب..

وقد أحاط الأستاذ البناء بالتاريخ الإسلامي، وتتبع عوامل المد والجزر في مراحله المختلفة، وتعمق تعمقاً شديداً في حاضر العالم الإسلامي، ومؤامرات الاحتلال الأجنبي ضده... .

ثم في صمت غريب أخذ الرجل الصالح يتنقل في مدن مصر وقرابها، وأظنه دخل ثلاثة آلاف قرية من القرى الأربعة الآلاف التي تكون القطر كله.. .

وخلال عشرين عاماً تقريباً صنع الجماعة التي صدعت الاستعمار الثقافي والعسكري، ونفخت روح الحياة في الجسد الهاامد.. .

ثم تحركت أمريكا وإنجلترا وفرنسا، وأرسلت سفراً لها إلى حكومة الملك فاروق طالبين حل جماعة الإخوان المسلمين.

وحلت الجماعة وقتل إمامها الشاب الذي بلغ اثنين وأربعين سنة من العمر، وحملته أكف النساء مع والده الشيخ الشاكل إلى مشواه الأخير، فإن الشرطة كانت تطاردنا - نحن الم Shi'ites - حتى لا نقترب من مسجد «قيسون» الذي بدأت منه الجنازة!!

وتحدثت مع ولده «سيف الإسلام» حديثاً لم أنسه!! كان ابن المفزع مغيباً لأن الجسد قطع لحما فما تنضمّ القطع بعضها إلى بعض إلا «بالشاش» ثم بالكفن ولو لا ذلك لتبعثرت.. !!

تذكرة قول الشماخ يرثى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقد طعنه علوج طعنة مزقت أمعاءه، وجعلت الدم يخرج ممزوجاً بالطعام.

جزى الله خيراً من أمير وباركت  
يد الله في ذاك الأديم الممزق  
فمن يسع أو يركب جناحى نعامة  
ليدرك ما قدمت بالأمس يُسبق  
قضيت أموراً، ثم غادرت بعدها  
بوائج في أكمامها، لم تُفتقِ  
يعنى أن عمر خلف بعد مماته دواهى كانت على عهده كامنة، ولم تتحرك إلا بعد ما  
ولى.

\* \* \*

ولست في موطن رثاء للإمام، ولا تاريخ لحياته. إنني هنا أعرض المبادئ التي كان يجمع الناس عليها، والأسلوب الناجح الذي أحدث به يقظة إسلامية عظيمة.

فإن الظروف التي بدأ فيها جهاده لا تزال قائمة لم يتغير منها إلا الشكل!

الاستعمار السياسي هو هو وإن اتّخذ ضغطه أسلوباً غير مباشر، ومادام الختل واللف يعنيان فلا معنى للمصارحة وما تستتبعه من إثارة!

والاستعمار الثقافي دائِب على سرقة القلوب والقيم، واجتياح العقائد والشرائع . . .

وخياله كثُر وتشعبت حتى بات يخاف على الأجيال المقبلة!

واضمحلال العقل الإسلامي واضح في أغلب ميادين الفقه! وعدد كبير من المشتغلين بفقه العبادات أو المعاملات يحسن النقل التقليدي أكثر مما يحسن الوعي والاجتهاد، ويغلب عليه ضيق الأفق ولزوم ما لا يلزم!!

أما الفشل في شئون الدنيا فأمره مخجل حتى إن ما نأكله من طعام أو ما نأخذه من دواء أو ما نرتديه من لباس يصنعه لنا غيرنا!!

وأما صناعات السلاح وما يحمي الشرف ويصون الإيمان فشيء لاناقة لنا فيه ولا جمل، كما يقول العرب الأقدمون.

لقد بدأ حسن البناء عمله من الصفر، وشرع دون ضجيج يحسى الإسلام المستكן في القلوب، ويوجهه للعمل!!

ويكفي الإمام الشهيد شرفاً أنه صانع الشباب الذين نسفوا معسكرات الإنجليز على ضفاف القناة وما زالوا بهم حتى أغروهم بالرحيل!

ويكفيه شرفاً أنه صانع الشباب الذين ما اشتبكوا مع اليهود في حرب إلا أحقوا بهم الهزيمة وأجبروهم على الهرب . . .

إن ذلك هو ما جعل الاستعمار مصراعاً على معاداة هذه المدرسة، وإلحاد الأذى بها حيثما ظهرت . . .

لقد بدأت العمل مع حسن البناء وأنا طالب في الأزهر، من خمس وأربعين سنة تقريباً، والحالة العامة يومئذ جديرة بالتسجيل:

الحكم منفصل عن العلم، وهو انفصال مبكر في تاريخنا للأسف، كما أشرت إلى ذلك في بعض كتبى.

والتعليم قسمان مدنى ودينى ، وهو عمل استعمارى بارع لضرب الدين والدنيا معا .

والتعليم الدينى منقسم على نفسه ، فالفقهاء شئ ، والتصوفة شئ آخر .  
والمتصوفون فرق لها رايات وشارات مختلفة .

والفقهاء توزعوا على المذاهب الأربعية ، ويرفض أحدهم الصلاة وراء الآخر إلا مضطرا .

ثم نشب خلاف زاد الطين بلة بين هؤلاء جميعا وبين أهل الحديث .  
ودخلت الوهابية المعركة باسم أنصار السنة ، فاستعرت الحرب بينها وبين هذه وتلك .

وولدت الأحزاب السياسية بعيدة عن الهوس الدينى جاعلة الوطنية شعارها ،  
وانقسمت هذه الأحزاب بين ضالع مع القصر الملكى ومؤيد للتيار资料 .

ثم تسللت الشيوعية مستغلة الفقر السائد ، وعارضة ما لديها من فنون الإغراء . .  
وظهر مستغلون فى مجال العمل السياسي ، وأخرون يقتربون نشاطهم على العمل  
الاجتماعى وحده !!

وسط هذا البلاء والتمزق الشامل كان حسن البنا يدعو إلى الإسلام دينا ودولة ،  
ويتخلص بلباقه من الآثار الموروثة والأهواء الوافدة .

كان يحارب التقاليد الغبية بنفس العزم الذى يحارب به الغزو الفكري .  
وأشهد أنه محق ذاته فى مرضاه الله وبذل النصح للعامة والخاصة ، وكان يضى  
بالدقيقة من يومه أن تضيع فى غير مصلحة الإسلام والمسلمين . .

والأصول العشرون التى وضعها والتى أشرحها هنا ليست الكلمة الأولى والأخيرة  
فى الطرق الثقافية لخدمة الأمة الإسلامية . .

إنها مقتراحات — وأصطنع هنا أسلوب حسن البنا — مقتراحات مجربة للم الشمل ، وعلاج  
العثرات ، فمن كان لديه أحسن فليعرضه ، أو نقد فليذكره ، ولنتعاون جميعا على إعلاء كلمة  
الحق والنصح لهذه الأمة .

المسلمون الآن عبء ثقيل على الإسلام ، وهم لا يستحقون الحياة إلا إذا أنصفوا  
الوحى النازل بين ظهرانيهم ، وخلصوه من تخليطهم وجهلهم المعيب قرنا بعد قرن .

لقد تملكتني - وأنا أؤلف هذا الكتاب - شعور بأنه لا قداسة إلا للوحى الأعلى، ولا مكانة إلا للرجال الذين أحسنوا الفقه فيه والعمل به حيث أقامهم القدر ..

يجب أن تغربل الأفكار والمذاهب والأعراف والتقاليد التى سادت تاريخنا، فقدَمُها لا يعطيها حق البقاء! والاحترام للحق وحده!

لما قرأت كلمة الشخص الذى قال فى مجلس معاوية: أمير المؤمنين هذا، فإن هلك فهذا - يعني يزيد - فمن أبى فهذا - يشير إلى سيفه - قلت: منافق مرتزق، يطلب دنيا لنفسه ولقبيلته!

والفقيه الذى يصور الشريعة من خلال هذه الكلمة ليس أحسن حالاً منه .. !

إن الفلك قدف بعده قرون ميتة أمام الحكم العباسى، وقدف بعده قرون هالكة أمام الحكم التركى .. فما ذنب الإسلام حتى يحمل المخلفات الثقافية والسياسية لهذه القرون؟

وقد شاء الله أن أعد كتابى هذا فى مطالع القرن الخامس عشر الهجرى وأعداؤنا يحفرون لنا القبور التى تطويانا، وأمتننا - عفا الله عنها - لا تزال تتغثر فى تفاهاتها.

إن الإسلام يجب أن يبقى وأن يقود. فالحق عندنا وحدينا، وعلينا أن ندرك نفاسة ما أكرمنا الله به ، وأن نحسن نفع أنفسنا ونفع الناس به .

هناك تحديات تواجه الدعوة الإسلامية ، بل تواجه الرسالة الإسلامية ذاتها ، أقلها من الخارج وأكثراها من الداخل !! نعم فإن الآفات التى تنخر فى الكيان الإسلامى أشبهت الأمراض المتوطنة وقد أحققت به معاطب مخوفة ، ثم انتهت به خواتيم القرن الرابع عشر الهجرى إلى حال تسوء الصديق وتسر العدو ..

عندما تعرض المذاهب العلمانية برامجها السياسية والاقتصادية لتحسين التفاهم مع الطبيعة البشرية ، وتحسين تقديم الحكم بريئاً من نزوات الاستبداد الفردى ، وتقديم المجتمع بعيداً عن شهوات الشح والأثرة والظلم البغيض .

أما نحن فماذا نقدم للناس؟ شورى هي حبر على ورق ، وتراحم هو حديث منابر ، وشعائر توقف فيها نبض الحياة ، فلا هي حب الله ولا هي حنان على الناس !!

إننا متممون إلى الإسلام ومنكرون له فى آن واحد ، متممون له بالميراث وخارجون عليه مادياً وأديباً !!

ولست أتحامل على الجيل المعاصر ، ولا على الجيل الذى سبقه . إن موجة الجزر بدأت قبل ذلك ، ثم شدت فى انسحابها الأجيال المتأخرة إلا قليلاً من تشبت بالحق فى مصادره المعصومة ، واستنتمات كيما تبقى أعلام الإسلام قائمة ..

قلت لصديق يحذثني عن التاريخ الإسلامي: اسمع يا أخي، إن الأمويين والعباسيين والعثمانيين لم يقدموا صورة صادقة للخلافة الإسلامية، وتفاوت نسبة الدمامنة في الصورة التي قدموها تفاوتاً يسيراً! وقد عد أئمتنا عمر بن عبد العزيز الخليفة الخامس بعد الراشدين الأربع، ثم ماذا؟

ملك عضوض يعمل لنفسه والله معاً، وعمله لله هو الغطاء الذي يداري به نهمه إلى الجاه والمال. قد وجد من كان عمله لله أرجح، ثم بدأ هذا الصنف يقل حتى انفرد بالسلطان من لا يعمل إلا لنفسه وحسب.

سبحان الله إن الإنسان الكبير الذي قال: «ابغوني في ضعفائكم! هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم؟»<sup>(1)</sup> قامت باسمه نظم تستهلك الشعوب وتفتات على الجماهير، وتزدرى كل ذي رأى، وتسجن أئمة الدين أو تقتلهم كما يسجن المجرمون ويقتل السفاحون!

هل تنجح دعوة للإسلام سادها الداخلى هذا المجنون؟ بل هل يبقى الدين نفسه، مع تلك الأوضاع المقلوبة والحقوق المغصوبة؟

اسمع يا أخي أنا لا أعتبر التتار هم مسقطى الخلافة في بغداد، إن الخلافة أسقطتها من قبل قصور مترعة بالإثم...!! متخمسة بالملذات الحرام...!

أنا لا أعد الصليبيين هم مسقطى دولتنا في الأندلس، إن المترفين الناعمين هم الذين أنزلوا راية الإسلام عن هذه الربوع الخضراء، إن ملوك الطوائف في الأندلس لم يكونوا أبناء شرعيين لطارق بن زياد، ولا لغيره من الأبطال الذين باعوا الله أنفسهم فأورثهم الأرضين.

إننا نحن قبل غيرنا العقبة الأولى أمام دين عظيم إن التحدى الأول يجيء من داخل أرضنا ثم تجيء من بعده تحديات الأعداء التقليديين.

وقد نقلت في بعض ما كتبت حديثاً يجب أن نتذمّره مثني وثلاثة ورابع، عن ثوبان رضي الله عنه النبى ﷺ قال: «إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتى سيلع ملكها ما زوى - جمع - لى منها، وأعطيت الكثرين الأحمر والأبيض - معادن الأرض وثرواتها - وإنى سألت ربى لأمتى ألا يهلكها بسنة عامة - قحط شامل - وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم - أجنبياً - فيستبيح بيضتهم.

وإن ربى قال: يا محمد إنني إذا قضيت قضاء فإنه لا يردّ! إنني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم

(1) أحمد ج 5 ص 198.

بسنة عامة! وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو من بين أقطارها – يعني أهل القارات المعمورة – حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضاً<sup>(١)</sup>.

والحديث ظاهر في أن مصائبنا من أنفسنا قبل أى شيء، وأنها تجئ ابتداء من فساد الحكم كما قال عليه الصلاة والسلام في نهاية هذا الحديث. «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الْأَئِمَّةِ الْمُضَلِّينَ» - أى الحكام الفاسدين.

فإذا وقع ذلك في دار الإسلام فينبغي أن ننظر إلى ما وراء هذه الدار لنرى مسافة الخلف بيننا وبين غيرنا من لا يدين ديننا.

عن المستورد القرشى - رضى الله عنه - أنه قال عند عمرو بن العاص: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تقوم الساعة والروم أكثر الناس!! فقال له عمرو: أبصر ما تقول! قال: أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم! قال عمرو: لئن قلت ذلك، إن فيهم لحساناً أربع. إنهم لأحلى الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقه بعد مصيبة، وأوشكهم كرهاً بعد فرقة، وخيرهم لمسكين وضعيف ويتيم. وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك!!<sup>(٢)</sup>

الحق أن هذا وصف رصين أمين لأقطار كثيرة وراء دارنا، أعني دار الإسلام.

وقد أسأل نفسي: إذا كان المرء يبيت في دمشق أو بغداد أو استانبول عواصم الخلافات الثلاث الكبرى غير آمن على ماله أو دمه، ويبت في لندن أو باريس أو واشنطن مستريح الطرف والقلب، فمن يعطيه رب قيادة الإنسانية، ويقر الأمور في يده؟!

قال لي محدثي: أنت غضبان، وفي أحكامك قسوة أو حيف! دعك من الكلام في عوج الحكام، وحدثنا عن التحديات التي تعرّض الدعوة الإسلامية في الخارج..

قلت: أنا أحب علاج العلل من جذرها، وما ذكرت قصة الحكم إلا لأنها نموذج للانحراف عن الخط الإسلامي، وإلا فالانحراف أصاب أغلب التقاليد الاجتماعية التي تؤثر في أخلاقنا ومسالكنا.

قال لي: لمن ننظر إلى التحديات الخارجية!

قلت: لعل أول هذه التحديات جهلنا بالآخرين! إنما نكلف أنفسنا مد البصر إلى ما وراء حدودنا مع أننا أصحاب دعوة عالمية. نعم لم نحاول أن نعرف كيف يفكر أو

(١) أحمد ج ٥ ص ٢٧٨.

(٢) أحمد ج ٤ ص ٢٣٠.

كيف يعيش اليهود والنصارى وغيرهم فى بلادهم، وما هى الأطوار النفسية والاجتماعية التى تمر بهم؟

والغريب أن القوم هم الذين تعرفوا علينا ودرسو بلادنا وخبروا شئوننا، وكشفوا حتى عما فى تربتنا من معادن وفي بربنا وبحرنا من خيرات.

إن علماء المشرقيات أو المستشرقين نقبوا فى تراثنا الماضى، وفي واقعنا المعاصر، ومنذ عدة قرون وهم دائبون فى البحث، ونحن مغرقون فى الجهل حتى عرفونا معرفة استيعاب.

أما نحن فقابعون فى أماكننا لا ندرى ماذا يحدث فى أوربا، ثم ماذا يحدث فى أمريكا وأستراليا بعد اكتشافهما.

ولا ندرى ما ثورات التحرر التى وقعت فى إنجلترا وفرنسا وغيرهما.

ولا ندرى ما يخطط اليهود لمستقبلهم ومستقبل الدنيا معهم.

ولا ندرى أدوار الصراع بين الدين والعلم فى الغرب، والصدع الذى أصاب الكنيسة فى هذا التزاع الوحشى.

ومن المضحك أن «نلسون» وهو يطارد نابليون فى البحر الأبيض المتوسط رسا بأسطوله فى الإسكندرية، وسأل محافظ التغر عن قائد الحملة المتطرفة؟

ودهش المحافظ الساذج، ونفى علمه ببنية الفرنسيين، وتساءل: هل يجرؤ أحد على التعرض لأملاك السلطان؟

إن الموظف الكبير لا يدرى شيئاً عما يقع فى دنيا الناس! وهو مثل الجماهير قد تفتئ فى حلق الشارب وإناء اللحية، وتحسب أنها استكملت عرى الإيمان بالوفاء للشكل، والمحق للموضوع. إن تربية اللحية لا وزن لها مع انعدام تربية النفس والعقل، ومع فراغ القلب واللب...

وأمر آخر ساء موقتنا فيه جبرا هو عدم إفادتنا من العلم المادى الذى وثب وثبت فسيحة فى اكتشاف أسرار الفطرة وإحسان تطويعها لطالب الناس.

بدأ هذا العلم مسيرته المظفرة بعدما قهر كهنوت الكنيسة، وتجاوز العجز الإسلامى فى بلاده الهاجعة!!

العقل الإنسانى وحده أخذ يتحسّس طريقه فى البحث والدرس حتى نجح، ثم أغراه النجاح فطفر من أفق إلى أفق حتى غزا الفضاء.

صحيح أنه استفاد من إشراقة الإسلام الأولى حين غمرت حضارته الدنيا،  
ومؤرخو الحضارة الإنسانية يؤكدون ذلك .

ولكن المسلمين نسوا وظيفتهم، ورسالتهم، واستطاع الجهلة في بلادهم أن يملكون أزمة  
السلطة، فما الذي يربط العالم بهم؟

لقد انطلق العلم وحده وترك طابعه الذكي على كل ما حولنا .

واستيقظ اليهود والنصارى قبل فوات الفرصة، واصطدروا مع المدنية الجديدة كى  
يتتفعوا بها فى تحقيق مآربهم .

ووصلنا نحن بعدها تحرك القطار، فإذا أعداء الأمس يتحركون ومعهم تفوق علمى  
ساحق ليحتلوا أرضنا، ويفرضوا طابعهم عليها .

وشرع المسلمون يستجدون المعرفة الجديدة ليدعموا بها وجودهم المدنى  
والعسكري ، وهم يطردون أبواب المجهول ، عليهم يعودون بشيء !!

وجرح نفسي أن سمعت مفتيا فى إحدى الإذاعات يقول : إن تعلم اللغات الأخرى  
يجوز للضرورة ، هكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية .

كأن تعلم اللغات ممحظور أصلاً ، وما يباح إلا للضرورة ! قلت إن ابن تيمية ليس  
جاهاً ليقول هذا الكلام ، كيف ونبينا مرسى للعالمين ولغات الناس لا حصر لها؟

وعدت إلى كتاب «ابن تيمية» : (اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب  
الجحيم) فرأيت الرجل في واد، والمفتى في واد آخر .. رأيت ابن تيمية يكره انحلال  
الشخصية العربية ويرفض أن يتكلم الرجل بكلام بعضه عربي وبعضه أعمى اعترافا  
بجنسية أخرى ، كما تلمح ذلك في بعض ضعاف الشخصية الذين ينسون عروبتهم  
وتغلب عليهم رطانات أخرى .

وشتان بين القضيتين ! إن لبس الحق بالباطل ما يجيء إلا من هذا القصور الفقهى .  
وتعلم اللغات الأخرى واجب لمنافع دينية ودنيوية لا حدود لها ، وليس ذلك بداهة  
على حساب اللغة القومية !

والناس يعرفون ذلك في كل قارة ، ولكن التدين المغشوش يفسد البداهة ويسخ  
الفطرة ..

وكأن القدر - ازدراء لهذا الدين - أبى إلا أن تكون النهضة العقلية العارمة بعيدة  
عنه ، ولا نقول : منكرة له ..

على أن التحدى الأعظم للإسلام كله هو في يقظة كل القوى المعادية له، وتبنيتها النية على اغتياله! أجل لقد صحت اليهودية والنصرانية والشيوخية والوثنية، وتملكتها رغبة مجنونة للقضاء على هذا الدين وانتهاز ما يسود بلاده من غفلة وفرقة لتوجيهه الضربة الأخيرة.

ولو قدرتُ على استئنفات المسلمين في المشارق والمغارب، وبعث شعورهم العازب، لصرخت في آذانهم: احذروا: الإسلام في خطر!!

إن خصوم الدين الحق يتمتعون بقوى مدنية وعسكرية هائلة، ويرسمون سياساتهم في آناء وذكاء، يرسمونها على قدر كبير من البرود والثقة ..

وما أظن العالم يساوى شيئاً إذا جحدت الخلائق ربها وأرخصت حقه ونسى لقاءه.. وأماتت هذا الإسلام الجريح وأنكرت عليه حق الحياة!! ولا أعرف للبقاء في الدنيا معنى إذا حدث ذلك!

وأعود إلى ما ذكرت آنفاً. إن تحديات الدعوة الإسلامية تجيء - قبل أي زحف خارجي - من داخل أرضه، وسوف تتلاشى هذه التحديات كلها يوم يعتنق المسلمون الإسلام، ويدخلون فيه أفواجاً، حكامًا وشعوبًا.

لقد ألفت هذا الكتاب عارضاً فيه تجاري - وهي حصيلة معاناة مُرّة إلى جانب توجيهات رجل موفق لا شبيه له في تأليف الهمم والألباب وتحشيد الشيوخ والشباب لخدمة الإسلام ومد أشعته في كل أفق..

أسأل الله ذا الجلال والإكرام أن ينفع به، وأن يجعله في موازين الحسنات، وأن يغفر لى ما قدمت وما أخرت. إنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

محمد الغزالي

القاهرة أول المحرم سنة ١٤٠١ هـ

أول القرن الخامس عشر الهجري

## لهمَّةُ إِلَّا إِلَّامٌ عَلَى الْحَيَاةِ كُلِّهَا

جهود كثيرة تبذل لترضية المسلمين بإسلام آخر غير الذى تلقوه عن نبيهم ، وعرفوه من كتابهم .

إسلام منقوص الحقيقة والأطراف ، منقوص العرى والوشائج ، ينكر عليه المنكرون أن يتدخل فى شئون التشريع ، أو يبت فى قضايا المجتمع ، أو يقدم الولاء له على الولاء للعنصر أو التراب ، أو يضع قواعد التربية مقرونة بشعائره وعبادته ، أو يحذف من السلوك العام ما يخدش قيمه ويمس مثله الرفيعة ، أو يلزم الأفراد بفرائضه اليومية والسنوية . . إلخ .

إنه إسلام اسمى يستبقى شبحه إلى حين ، ولعله يستبقى بضرورات لا تلبث أن تزول . .

وأغلب الأقطار الإسلامية تتمسك بنسب متفاوتة من الإسلام الحق المعروف فى كتاب الله وسنة رسوله ، وقد تقل هذه النسب كما وكيفا ، وقد تزيد ، ولكن لم نرها إلى الآن مكتملة الصورة والحقيقة على نحو صحيح علميا وعمليا ، فى أى بلد إسلامى .

بل إن المسلمين الهنود لما أسسوا لهم دولة باسم «باكستان» قامت الدولة المنشودة على أساس هذا الإسلام «الشبح» ، فلم يعرف للإسلام وجود فى عالم القانون أو الاقتصاد ، بل إنه فى عالم العقيدة والعبادة سمح<sup>(١)</sup> للقاديانية أن تسهم فى قيادة الدولة الجديدة (!) فلا عجب إذا دها باكستان ما دها ، ولا عجب إذا أصابتها محن قصمت ظهرها . .

ولatzال الجهد المريء فى أرجاء العالم الإسلامي لخلق أجيال تقبل هذا الإسلام المشوه وترتضى ما قام فى كنفه من تحليل الحرام ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، ودفع الأمور كلها بعيدا من هدایات السماء . .

(١) عند تأسيس الدولة كان وزير الخارجية قاديانيا - هكذا شاء الاستعمار - ثم عممت باكستان - بعد ربع قرن - انتفاضة شعبية جارفة ، تخلصت بها من هذا الضلال واعتبرت القاديانيين قلة غير إسلامية كاليهود والنصارى . . وما يجب ذكره أن باكستان قررت الآن تطبيق الشرع الإسلامي ومحو تقاليد الغزو الاستعماري التى ظلت تعيش بعد إعلان الاستقلال ونحن نرجو لها النجاح ، فإن إنشاء باكستان كلفنا مليون شهيد وهو ثمن فادح . .

ولا ريب أن الاستعمار العالمي وراء هذه الجهود المنكورة، فهو منذ احتل البلاد الإسلامية حرص على تعطيل الأحكام الشرعية، وطمس شارات الإسلام في كل أفق، وتسميم الكيان الإسلامي كله ببطء وذكاء حتى يلقى حتفه بعد أيام غير بعيد.

ولم يترك الاستعمار بلداً ما بسحب عساكره منه إلا بعد أن يضع مقايد هذا البلد في أيديه، وتضرب بسيفه، وتفكر بعقله.

بل لعل الذين خلفوه كانوا أشد منه ضراوة وجراوة، في الإجهاز على ما بقي من مراسم الإسلام، وشن حرب استئصال وحشية على الجماعات التي ظلت موالية له متمسكة به.

وكان التسليمة بعد تلك الغارة الحقد على رسالة محمد ﷺ أن قبل العيش في ظل إسلام مفتعل، ما فيه من عبث الناس أضعاف ما فيه من وحى الله! وكاد جمهور كبير من أتباع محمد ﷺ يألف استقرار الربا والزنا، وإهمال الصلاة والصيام، ومداهنة الملحدين والفسقة، ثم مطاردة أهل اليقين والجلادة والوفاء لهذا الدين العظيم ..

وليس من الحق تحويل الاستعمار الأجنبي أوزار تخلفنا المادي والأدبي.

نعم إنه يستديم ضعفنا ولكنه ليس سبب هذا الضعف! إننا نحن المسلمين الذين فرطنا في ديننا وأساناً إليه طوراً بالإهمال الشنيع وطوراً بالتأويل الفاسد وطوراً بالتطبيق الغبي.

ومن أعصار مددة والشقة بيننا وبين الحق تسع، بل إن العلاقة بين الإسلام وأمته ظلت تهون وترق حتى انقطعت في أماكن كثيرة ..

وانتهينا في هذا القرن إلى أوضاع يجب أن نكشف سوءها ونفتشي خبرها.

فأجهزة الدعوة الإسلامية ميتة أو مسلولة في أيام تبرجت فيها الدعوات وافتنت في عرض نفسها.

وأجهزة الشوري المصاحبة لنظم الحكم ميتة أو مسلولة في أيام دللت فيها الجماهير وتوطدت الحريات السياسية.

وأجهزة الاقتصاد القومي تحيا على هامش الدنيا، وليس للاقتصاد الإسلامي تفوق حضاري أو صناعي ينفعه بين الدول العشر الأولى أو الثانية، بل جمهور المسلمين ينتسبون إلى العالم الثالث، العالم المتخلص الباحث عن الحياة على استحياء أو استخدا ..

إن ذلك المصير الكالح لأمة كانت طليعة عالمية قرابة ألف عام له أسبابه الجديرة بالدراسة . . وما نشك في أن المسلمين أ Mataوا أجزاء من دينهم قبل المد الاستعماري الحديث - لا تقل خطرا عن الأجزاء التي أ Mataها الاستعمار من دينهم بعد ما تمكّن منهم واحتل أرضهم وفكّرهم . .

يقول الله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلْكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾<sup>(١)</sup>؟ فهل نظرنا؟ وما طرق النظر التي سلّكناها؟ ولماذا أجدت هذه الطرق عند غيرنا فعرف الكثير عن أسرار الكون وقوانينه ولم نفدهن شيئاً؟

ويقول تعالى في وصف المفلحين من أهل الإيمان: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾<sup>(٢)</sup> . فماذا صنعنا لنبني هذه الأخلاق ونؤسس مجتمعا يغالى بالعهود ويصون الأمانات، ويضبط أقواله وأعماله كلها وراء سياج من هذه الفضائل .

إننا ظننا الأخلاق تنبت وحدها كما تنبت في الحقول بعض الحشائش الطفيلية، فلم نبذل المعاناة الواجبة لإنشاء أجيال ذات وفاء لمسؤولياتها الخاصة وال العامة .

ونقرأ قوله تعالى: ﴿وَشَاعُورُهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾<sup>(٣)</sup> فإذا مفسرون يتطوعون لخدمة الاستبداد السياسي يقولون دونوعى، شاور ثم امض على ما رأيت فالشورى غير ملزمة!! لحساب من هذا التفسير؟ وهب مفسرا قد يسقط فيه، فلحساب من يروج له الرجال الجدد وهم يعلمون المعاطب الهائلة التي أصابت أمتنا من استبداد حكامها عبر تاريخ أغرب؟

ويجيء آخرون فيحشدون جملة من الآثار الصحيحة والواهية، ثم بعد شرح قاصر معتل يخرجون بهذه القاعدة «الفقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر». ولو أنهم قالوها عزاء لفرد مصاب، أو عصابة من الناس منكوبة لهان الأمر، ولكنهم أطلقواها كلمة عامة حمقاء، وحاكموا إليها أغنياء الصحابة فجعلوهم يدخلون الجنة زحفا أو بعد لأى !! لماذا؟ لأن الثراء طعن في التقوى !!

فكيف يقوم كيان أمة على هذا العجز والتسوّل؟! كيف يؤخر عن الجنة من جهز جيش العسرة وأعلى رأية الإيمان وهدر ركن الطغيان، ليقدم عليه بائس أقعده العدم؟

(١) الأعراف: ١٨٥.

(٢) المعارج: ٣٢.

(٣) آل عمران: ١٥٩.

(٤) الحجرات: ١٠.

ويقول الله تعالى : «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ»<sup>(٤)</sup> فماذا فعل العرب لتنويب الفوارق بينهم وبين الترك والعجم والهنود والزنوج وغيرهم من الأجناس التي دخلت في الإسلام؟ هل اجتهدوا في تعليمهم اللغة العربية كما اجتهد الإنكليز في نشر لغتهم بين الأجناس التي خضعت لهم؟

إن السلف الأول بذل في هذا المضمار جهداً مقدوراً، لكن الذين جاءوا من بعدهم لم يصنعوا شيئاً يذكر . .

وجلُّ الأمثلة التي ضربناها يقوم على فساد معنى الدين أو فتور عاطفته، ولكن ينضم إلى ذلك في أحيان كثيرة خروج غريب على أمر الله ومعالم دينه .

في عالم الأسرة يتم الزواج وفق مراسيم الرياء وتقالييد الكبارياء الاجتماعية المقررة، وإلى أن تتيسر هذه المراسيم لا حرج من اضطراب الغريرة وانسيابها بلا ضوابط من إيمان !

لماذا يحاط الزواج بكل هاتيك الصعوبات، ولماذا الإغضاء عما يقع؟  
وفي المنازعات العائلية لا نستطيع القول بأن نسبة طلاق السنة إلى طلاق البدعة تبلغ واحداً في المائة . . ولا نستطيع كذلك أن نقول إن واحداً في الألف من المطلقين يتعونن نسواتهم السابقات .

ذلك في العلاقات الاجتماعية، أما في عالم السياسة فقد افتخر حاكم معاصر بأنه اعتقل ثمانية عشر ألف مسلم في ليلة واحدة، وهذا جبروت لا تعرفه الدنيا الآن ولا في البلاد التي تعبد البقر . .

الحق أن المسلمين ابتعدوا عن دينهم مسافات شاسعة، وأن المكانة الھون التي انحدروا إليها نتيجة لازمة لما فعلوا بأنفسهم ورسالتهم .

ولابد من عودة صادقة إلى الإسلام كله إذا أردنا أن نحيا ونرشد، عودة علمية وعملية، نظرية وتطبيقية، لأن فرط في ذرة من ديننا، لا نتنازل عن شعبية من شعب الإيمان ولا عن كلمة من كلام القرآن . .

إن الأديان القديمة اضمحلت وتلاشت بسبب هذا التفريط العارض، ولعله بدأ يسيراً ثم تفاحش مع الزمن حتى أتى على هذه الأديان من القواعد.

ولن نسمح أبداً أن يرد ديننا هذا المصير، يترك هذا شيئاً وذاك شيئاً، ويتخلل هذا بالتطور، وذاك بالصلاحية، ولا تزال الأعذار تتسوالي، والتعاليم تتهاوى حتى يصير الإسلام أثراً بعد عين !

لن نقبل أبداً أن يتعرض الإسلام لهذا المسلك الكفور في الأخذ والرد، فأجزاء الدين كعناصر الدواء لا يتم الشفاء إلا بها كلها، ومن ثم فلا تنازل عن شيء منها . . .

إن تحريف الكلم عن مواضعه آفة تصيب الأديان على امتداد الزمان. ولهذا التحريف

مظاهر ثلاثة:

١ - التدخل في الوحي الإلهي بالحذف والزيادة، اتباعاً للهوى أو غلواً في الدين .

٢ - التأويلاً الفاسدة والتفاسير الباطلة لما ورد من نصوص .

٣ - تعطيل العمل بطائفة من الأوامر والنواهي ، وتوارث هذا العطل من جيل إلى جيل حتى تنشأ خلوف قاصرة تظن ما أهمل قد نسخ وباد .

ومن حسن حظنا - نحن المسلمين . أن كتابنا، محفوظ بعناية الله ، فالأصل الذي نحتمكم إليه قائم دائم ، ومن حسن حظنا أن الإجماع منعقد على أركان الإسلام والأجهزة الرئيسية التي تتفرع عنها شعبه وقوائمه هنا وهناك .

وإنه لسهل على المصلحين بعد ذلك أن يقاوموا المعطلين لحدود الله والمنحرفين عن صراطه المستقيم ، وأن يستمسكوا بالدين كله علماً وتطبيقاً ، دراسة وسلوكاً ، نهج حياة خاصة وعامة .

وإلى هذا الشمول والترابط في تعاليم الإسلام وجه الأستاذ حسن البنا إخوانه بقوله :

«الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جمِيعاً، فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء وهو مادة وثروة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء .. !!»<sup>(١)</sup>.

---

(١) الأصل الأول من الأصول العشرين .

## الكتاب والستة معاً

لا يعرف التاريخ إلا قرآناً واحداً منشور النسخ بين جماهير المسلمين من ليلة القدر الأولى إلى يوم الناس هذا. ولم يحدث خلاف على هذه الحقيقة خلال أربعة عشر قرناً مضت، فكتاب المسلمين واحد. وقد حاول بعض المستشرقين الصغار أن يختلفوا حول ذلك فزعموا أن عند الشيعة مصحفاً آخر، وهو زعم ساقط كان أقل من أن نسبته هنا ولكننا ترخصنا في ذكره ليعلم من يجهل أن القرآن الذي يحفظه جميع المسلمين ويحتفظون بنسخه في بيوتهم واحد واحد.

ولم يؤثر عن شيعي أو سني أو خارجي أو صوفي أن لديه قرآناً آخر غير هذا الكتاب الفذ. إن المصحف يطبع في القاهرة فيقتنيه مسلمو إيران والهند من الشيعة دون أي تردد عالمين بأن هذا هو الوحي الذي نزل على نبيهم.

وظاهر أن الأقدار ضاعفت أسباب الصيانة لهذا الكتاب حتى انفرد بهذه المكانة التي لم يظفر بها كتاب سماوي آخر.

ومع كثافة الأسانيد المتواترة التي دفعت بهذا الكتاب إلينا، فإن هناك نظراً آخر جديراً بالاحترام كله. إن حديث القرآن عن الله ولقائه ومطاليبه من عباده يعلو كثيراً جداً عن نظيره في الكتب الأخرى.

فتالي القرآن يشعر بأن الله واحد واسع، عظيم، أعلى، جدير بالحمد كله، والمجد كله، يستحيل أن ينسب إليه نقص أو يكون فوق كماله كمال.

وتالي العهد القديم يشعر بأن الله يذكر وينسى، ويخطئ ويصيب، ويفعل ويندم، ويأكل مع الناس، ويلاكمهم أحياناً..!

وتالي العهد الجديد يشعر بأن الله تجسد وقتل في سياق غامض حاصل بالتناقضات. وفي التوراة كما سجلها العهد القديم، لا توجد كلمة عن لقاء الله، ولا يوجد ذكر ليوم القيمة. الحديث كله عن الشعب المختار، وحقوقه في هذه الدنيا وواجباته تجاه رب إسرائيل! فأى تدين هذا؟!

والحديث عن يوم القيمة في العهد الجديد إما أن يؤخذ عن طريق الرؤى في المنام، أو الإشارات الروحية ليوم الديوننة ..

والبون بعيد بين هذا الأسلوب الخافت وبين الهدير الذي يسمع دويه في الوعد والوعيد، ومشاهد القيمة وصور الحساب والثواب والعقاب كما تكاثرت في سور القرآن.

والجانب الإنساني الحر ظاهر في القرآن الكريم. فأنت وحدك صانع مستقبلك، ومصور ملامحك. إن أحسنت لم يستطع أحد أن يعترض طريقك إلى الجنة. وإن أساءت لم يستطع أحد أن ينفكك من النار: «من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعلها وما ربك بظلام للعبيد»<sup>(١)</sup>. فلا وسباء ولا شفاء ، ولا قرابين على نحو ما تصور الوثنية أو على نحو ما تصور الأديان السماوية التي انحرفت .

والقرآن - بهذا الواقع المشرق - جدير بأن يكون الصوت الفذ المنبعث من السماء، فلو لم تدعمه أسانيد التواتر الغنية السخية لقال العقل: ما يصح عن الله إلا هذا. ومن هنا فنحن نومن بأن القارات الخمس لا تحوى سجلاً للروحى الأعلى إلا في هذا الكتاب العزيز ..

ومن هنا أيضاً جاء خلود الرسالة التي بقى مصدرها الأول خالداً: «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»<sup>(٢)</sup>.

وقد اتفق المسلمون على أن القرآن هو المصدر الأول لتعاليم الإسلام، والمعجزة الباقية أبد الدهر لنبيه عليه الصلاة والسلام، كما اتفقوا على أن السنة المطهرة هي مصدره الثاني . وننقف وقفه قصيرة أمام هذا المصدر .

## هجوم على السنة:

تواجده السنة النبوية هجوماً شديداً في هذه الأيام، وهو هجوم خال من العلم ومن الإنصاف . وقد تألفت بعض جماعات شاذة تدعى الاكتفاء بالقرآن وحده . ولو تم لهذه الجماعات ما تريده لأضاعت القرآن والسنة جميعاً، فإن القضاء على السنة ذريعة للقضاء على الدين كله ..

(١) فصلت: ٤٦ .

(٢) فصلت: ٤٢ .

إن محاربة السنة لو قامت على أساس علمية لوجب ألا يدرس التاريخ في بلد ما .  
لماذا يقبل التاريخ - على أنه علم - وتهتم كل أمة به ، مع أن طرق الإثبات فيه مساوية أو  
أقل من طرق الإثبات في الحديث النبوي؟

وأمر آخر نحب أن نشيره: لماذا تدرس سير العظماء وكلماتهم وتعرض للتأسي  
والإعجاب ، ويحرم من ذلك الحق رسول الله وفي صدارتهم سيد أولئك الرسل مروءة  
وشرفها ، وبيانا وأدبها ، وجهاداً وإخلاصاً؟ !

إن بعض البليه يتصور الأنبياء أبواباً لأمين الوحي ، يرددون ما يلقيه إليهم ، فإذا  
انصرف عنهم هبطوا إلى مستوى الدهماء ، وخبانورهم .

أى غفلة صغيرة في هذا التصور؟ !

إن الأنبياء رجال أكابر ؛ أكارم مصطفون من بين الألوف المؤلفة لصفاء فطرتهم ،  
وزكاة أفئدتهم ، ونفاسة معادنهم .

والوحي الذي يمر بنفوسهم يتائق في جوانبهم ويتألق في سيرهم ويوضع شذاه في  
إيمانهم وصلاحهم ، فإذا لم يكن هؤلاء قدوة فمن القدوة؟

الأدباء القوالون وحسب؟ الساسة الماكرون وحسب؟ القادة السفاحون وحسب؟ ما  
أغرب أحكام البشر !!

إن الله في كتابه أحصى أسماء ثمانية عشر نبياً من الهداء الأوائل ، ثم قال للهادى  
الخاتم : «أولئك الذين هدى الله بهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى  
للعالمين»<sup>(١)</sup> .

فإذا برب للإنسانية إنسان كامل التقت في سيرته شمائل النبوات كلها ، وتفجرت  
الحكمة على لسانه كلمات جوامع ، واستطاع - وهو الفرد المستوحش - أن يحشد من  
القوة ما يقمع كبراء الجبارية ، ويكسر قيود الشعوب ، ويوطئ الأكنااف للحق المطارد ..  
إذا يسر الله للإنسانية هذا الإنسان العابد المجاهد الناصح المربي . جاء غر يقول: لا  
نأخذ منه ولا نسمع له . ثم يستطرد مخفيًا غشه: حسينا كتاب الله ! وهل السنة إلا  
امتداد لسناء ، وتفسير لمعناه ، وتحقيق لأهدافه ووصاياته؟ ..

---

(١) الأنعام: ٩٠

## عتاب وتصحيح للمفاهيم:

على أننا نعتب على جماعات كثيرة تتسبّب للسنة وتبصر التمسك بها، إذ إن مسلكها قد يكون من وراء انصراف بعض الناس عن السنّن وشكّهم في جدواها. ونأخذ على هذه الجماعات أمرين:

أولهما: أنها تخلط الصحيح بالسقيم، ولا تدرى بدقة ما يقبل ويرد من المرويات.  
وقد لاحظت عند تحديد الوضع الاجتماعي للمرأة أنه ما يجيء حديثان في قضية تتصل بها إلا آخر الصحيح وقدم الضعيف!

فزيارة المرأة للقبور ترويها أحاديث صحيحة، ولكن بعض أهل العلم يقدمون عليها حديثاً ضعيفاً يلعن زائرات القبور..

ورؤية المرأة للرجال -مع غض البصر- ترويها أحاديث صحيحة، ولكن بعض أهل العلم يطّوون ما صحّ وينشرون آثاراً واهية أن المرأة لا ترى رجلاً ولا يراها رجل !! وقد وضعت تفاسير وذكرت مرويات لتقرير أن وجه المرأة عورة، وأن الإسفار عنه جريمة، وليس وراء هذا الزعم سنّة صحيحة، ولا فقه قائم..

ولعل هذا القصور العلمي وراء الانهيار الاجتماعي أمام زحف المدنية الحديثة: خذ مثلاً هذه القضية الاجتماعية الحساسة، قضية المهر، فإن الأحاديث الصحيحة وردت بفرض المغالاة فيها. روى مسلم عن أبي هريرة قال: ( جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني تزوجت امرأة من الأنصار، فقال له النبي : على كم تزوجتها؟ فقال: على أربع أواق من فضة ، فقال له النبي ﷺ : على أربع أواق !! كأنما تتحتون الفضة من عرض هذا الجبل !! )<sup>(١)</sup>. وظاهر من تعليق الرسول أنه استكثر المهر.

والأصل في المهر التيسير، وستّه ﷺ في نسائه وفي بناته التيسير، والأحاديث في ذلك كثيرة..

ولكن هذه الأحاديث الكثيرة طويت طيّا وانهزمت أمام روایة جاءت أن امرأة جادلت عمر بن الخطاب في زيادة المهر وهزّمته مستشهدة بقوله تعالى: ﴿وَاتَّمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَاراً﴾<sup>(٢)</sup>.

وهذه الرواية لم تأت بسند صحيح، بل في رجالها انقطاع وضعف، ولو تجاوزنا ذلك - وما يجوز تجاوزه - فإن موضوع الآية ومعناها ليس محل الاستشهاد، إذ الآية

(١) مسلم: النكاح.

(٢) النساء: ٢٠.

في شخص يريد تبديل زوجة بأخرى ويريد أن يسترد من الزوجة المتروكة ما أعطاها مهرا فرفض القرآن هذا المسلك الصغير، وبين أنه ما يجوز أخذ شيء من المرأة المهجورة ولو أمهرا ها قنطرة . .

والعبارة تفيد المبالغة، ولو لم تفدها فالأمر يتصل بقضية أخرى غير إنشاء البيوت، وإعفاف الرجل والنساء، وإغلاق أبواب الحرام، وتفتيح أبواب الحلال، وحماية الأمة من التسول الجنسي ومقاذر الانحراف .

وقد لاحظت أن هناك أحاديث ضعيفة تحكم المجتمعات الإسلامية وتهزم الأحاديث الصحيحة بل المتواترة. خذ مثلاً رفض صلاة النساء في المساجد، فقد فهم من أحاديث لم يروها رجال الصحيح ومع ذلك فقد أقر الرفض عملياً، وطويت الأحاديث المتواترة والصحيحة في هذه القضية المتصلة بأهم عبادات الإسلام. والتصريف في السنة بهذا الأسلوب لا يمكن أن يكون دينا قويا ولا صرطاً مستقيماً .

أما الأمر الثاني الذي يؤخذ على المستغلين بالسُّنْن عوماً، فهو: قصورهم الفقهي، وليس لهم قدم راسخة في فقه الكتاب الكريم! - مع أنه الأصل - كما أنهم يأخذون الأحاديث مقطوعة عن ملابساتها، ولا يضمون إليها ما ورد في موضوعها من مرويات أخرى قد تؤيدها وقد تردها .

خذ هذين المثلين مما عرض لي في القاهرة وأنا مهموم بقضايا الدعوة:

أولاً: وقف خطيب يدعى السلفية يروى للناس أن والد الرسول في النار، وكان ذلك لمناسبة احتفال المسلمين بالمولد النبوى!! وقلت للناس: هذا الحديث يخالف قوله تعالى: «وَمَا كُنَّا مُعذِّبِينَ حَتَّى نُبَعِثَ رَسُولاً»<sup>(١)</sup>.

وقد ثبت أن جيل الرسول الكريم وصحابته كلهم لم يبعث أحد إلى آبائهم: «لَتَنذَرْ قوماً مَا أَنذَرَ آباؤهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ»<sup>(٢)</sup>. «لَتَنذَرْ قوماً مَا أَتَاهُمْ مِّنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَهُمْ يَهْتَدُونَ»<sup>(٣)</sup>. ومعنى هذا أن عبدالله وأمثاله لا يعذبون، ولا يدخلون النار . ويكتفى هذا الخلاف لنقض الحديث فهو علة تقدح في صحته .

وعلماء المصطلح يردون المتن إذا خالف ما هو أصح وأوثق .

وليس بعد حكم القرآن الكريم حكم . ولعل الراوى فهم أن تعذيب المشركين جميما

(١) الإسراء: ١٥ .

(٢) يس: ٦ .

(٣) السجدة: ٣ .

هو الأساس ، وأن استثناء أهل الفترة رحمة فوق العدل ، فساق الحديث لتوكييد المعنى الأول ..

وعلى أيه حال فإن رواية هذا الحديث في خطبة جامعة وفي مناسبة الاحتفال بالمولد النبوى جلافة وجهالة غليظتان ..

ثانياً: قال خطيب آخر يدعى التصوف: إن الله ليلة المراجعة نزل لمحمد وأوحى إليه. وقلت للناس: ما روى في ذلك كان رؤيا منام، ومع ذلك فقد رفضه الحفاظ وردوه رداً شديداً وعدوه من العثرات القليلة التي أخذت على راويه.

وقد لاحظت أن المطبع وضعت في أيدي الجماهير نسخاً كثيرة من الموطأ ومن الصحيحين ، وكثيراً ما يقرأ العامة أحاديث فوق مستواهم ، والحديث إن لم يقدمه عالم فقيه ، أو إذا لم يصحب بشرح يلقى ضوءاً كاشفاً على معناه ، ربما كان مثار فتنة ولغط . وكم من أنصاف متعلمين أساءوا إلى السنة بضعف الفقه وقصور البصر .. .

والخلاصة أن طاعة رسول الله ﷺ من طاعة الله تبارك وتعالى: «وأطِيعُوا الله والرسول لعلكم تُرحمون»<sup>(١)</sup> - «من يطع الرسول فقد أطاع الله»<sup>(٢)</sup>.

## حقائق محترمة:

وإنَّ من زعم أنَّ الرسول يجوز عصيانه فيما أمر به ونهى عنه، فهو كافر باتفاق المسلمين . . وقد بذلت جهود لم تبذل مثلها في الوقوف على تراث بشر كى يعرف ماذا قال الرسول حقاً . . وانتهت هذه الجهود بجملة حقائق محترمة .

١ - أنَّ في السنة ما هو متواتر لفظاً أو معنى ، وهذا النوع من السنن يشبه القرآن الكريم فيما أتى به من أحكام ، ولا يمكن ردَّه ، وهو كثير في التراث النبوى وعليه تقوم الكثرة الكاثرة من الأحكام المقررة . وليس بصحيح أنَّ المتواتر في السنة ضيق النطاق ، ربما كان ذلك فيما تواتر لفظه ، أما ما تواتر معناه فهو أساس مقررات فقهية كثيرة . والواقع أنَّ أخبار الآحاد من الناحية العملية لا تشكل مساحة كبيرة من السلوك الإسلامي المهم ، فإنَّ ما لا بد منه تكفلت به نصوص ثابتة بيقين . .

٢ - جمهور الأمة يقبل سُنن الآحاد ويعدها دليلاً على الحكم الشرعى الذى تتبعه

(١)آل عمران: ١٣٢.

(٢) النساء: ٨٠.

الله بِإِقَامَتِهِ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ عَدَ هَذِهِ السُّنُنَ مُفَيْدَةً لِلْيَقِينِ الَّذِي يُفِيدُهُ التَّوَاتِرُ - مَادَامَتْ صَحِيحَةً - وَلَكِنْ جَمِيعُ الْعُلَمَاءِ يَقْبِلُ سُنُنَ الْأَحَادِيدِ فِي الْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ وَالْفَرَوْعَةِ الْفَقِيْهِيَّةِ ، وَلَا يَنْقُلُهَا إِلَى مَيْدَانِ الْعِقِيدَةِ الَّذِي يَقُولُ الْأَمْرُ فِيهِ عَلَى الْقُطْعَ . وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ سُنُنَ الْأَحَادِيدِ تَفْيِدُ الظَّنَّ الْعَلْمِيَّ وَحْسَبَ . .

٣ - مَعَ اتْفَاقِ الْفَقَهَاءِ عَلَى أَنَّ سُنُنَ الْأَحَادِيدِ قَرِينَةٌ مَقْبُولَةٌ فِي إِفَادَةِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ ، فَإِنْ عَدَدًا مِنَ الْأئِمَّةِ يَتَجَاوزُ هَذِهِ السُّنُنَ إِذَا كَانَتْ هُنَّا كَيْفَيَّةً مِنْهَا فِي إِفَادَةِ حُكْمِ اللَّهِ . (فَمَالِكُ ) مَثَلًاً يَرَى عَمَلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَدْلُّ عَلَى السُّنْنَةِ النَّبُوَّيَّةِ مِنْ حَدِيثِ الْأَحَادِيدِ مَهْمَا كَانَتْ صَحَّتِهِ ، (وَالْأَحْنَافُ ) يَرَوْنَ أَنَّ حَدِيثَ الْأَحَادِيدِ لَا يَنْهَضُ عَلَى إِثْبَاتِ الْفَرَضِيَّةِ وَحْدَهُ ، وَلَا يَنْهَضُ كَذَلِكَ عَلَى إِثْبَاتِ الْحُرْمَةِ ، وَلَكِنَّهُ يُثْبِتُ أَحْكَامًا أَقْلَى رَتْبَةً . وَغَالِي بَعْضُهُمْ فَجَعَلُ الْقِيَاسَ الْقَطْعِيَّ أَرْجُحَ مِنْ سُنُنَ الْأَحَادِيدِ .

وَدِرَاسَةُ السُّنْنَةِ عِلْمٌ لِرَجَالِ الْخَبَرَاءِ ، وَلَا يَقْبِلُ فِي هَذَا الْمَيْدَانِ مَا يَرْسِلُهُ السُّفَهَاءُ مِنْ أَحْكَامٍ طَائِشَةٍ تَجْعَلُ التَّطْوِيْعَ بِالسُّنْنَةِ الشَّرِيفَةِ أَمْرًا جَائِزًا أَوْ تَجْعَلُ تَكْذِيبَ حَدِيثٍ مَا هُوَ مَطَاعِعًا .

إِنَّهُ لَا فَقْهٌ بِغَيْرِ سُنْنَةٍ وَلَا سُنْنَةٌ بِغَيْرِ فَقْهٍ ، وَقَوْمٌ الْإِسْلَامِ بِرَكْنِيهِ كُلِّيهِمَا مِنْ كِتَابٍ وَسُنْنَةٍ .  
وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْأَسْتَاذُ الْإِمَامُ حَسَنُ الْبَنَى :

(الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَالسُّنْنَةُ الْمَطْهُرَةُ مَرْجِعُ كُلِّ مُسْلِمٍ فِي تَعْرِفِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ ، وَيَفْهَمُ الْقُرْآنَ طَبْقًا لِقَوَاعِدِ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ وَلَا تَعْسُفٍ ، وَيَرْجِعُ فِي فَهْمِ السُّنْنَةِ إِلَى رَجَالِ الْحَدِيثِ الثَّقَاتِ) <sup>(١)</sup> .

\* \* \*

---

(١) الْأَصْلُ الثَّانِي مِنَ الْأَصْوَلِ الْعَشْرِينِ .

## المفاسد والأوهام أساس الإسلام

لبعض المتصوفين شطحات تحسب عليهم ويحذر المسلمون منها، قد تكون شطحات فكرية مثل ما روى عن محيي الدين بن عربي من توبة فرعون! فقد زعم أن فرعون رجع إلى الله صادقاً ومات طاهراً! ذلك أنه لما أدركه الغرق **﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾**<sup>(١)</sup>.

قال ابن عربي: قبل الله إيمانه وتوفاه مسلماً!!

وهذا كلام موغل في الخطأ. بل موغل في السخف. وقد أجمع فقهاء الأمة سلفاً وخلفاً على أن فرعون وأمثاله من أركان جهنم، وأن توبته عند الغرق لا تساوى شيئاً.. وفي آيات كثيرة ما يحدد مصيره. **﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبَشَّرَ الْوَرَدَ الْمُوْرَوْدَ وَأَتَبِعَهُمْ فِي هَذِهِ لَعْنَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرُّفَدُ الْمَرْفُودُ﴾**<sup>(٢)</sup>.

وابن عربي رجل يصيب ويخطئ، والمخوف منه ومن غيره أن يفكر بالطريقة التي تحلو له، ثم يلتمس إلى تقوية فكره العليل فيقول جاءني الرسول في الرؤيا، واعتمد مؤلفاتي، وقال لي: انشرها على الناس..!

ورؤيا ابن عربي لرسول الله ﷺ لا تصوب له خطأ ولا ترجح له ظناً، ونحن ننقد أقواله دون أي نظر إلى هذه الرؤى..

وأذكر أن مؤذنا بالريف المصري كان يضم كلمة «سيدنا» إلى «أشهد أن محمداً رسول الله»، فلما جودل في ذلك زعم أن الرسول أقره عليها في المنام! وقلت للرجل: إن ديننا لا يكتمل في اليقظة جهاراً نهاراً، وليس بانتظار رجل يثقل في الطعام ثم يهرب في المنام!!

المسلم رجل جيد العقل يلتمس الحق من مصادره وحدها، فإذا عرفه التزمه واحترمه واستقام على طريقه حتى يتوفاه الله، وليس للتخامين والأوهام مكانة في فؤاده لأنه - كما أمره الله - لا يقفوا ما ليس له به علم.

(١) يونس: ٩٠.

(٢) هود: ٩٨، ٩٩.

ومع لزوم التقوى وإدامة العبادة يتكون من ضمير المؤمن حسٌ ذكي ينفر من الشر والقبح، وينجذب إلى الخير والجمال، ويحب أقواماً ويكره آخرين، وينصر قضايا ويهزم أخرى . . . وهذا الحس يخبو ويصفو مع قوة الإيمان وضعفه، وشدة السير إلى الله أو وحنه . وقد وردت بذلك آيات جعلت الإيمان حياة من موت، وضياء من ظلمة، وفرقانا من ليس، ورحمة من عناء ﴿أوَ من كَانَ مِتَّا فَأَحْيَنَا وَجَعَلَنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾<sup>(١)</sup>.

على أن المؤمن في صباحه ومسائه ما يستغني عن الأدلة الموجهة حسية كانت أو معنوية، وإحساسه الخاص لا يقوم بإزاء القرائن الظاهرة والشواهد القاهرة ..

ولقد جاء في الأثر أن المؤمن ينظر بنور الله، وكثيراً ما تصدق هذه الفراسة. ولكن هل هذه الفراسة تصل إلى مجالس القضاء وثبتت بها قضايا ويدان بها خصوم؟ كلا، إنها حجة قاصرة، لا، بل هي حديث نفس تخطئ وتصيب، ومهما بلغت قوتها فلن تعدو روع صاحبها..

إنه ارتقاء عظيم أن تتجاوب نفس مع حقائق الكون، وقد شعرت بأقدار المؤمنين العارفين عندما رأيت رب العالمين يقرنهم بذاته وملائكته، ويكشف عن شهودهم لله الواحد، وإذعانهم لعدله المطلق: **﴿شَهَدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ أَوْلُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقَسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** (٢).

وآخر طوى الملوك كله فى فؤاده، وعرف نور السموات والأرض وارتبط به، واستعد للقائه، وادخر الكثير عنده..

ما أبعد الشقة بين الابن العاق والابن البار، ما أبعد الشقة بين المؤمنين والكفار !! .

وبعد الشقة يجئ من الفرق بين رؤية محدودة محجوبة، ورؤية تنتظم الآفاق  
وتخترق الأسوار وتشهد الواقع كما هو لا كما يرسمه الخيال ..

لقد عرّفوا الصدق بأنه مطابقة الخبر للواقع ، ومن ثم فالإيمان الصادق ليس وجهة نظر لصاحبها وإنما هو إدراك الحق بلا مغالاة ولا تفريط ، إدراك الحق كما هو .

١٢٢: (١) الأَنْعَامُ.

آل عمران: ۱۸ (۲)

## الإسلام يحترم العلم وحقائقه:

ونحن نحترم العلم وحقائقه وننزل على حكمه، ونرفض كل تدين أو تقوى بينهما وبين المنطق العقلى جفوة..

قال لى أحد الشيوخ الكبار: كنت فى الهند، ووقفت عند راهب فى صومعته منصرف عن الدنيا، واستمعت إليه ينفح فى الناى فسرق قلبي، وكان معى أمين الجامعة العربية فرنا إليه كما فعلت. كان سنته المستعلى على الحياة، ولحنه المبعة من الأعماق يهزنا هزا، وما ملكتنا أعيننا من أن تدبر الدمع، ولا أفتتنا من أن تغزوها الرهبة.

ولم أستغرب الواقعه المروية، ولا أثر الموسيقا فى صبغ النفوس بشتى المشاعر، وذكرت بيتا من قصيدة للعقاد يصف ذلك.

تهزين أعطااف البخيل فيكرم ويصغى إليك المشمخ فيرحم

بيد أنى تساءلت: ما خطب هذا الراهب المتحنى فى صومعته؟ من يعبد؟ أى عبد الله الأحد الذى لا إله إلا هو؟ أم يعبد إليها مثلثا له ثلاثة رءوس وثلاث زوايا وإن كان مثلثا واحدا؟ أم يعبد مظاهر الوجود فى الجرثومة الزاحفة والنجمة السارية؟ ترى ما الذى يملأ قلبه بالشجن؟ أى بكى مصيبة نزلت به خاصة؟ أم يبكي مأسى البشرية التى ترحم القارات؟

إنى لا أعرف دخيلة هذا الراهب، ورأيت أن أبدى ما عندي للشيخ الكبير فقلت له: مع أنى حاد العاطفة إلا أن الدليل العقلى أرجح عندي من صوت المزمر الحنون!

وأنا أرفض قبول عقيدة خرافية تنساب مع صوت شجى. إن الهيام الروحى وراء وهم خادع كالهيام الجنسى وراء عشيقه محرمة؛ لابد من احترام صوت العقل أولاً وآخرأ، هذا ما تعلمناه من كتابنا العظيم.

ألقيت محاضرة مطولة عن «أولى الألباب» فى القرآن الكريم. إن هذه الكلمة تكررت نحو خمس عشرة مرة. وفي كل موضع كان السياق يضم مجموعة من الشمائل، أو يشير إلى خلة من الخلال التى يعلو بها قدر الإنسان فكرأ وخلقا معا.

أولو الألباب هم أهل الخطاب وموضع الثقة وعليهم المعول فى قيادة الدنيا بالدين.

وقد رأيت ناسا طيبين، شديدي الثقة بطيبتهم، يستمدون منها حكمهم على الأشخاص والأشياء، وربما صدرت لهم أحكام بالطيبة والخبث أو الحل والحرمة أو التقديم والتأخير لا مصدر لها إلا ذوقهم ومزاجهم !!

وهذا مسلك قد يصل بذويه إلى الزيف أو الدجل . وعندما أتدبر أزمة الإيمان في عالمنا المعاصر أو أزمة الدين خلال تاريخ الإنسانية الغابر ، أشعر بأن أصل البلاء نجم عن أقوام يظنون حكمهم على الأمور هو حكم الله ، ووصايا المرسلين ..

وينبغى التوكيد باستمرار على أن الحكم الشرعي هو «خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين» - كما يعبر علماء الأصول - وأن استفادة هذا الحكم هي من الله ورسوله ، أي من الكتاب والسنة ، وأن الوسائل العلمية المحترمة هي الطريق الفذ لهذه الاستفادة . فليس لأحد أن يقول : نفث في روعي كذا! أو ألهمت كذا ، أو رأيت في منامي كذا ، أو روى قلبي عن ربى كذا!! فذلك كله فرضي مردودة .

### الحكم من القرآن أساس الاعتقاد والتشريع:

والإيمان بالغيب ليس ثغرة ينفذ منها الخرافيون وعشاق الأوهام كي ينفثوا سموهم ، فدائرة هذا الإيمان محددة . وإذا كان في الدين محكم ومتشبه فإن المحكم أم الكتاب وأساس الاعتقاد والتشريع ، ودعاة النشاط الإنساني أعظم أقطاره وأهمها !

وإثبات المتشابه ليس إلا تتمة للمعارف التي ينبغي للعقل أن يلم بها وإن لم يعلم كنهها .

والواقع أن الاشتغال بالتشابه مرض نفسي ووظيفة سمية للبطالين وهواء الجدل . كذلك توسيع دائرة المغيبات ومحاوله جعل الدين طلاسم فوق العقل ، أو معميات ينكرها المنطق ، إن ذلك كله ضرب من الكهانة يتلقنه بعض الناس القاصرين وذوي النزعات الأسطورية ، وما أكثرهم في ميدان الدين .

و قبل أن نسوق بعض الأمثلة نستلتفت النظر إلى القاعدة العقلية «عدم العلم بشيء ليس علما بعده» ، وأختها «ما يحكم العقل باستحالته غير ما يعجز عن دركه» !! إنني أعرف رحابة الكون الذي نعيش - نحن البشر - في نقطة صغيرة منه ، أو فوق هباءة اسمها الأرض .

هل أعقل أن هذا الكون الضخم تزأر فيه رياح الخراب علوا وسفلا ، فليس فيه من يعقل ويكلف إلا البشر وحدهم؟ لا أستسيغ هذا الزعم !

فإذا حدثني القرآن عن عالم آخر اسمه الملائكة ، أو عالم آخر اسمه الجن ، أو عوالم أخرى للأرواح الآية إلى ربها بعد رحلة الحياة الأرضية ، فإني - من ناحية المبدأ - أقبل .

ولما كنت على ثقة مطلقة من صدق البلاغ الذى جاءنى وعصمة المبلغ الذى نقل إلى ، فإنى أؤمن بالملائكة والروح . وما أشبه ذلك من مغيبات .

صحيح أنى لا أعرف كنه هذه الخلائق ، لكن هل عدم معرفتى يحکم بالإعدام عليها؟ إن علماء المادة الآن يحارون في كنهها ، ويقفون دهشين أمام أسرارها وقوانينها ، وهذا العجز عن المعرفة لم يسوغ إنكار الوجود .

من أجل ذلك أؤمن بالغيب ، وأضعه في الدائرة المحکمة التي لا يعدها .

وهناك سؤال: هل الله غيب؟ يرى بعض المفسرين والفقهاء أنه من الغيب .

وأشعر بغضاضة من ذلك ، ورغبة في توضيح الأمر . إن العالم أجمع يقوم بالله ، ويستمد منه وجوده ، فهل ما ترتكز عليه المحسوسات يسمى غيابا؟

نحن ندرك أن نبض قلوبنا ، وتلاحق أنفاسنا ، وحركات أمعاننا ليست طوع إرادتنا ، ولا هي من طاقة داخلية نشرف عليها نحن وللحظة سيرها .

وعندما ننام ، وتلاشى شخصيتنا تبقى هذه الأعمال متواصلة بأمر الحى القيوم ، فكيف يكون مصدر الإيجاد والإمداد غيابا؟!

ربما كان ملحوظ القوم أن حقيقة الذات فوق الفكر والحس ، وهذا حق . وأيا ما كان الأمر فنحن نؤمن بالله وملائكته وبأشياء في عالم الغيب والشهادة لا نعرف بدقة كنهها .

ولكننا نسارع إلى توكيد أمر مهم ، هو أن ما حكم العقل باستحالته ليس من قبيل الغيبات التي يجب اعتقادها ، مثل كون الواحد ثلاثة أو ثلاثة واحدا ، فإن ما يحکم العقل باستحالته يدخل في نطاق المعدوم الذي لا يمكن أن يقع ، فكيف يحال حقا؟!

إن دائرة الغيبات لابد أن ييرز محيطها بجلاء حتى لا تستغل عاطفة التدين في إشاعة الباطل ، وترويج الخرافات .

وقد لخص الأستاذ الإمام حسن البناء ما قلناه بشأن تعرف الأحكام الشرعية ، ثم بشأن دائرة الغيبات فقال: للإيمان الصادق ، والعبادة الصحيحة والمجاهدة ، نور وحلوة يقذفها الله في قلب من يشاء من عباده ، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ، ليست من أدلة الأحكام الشرعية .. ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه<sup>(1)</sup> .

---

(1) الأصل الثالث من الأصول العشرين .

وقال: التمائم والرقى والودع والرمل والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب - المستقبل - وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته.. إلا ما كان آية من قرآن، أو رقية مأثورة<sup>(١)</sup>.

نقول : دعاء المريض لنفسه أو دعاء من معه له مطلوب ، والجؤار بالدعاء لا يمنع من تلمس الدواء ، والاستعانة بالأطباء ، فإن ذلك أيضاً مشروع .

وقد وردت في السنة المطهرة أدعية شتى ، كما وردت في القرآن الكريم سور يتحصن المصاب بتلاوتها ، وهذه وتلك تسميان رقى ، ولا يزال المؤمنون يستردون من البلاء ، ويدفعون العلل النازلة بما أودع الله في كلماتها من خير وقبول ..

وجاء في بعض الآثار أن أحد الصحابة كان إذا رأى أولاده صغاراً لا يقدرون على ترديد الدعاء كتبه في ورقه وعلقه بأبدانهم .. ترى ما قيمة هذا التصرف؟ أغلب الظن أنه مسلك عاطفي دفع إليه فيض الحب للأولاد! والمسالك العاطفية الخاصة لا تؤخذ منها قدوة ، ولا تعد من باب التشريع ..

والغريب أن ذلك الأثر - على ضعفه - فتح باب المعلقات ، وأغرى جمahir من السذاج أن يتسبّلوا بها طلباً للنجاة حتى كاد الأمر يتحول إلى شرك ، وجاهلية . والمحفوظ عن رسول الله ﷺ : «من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودّع الله له»<sup>(٢)</sup> .

إن الإنسان يضعف كثيراً أمام الرغبة في الشفاء أو في استشاف المستقبل ، وقد رأيت مثقفين ينظرون في طوال النجوم وفي خطوط الأكف يريدون أن يعرفوا ما كتب لهم في الغد القريب أو البعيد ، وذلك كله نوع من البطلة ، ودليل على نقص الإيمان ..

وعلى المؤمنين أن يصونوا سيرتهم من هذا العوج ، وأن يردوا عن الإسلام تهمًا كثيرة تتجه إلى الأديان كلها في هذا العصر .

\* \* \*

---

(١) الأصل الرابع من الأصول العشرين .

(٢) أحمد ج ٤ ص ١٥٤ .

## بَيْنَ النَّصِّ وَالصَّاحِةِ

جرت على الألسنة عبارة غامضة، أن عمر بن الخطاب ألغى بعض النصوص، أو أوقف العمل بها على نحو ما، لأنه رأى المصلحة في ذلك!

وهذا كلام خطير، معناه أن النص السماوي قد يخالف المصلحة العامة، وأن البشر لهم - والحالة هذه - أن يخرجوا عليه، ويعدموا.

وكلا المعنين كاذب مرفوض، فلا يوجد نص إلهي ضد المصلحة، ولا يوجد بشر يملك إلغاء النص . . . !!

ولننظر إلى ما نسب لعمر في هذا الشأن. قالوا: منع سهم الزكاة أن يُصرف للمؤلفة قلوبهم بحجة أن الإسلام استغنى عن تألفهم . .

وفهم صنيع عمر على أنه تعطيل للنص خطأ بالغ، فعمر حرم قوماً من الزكاة لأن النص لا يتناولهم لأن النص انتهى أمده!

هب أن اعتماداً مالياً في إحدى الجامعات خصص للطلبة المتفوقين، فتختلف في المضمار بعض من كانوا يصرفون بالأمس مكافآتهم، فهل يعد حرمانهم إلغاء للاعتماد؟ إنه باق يصرف منه من استكملوا شروط الصرف.

وقد رفض عمر إعطاء بعض شيوخ البدو ما كانوا ينالونه من قبل تألفاً لقلوبهم أو تحنياً لشروعهم بعدما استطاع الإسلام أن يهزم الدولتين الكبيرتين في العالم، فهل يظل على قلقه من أولئك البدو أمثال عباس بن مرداس والأقرع بن حابس؟

أبعد هزيمة كسرى وقيصر يبقى الإسلام يتالف حفنة من رجال القبائل؟

ليذهبوا إلى الجحيم إن رفضوا الحياة كغيرهم من سائر المسلمين..!

إن مصرف المؤلفة قلوبهم باق إلى قيام الساعة يأخذ منه من يحتاج الإسلام إلى تألفهم، ويزاد عنده من لا حاجة للإسلام فيه.

وعمر وغيره من الخلفاء والحكام أعجز من أن يعطوا نصاً، وأتقى من أن يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ويجب أن تفهم التصرفات بدقة، ولا تساق التهم جزافاً . .

## عمر لم يعطل حد السرقة:

وقالوا: إن عمر عطل حد السرقة عام المجاعة.. ونقول: إن الجائع الذي يسرق ليأكل أو ليأكل أولاده لا قطع عليه عند جميع الفقهاء، فما الذي عطله عمر؟ ..

إن قطع السارق المعتدى الظلوم هو حكم الله إلى آخر الدهر، ولا يقدر عمر ولا غير عمر على وقف حكم الله.

ولإقامة الحد شروط مقررة، فمن سرق دون نصاب، أو سرق من غير حرز لم تقطع يده، ولا يقال: عطل الحد، بل يقال: لم يجب الحد!

والذى حدث أيام عمر أن المدينة وما حولها تعرضت لقحط عام، وفي عصرنا هذا نسمع بمجاعات فى آسيا وإفريقيا يهلك فيها الألوف، وليس بمستغرب أن يخرج الناس من بيوتهم يطلبون القوت من أى وجه، وقد يحملهم ذلك على الخطف أو السرقة، فهل تعالج تلك الأحوال بالسيف؟

إن عمر درأ الحد بالشبهة - كما أمرت السنة الشريفة - ولا يعاب إذا توسع فى هذا الدرء، وقدر آلام الجياع فى تلك المحن المجتاحة ..

ذاك تفسير ما روى عنه: إننا لا نقطع فى عام جدب. وقد نقلنا فى مكان آخر رفضه لقطع أيدى الغلمان الذين سرقوا ناقة لابن حاطب بن أبي بلتعة. وظاهر أن مسلكه إجراء استثنائي تجاه ظرف استثنائي، وأنه نفذ الحد عندما وجب، ودرأه بالشبهة عندما لم يقم ..

## عمر لم يحرم الزواج بالكتابيات:

وقالوا: إن عمر حرم الزواج بالكتابيات مطلباً بذلك قوله تعالى «... والمحصنات من الذين أتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيموهن أجورهن محسنين غير مسافحين»<sup>(1)</sup>.

ونقول: إن الزواج باليهوديات والنصرانيات مباح على الصفة التى ذكر الكتاب العزيز، من شاء فعل، ومن شاء ترك، وفق رغبته، وقد تقوم حواجز على الفعل أو على الترك لا تغير الحكم الأصلى.

فإذا رأى شخص أن ذلك الزواج وسيلة هداية إلى الحق فعل، وإذا رأى أحد أن

(1) المائدة: ٥.

ذلك يجعل سوق المؤمنات كاسدة ترك، ونصح غيره بالترك، وهذا ما فعله عمر. قال ابن جرير بعد ما حكى الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات: وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس في المسلمات أو لمعنى آخر. ثم قال: تزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر خل سبيلها! فكتب إليه حذيفة أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها؟ فقال عمر: لا أزعم أنها حرام، ولكنني أخاف على المؤمنات أن تزهدوا فيهن وتقبلوا عليهن، أو كما قال. ونظرة عمر موضع تقدير، وهي لا تلغى نصا كما رأيت ولكنها تستلفت النظر إلى مصلحة اجتماعية تجعل تناولنا للمباحثات أدق وأرشد..

وللفقهاء بحوث في جواز تقييد المباح، وفي عصرنا تجنب حكومات كثيرة إلى حظر الزواج من الأجنبيةات على رجال السلكين السياسي والعسكري، وإنما تفعل ذلك حفاظا على أسرارها وأمانها..

ويرى الشاطبي أن تقييد المباح لا شيء فيه إذا كان من دائرة «العفو» أي مما سكت الشارع عنه، أما إذا كان هناك نص بالإباحة فلا مكان لقييد ما، حتى لا نحرم ما أحل الله..

وهذا نظر دقيق. وفي قضية الزواج باليهودية التي كرهها عمر نراه أكد أصل الحال والحرمة، ولكنه كره من رجل كبير مثل حذيفة بن اليمان أن يسيء إلى المؤمنات بما قد يضيرهن..

إن المصلحة لابد من رعايتها، ومعنى النص الشرعي أن المصلحة قد ارتبطت به أبدا، فهو دليلها وضمانها، وأى تعطيل له فهو خدش للمصلحة أو تطويق لها.

ونحن نلحظ في العقوبات الشرعية المنصوص عليها أنها تناولت عددا معينا من الجرائم، فالحدود المقررة تعدد على الأصابع.. ويستطيع الحاكم في جرائم لا تختص أن يضمن المصالح بما شاء من عقوبات.

هناك جرائم الربا والغصب والفرار من القتال والغش والخيانة وأكل مال اليتيم وكل أنواع المال والعرض والدم التي لا تتناولها الحدود أو ضروب القصاص، وهذه سيئات كثيرة، ودائرة التعزير تسعها، والقضاء يقدر على إرصاد ما يرى من عقوبات تحفظ مصالح الأمة وتقر الأمان هنا وهناك.

### إمضاء أمر الله نماء وبركة:

إن المصلحة لا يمكن أن يحفظها تعطيل نص، فإن إمضاء أمر الله نماء وبركة. وفي الحديث

أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «حد يعمل في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا ثلاثة صباحاً»<sup>(١)</sup>.

وعندما يشكل المجتمع بالوعد والوعيد والرغبة والرعب وفق أوامر الله سبحانه، فإن الرخاء يعم والشُّؤم يستخفى، والمخاوف كُلُّهن أمان..

والفقه الصحيح أن نتعرّف على المصلحة حيث لا نص، وأن نجتهد في تفهُّمها ثم في تحقيقها ناشدين إرضاء الله وخير الأمة..

الإسلام مثلاً لم يضع رسمًا محدّدًا لأسلوب الحكم، وإنما وضع له أخلاقاً ترعنى وقيمًا تسان، فكيف نولى حاكماً؟ وكيف نعزله؟ أو كيف نحاسبه ونراقبه؟ ماهي أجهزة الشورى؟ وكيف نستوثق من التقاء الآراء الناضجة فيها؟ وكيف تنصى في مجريها دون إرهاب أو إغراء؟

للأمم في هذه الميادين أن تجتهد في وضع النظام الذي يحقق مصلحتها دون ما قيد.

وأذكر أن أحد الناس سأله - ورئيس الجمهورية يختار لبعض سنين - فقال: أليست هذه بدعة..؟ قلت: ما البدعة؟ قال: توقيت مدة الرئاسة.. فإن الأصل اختيار الحاكم مدى الحياة!

قلت له: التوقيت والإطلاق سواء من الناحية الفقهية، وتوتّر الأم على ما تراه أكفل لحقوقها، فإذا أثرت أن يكون اختيار الحاكم لأمد معلوم فلها ذلك.. قال: كان اختيار الخليفة الأول مدى الحياة.. قلت: آثر الصحابة أحد الوجوه، ولا تحرّم للوجه الآخر..

قال: ألا يكون سنة؟ قلت، لا.. لا سنة إلا بنص، ولا نص هنا.

إن فعل النبي ﷺ قد يكون دليلاً لإباحة، وقد يكون دليلاً لأفضليّة، ولا وجوب أو ندب إلا بدليل، أو بنص.

وفي مجال المصالح المرسلة يستطيع الساسة المسلمون أن يصنعوا الكثير لأمتهم، على ألا يصطدموا بنص قائم، فإن هذه النصوص معاقد المصلحة العامة وإن عميت عن ذلك أنظار.

\*\*\*

وتتصل النصوص بنوعين من السلوك يغایر أحدهما الآخر، وذلك التغایر يرجع بدها إلى الطبيعة البشرية. فهناك أعمال محتومة يباشرها الناس دون انتظار وحى ملهم

(١) أحمد ج ٢ ص ٤٠٢.

كالزواج مثلاً، فإن البشر من بدء الخليفة اتجهوا إليه إجابة لغرائزهم وبقاء لنوعهم وتجميلاً لعيشهم . . فلما جاء الدين كان إرشاده لهذا النوع من السلوك: رفض الزواج بالمحارم، وبناء الأسرة على الاختيار لا على الإكراه، وتشريع آداب كثيرة في العلاقات الجنسية وما ينشأ عنها.

وقد تباع الناس قبل مجىء الوحي، فلما بعث الله رسle هذب المعاملات التجارية وصانها من الغش والربا والاحتكار وغير ذلك من تطلعات الأثرة والجشع.

فالتشريع في ميدان المعاملات - كما قال فقهاؤنا - يقوم على رعاية المصلحة وضبطها، ثم إشراب هذه المعاملات رقابة الله وانتظار ثوابه.

لكن هناك ت Shivيات أخرى تتصل بعبادة الله سبحانه. إننا قد نعرف ربنا بفطرتنا السليمة، بيد أن الأسلوب الذي نترجم به عن حبنا له وعن خضوعنا وإخلاصنا ليس من وضعننا نحن . . إنه من حق الله وحده، فهو الذي يعرفنا بأسمائه الحسنى وهو الذي يعلمنا كيف نصلى له، وكيف نصوم، وكيف نحجج بيته العتيق!

إن نصوص العبادات والمعاملات سواء في ضرورة الاحترام والإنفذ، ومن حسن الفقه أن نعرف المحور الذي تدور عليه التعليمات الدينية في كلا المجالين.

وفي ذلك يقول الإمام الشهيد «ورأى الإمام ونائبه فيما لا نص فيه، وفيما يتحمل وجوهاً عدّة، وفي المصالح المرسلة، معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات، والأصل في العبادات التبعد دون الالتفات إلى المعانى، وفي العادات الالتفات إلى الأسرار والحكم والمقاصد»<sup>(1)</sup>.

## الخلاف شؤم والفرقة عذاب:

الخلاف شؤم والفرقة عذاب! ولم أر مصداق ذلك في شيء كما رأيته في تاريخ الأمة الإسلامية.

إن المطريق التي هوت على أم رأسها، وجعلتها تجثو بين أيدي أعدائها، كانت من الداخل لا من الخارج!

حدث ذلك في تاريخها القريب والبعيد، وجنت الأمة من وراء انقساماتها الصاب والعلقم . .

(1) الأصل الخامس من الأصول العشرين.

فكان لزاماً على أولى الألباب أن يدرسوا هاتيك الأوضاع ويكتشفوا عللها ويجنبو  
المستقبل ما وقع في الماضي.

وفي تجوالى بأرجاء العالم الإسلامي رأيت اختلاف الفقهاء من ألف عام ويزيد،  
يقسم المسلمين طوائف متباينة، ويغرى الرجل أن ينظر إلى أخيه شزراً في قضية علمية  
خفيفة الوزن! وربما رفض الصلاة خلفه!

ثم تنضم إلى الخلاف الفقهي قضايا شخصية ومنفعية تخصل هذا أو ذاك، فإذا الإخاء  
الإسلامي يذوب والخصومات الخبيثة تضرى وينشغل المسلمون بعضهم ببعض.

والكاسب الأول من هذا الخلاف المشئوم هو الشيطان وأحزابه، والخسار حظ المسلمين  
كلهم لا محالة..

### الأئمة الأربعه رجال لا نظير لهم:

درست سير الأئمة الأربعه فوجدت نفسى أمام رجال ليس لهم في التاريخ الإنساني  
نظائر.

كبار غريب على الدنيا، ورغبة في الله عميقه، وصلابة تنحسر دونها عوامل الرغبة، والرهبة.  
كانوا على تجردهم ملوكاً، وقد هابهم أصحاب السلطان. وضاقوا بالتفاف الجماهير  
حولهم، وحاولت السلطات أن تستغل لصلحتها جاههم الديني.. وهيات.

ومع تقواهم لله، فإن توقد ذكائهم، وسعة علمهم، واستنارة آفاقهم كان نعم العون لهم  
على خدمة الكتاب والسنّة.

إن الشهرة التي رزقها هؤلاء الأئمة لم تأتهم حظوظاً عمياء، كلا. إنها أتتهم عن  
جدارة، وما يقدر منصف على انتقاص المكانة التي هيأها الله لأولئك الفقهاء الأكابر.

### لماذا انقادت الأمة لهؤلاء الأئمة الأعلام:

ويظهر لي أن العالم الإسلامي أعطى مقاداته لأئمة الفقه - إلى عصرنا - ولم يعطها  
رجال الحديث لسبعين:

أولهما: أن الفقه المذهبى<sup>(١)</sup> يعتمد على السنّة كما يعتمد على القرآن الكريم مع بصر  
أحد بالمعانى والغايات.

---

(١) قد تضم إلى المذاهب الفقهية زواتد باطلة يعرفها الراسخون في العلم، بيد أن ذلك لا يحط قدرها.

والثاني : أن المحدثين - إلا قليلاً - اهتموا بالأسانيد أكثر من المتن ، وشغلوهم  
العنعة عن الفقه الرحب ، فلم يحسنوا تقرير الأحكام والمصالح ..

والواقع أن الفقه بلا سنة كالسنة بلا فقه جهد باطل ..

وبديه أن يكون للأئمة الكبار أتباع مخلصون ، يدورون في فلکهم .

وبديه أيضاً أن يكون هناك من لا يدور في فلکهم ومن لا يرافق أولى منه  
بالصواب ..

إلا أن الفقه المذهبى مرّ بأدوار بعدت به آخر الأمر عن منابعه الأولى . فقاد المذاهب  
كانوا يشرحون الكتاب والسنة ، ويعدون شروحهم اجتهاداً مقتنعاً بهم ولمن معهم ..  
ولكنهم ما رأوا قط أن الصواب حكر عليهم ، ولا عادوا غيرهم فيما فهموه هم ..

ثم جاء الأتباع أخيراً فأخذوا أقوال أئمتهم على أنها الأصل الذي يشرح ، ونظروا  
إليها كأنها الدين الذي يتبع .

ونشأ عن هذه جفوة بين مقلدي المذاهب المختلفة ، كما نشأت جفوة بين كتب  
الحديث وكتب الفقه !!

وهذا العوج الثقافي أضر كثيراً بأمتنا .. إننا نعلم أن لكل إمام نزعته العقلية ومنهجه  
الخاص في الاستدلال ، يد أن أحدهم لم ير الآخرين دونه ، كما أن شرف أي إمام  
في ارتباطه بالكتاب والسنة معاً .

وقد ظهر أقوام من المستغلين بالحديث يطعنون في الأئمة كلاً أو بعضاً ! وهذا حمق ،  
ولو أنهم عابوا مقلدي المذاهب في جمودهم وضيق باعهم لكان ذلك أرشد .

وقد تبعت نفراً من هؤلاء فوجدتهم بلاء على السنة .. قال أحدهم . إن إبا حنيفة  
ترك السنة الصريحة وخالف رسول الله ﷺ .

قلت : فيم؟ قال : يقتل المؤمن بالكافر ! قلت : نعم يقول أبو حنيفة إن المسلم إذا قتل  
رجالاً من أهل الذمة قتل فيه ، ودليله على ذلك من القرآن ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾<sup>(1)</sup> ، فلا  
فارق بين حر وعبد ولا مؤمن وكافر ، وقد جعل الحديث في المحاربين ومن لا عهد  
لهم .

قال : هذا خطأ ! قلت : خطأ أو صواب ، كيف استساغت أن تتهم إماماً بمخالفة  
رسول الله وهو يستند إلى أساس دينه ، إلى القرآن نفسه ؟ !

(1) المائدة : ٤٥ .

قال : ترك الحديث الثابت !

قلت : تركُ الحديث الثابت إلى حديث آخر ثابت مقبول ، وتركه إلى القرآن  
مرفوض ؟ !

قال : كيف ؟ قلت : صح في السنة أن الفخذ عورة .. وصح كذلك أنها ليست  
عورة ، فهل الأخذ بأحد الأثرين تارك للسنة لأنه أهمل الآخر ؟ إن ترجيح دليل ليس  
هجر السنة ولا ترك الدين ، ولكن التطاول والجهل هما مظهر الخروج على السنة !  
وفي عصرنا هذا انتشر التعصب المذهبى كما انتشر الغباء في فهم السنة ، ومن ثم  
احتاج الأمر إلى إسهاب في عرض الموضوع كله .

\* \* \*

## الخلاف الفقري وتعدد المذاهب

ال المسلمين متفقون على أن كتاب الله وسنة رسوله هما مصدر التشريع ، وأنهما المرجع الأوثق والأوحد لطالب الحق وناشد الرضوان الأعلى . .

وليس بعد قول الله ورسوله مجال لاقتراح آخر ، أو مسلك مغاير !

فإذا كان الأمر كذلك ، فما هذه المذاهب التي اعتنقها الناس وتوزعت عليها الأمة؟

الواقع أن كلمة مذهب لا تعنى إلا «وجهة نظر فقيه ما في فهم النص السماوى»!

ووجهة النظر هذه لا عصمة لها ولا قداسة. إنها تفكير بشري في فهم الوحي الإلهي، فالتعوييل على الوحي، والكرامة في الانتماء إليه وحده..

ونتساءل: هل كل فكر في فهم الوحي يقبل من صاحبه؟ والإجابة: إن التفاوت بين الناس في الإدراك والاستنباط حقيقة معروفة ، والتشريع أمر خطير ، فلا بد من صلاحية ذهنية وخلقية ترشح لهذا المستوى .

نعم هناك حقائق شرعية يستوى الخاصة وال العامة في دركها ، كأصول العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات .

ومبادئ هذه المعرفة قد تكفى وتغنى في ميادين كثيرة . . لكن الحياة أعقد من أن تسيرها المبادئ القريبة . وفي أيام السلام والقتال قد تجد شئونا تحتاج إلى العقول الكبيرة والتوجيهات العميقية ، وهنا لابد من انتظار رأى الخاصة والإفادة من خبرتهم .

وفي هذا يقول الله تعالى ناعيا على بعض القاصرين : ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾<sup>(1)</sup> .

ويقول جل شأنه منها بمكانة الإخصائين وضرورة الرجوع إليهم : ﴿فاسألو أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾<sup>(2)</sup> .

(1) النساء ٨٣ .

(2) النحل ٤٣ .

وأهل الذكر، أو أهل الاستنباط ليسوا طبقة من الكهنة أو نفرا من أصحاب السلطة، بل هم رجال من صميم الناس توافرت لهم الإمكانيات العلمية التي تجعلهم موضع الثقة.

والمنابع التي تفتدي بهؤلاء دافقة على امتداد الزمان والمكان، فلا تحكير ولا استغلال..

قد تقول: هل يفكر هؤلاء لنا؟ ونسارع فنقول: بل نفكر معهم.  
وإذا كان لهم سبقهم أو امتيازهم، فإن الله وهب لنا ما نقدر به على التمييز والموازنة.

ومن راقه أن يتبع وجهة نظر لأحد هؤلاء العباقرة، أو أن يمشي وراءه باستمرار فله ذلك، ولا يكلف الله نفسها إلا ما آتاهها..

وهنا يجيء السؤال الأهم: إذا كان مرجعنا نحن المسلمين هو الكتاب والسنة، فلماذا انشعبت هذه المذاهب، أو وجهات النظر - كما تعبّر أنت - وفرضت نفسها على الأمس واليوم؟

ونقول: إن اختلاف العقول أمرٌ طبيعيٌ، ومن العسير جمع الناس على مذهب واحد في الفكر والاستنتاج. وتتصوّر أن الأمة الإسلامية يمكن جمعها أو كان يمكن جمعها على وجهة نظر واحدة في فهم النصوص الواردة، شيء مستحيل أو قريب من الاستحالة..

### مقررات قبل بيان أسباب الخلاف المذهبى:

و قبل أن نذكر الأسباب العادية لوجود المذاهب الفقهية، نحب أن نقرر أمورا ذات بال في مجال الثقافة الإسلامية:

١ - إن المتفق عليه كثير جداً، وإن التشبيث به وحده كاف في النجاة. فالإيمان بالله ولقائه والسمع والطاعة لما جاء عنه، وأداء الأركان المجمع عليها في ميدان العبادات وترك المعاصي المجمع عليها في ميدان المحظورات، وبناء النفوس على مكارم الأخلاق وأشرف التقاليد... إن هذا كله يقيم أمة لها مكانتها في الدنيا والآخرة.

ولكن جماهير من الدهماء، والأذكياء شغلتها للأسف الخلافات العارضة، ولم تحسن استثمار ما انعقد الإجماع عليه، وكادت تُضيّع الإسلام ذاته بهذا العوج الفكري.

٢ - المذاهب الإسلامية الكبرى اختلفت في الفروع، لا في الأصل، وكان من الممكن أن يتعاون الأتباع فيما اتفقوا فيه، وأن يعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا عليه، وهذا ما آثره أولوا الألباب، ولكن المرضى بالشقاق عكروا الصفو ومزقوا الشمل.

ولنضرب مثلاً لما نقول: إن الإيمان بالله ينمو بالنظر في الكون، والتأمل في التاريخ، وهذا الإيمان أصل جامع لا ريب فيه، فلماذا لا نتعاون على تقويته، وتنميته، والإفادة منه في المعاش والمعاد، بتكثير الوسائل التي ترسّخه في القلب؟ وتضخم آثاره في الفرد والمجتمع؟

ولماذا لا نتجاوز في ميدان العبادة قضية: هل على المؤموم قراءة في الصلاة أم تغنى عنه قراءة إمامه؟ فيرى من شاء جواز القراءة، أو وجوبها، أو امتناعها، وترك له وجهة نظره فلا نضيع الوقت في مجادلتها، ونوفر قوانا النفسية والفكرية في البناء على الأركان المهددة وهي كما أسلفنا كثيرة؟

٣ - عند التأمل في التركة الثقيلة من الخلافات التي ورثناها نجد أن بعضها أملأه الترف العقلي، وأن بعضاً آخر لفظي لا محصل له، وأن منها ما أشعل ناره الاستبداد السياسي، واستيقاه عمداً إلى يومنا هذا... وأن منها ما يصح أن يكون مسرحاً لنفر من الخاصة ويدعُ شغل الجماهير به جُرماً، وأن منها ما جمَدَه المقلدون المذهبيون لقصور شائن في معرفتهم!

### أسباب الخلاف الفقهي:

ومع ذلك فإن الخلاف الفقهي في الفروع كان، ويكون، وسيبقى، إلى آخر الدهر، لأسباب طبيعية مقبولة.

ويجب ألا نتطيّر منه، وألا نحاول قتله أو تجاهله، ونحن نذكر أطرافاً من أسباب الخلاف:

١ - الطبيعة اللغوية.. هناك كلمات تفيد الشيء وضده. فإذا قال تعالى: «ومطلقاتٌ يتربصن بأنفسهن ثلاثةٌ قروءٌ»<sup>(١)</sup>، فإن الفقهاء قد يختلفون في تحديد معنى «قرء» فهو الحيض أم الطهر؟ ولا حرج عليهم إذا اختلفوا، فرأى بعضهم أن المطلقة تعتد بثلاث حيضات، ورأى آخرون أنها تعتد بثلاثة أطهار!

ومن ذلك اختلاف الفقهاء في تفسير كلمة «أو لامست النساء»<sup>(٢)</sup> - عند إحصاء

(١) البقرة: ٢٢٨.

(٢) النساء: ٤٣.

دواعى التطهير - هل اللمس المراد أى لمس؟ أو هو لمس خاص؟ ونشأ عن ذلك القول بأن لمس المرأة لا ينقض الوضوء لأن الآية تعنى الاتصال الجنسي، والقول الآخر أن اللمس ينقض الوضوء لأن المراد باللفظ العموم.

ومن ذلك الخلاف بين الجمهرة وبين الظاهرية في كفاررة الظهار.. فإن الظاهرية يرون وجوب الكفاررة عند تكرار الظهار، وغيرهم يرها عند نقض الظهار الأول.

وسبب الخلاف هو في تفسير حرف الجر في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَبْقَةٍ﴾. (١) هل المقصود يعودون فيما قالوا بالإبطال، أو يعودون إلى ما قالوا بالتكرار.. لاسيما أن الآية اللاحقة تذكر «اللام» بمعنى إلى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النُّجُوْجِ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾. (٢).

وقد يختلفون في معنى الأمر الوارد في النص: هل هو للوجوب أو للندب؟ كالأمر في قوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارَقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذُوِّي عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةُ لِلَّهِ﴾. (٣).

فالأمر بالإشهاد للوجوب عند البعض، واحتاج بما احتف به من تشديد، وذهب غيرهم إلى استحباب الإشهاد فقط.

ولسائل أن يقول: إن السنة المطهرة توضح المراد في هذه القضايا، فلا مكان للاختلاف.

ومن المجمع عليه - كما أسلفنا - أن اتباع الرسول دين، وأن رفض كلامه مع الاستيقان من أنه قاله ﷺ يُعد انسلاخاً عن الإسلام..

بيد أن السنّة المروية منها المتواتر الذي لا يغيب عن مسلم، ومنها الأحاديث التي يستحضرها بعض وتغيب عن آخر وقد يعرفها ولكنه يرجح عليها ما هو في نظره أقوى منها وأحق بالقبول..

فهناك من يعطى المرأة حق مباشرة عقد الزواج إيشاراً لظاهر القرآن الكريم الذي يقول: ﴿إِنَّمَا يُحِلُّ لِلْمُسْلِمَاتِ أَنْ يَنكِحْنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. (٤) ويقول: ﴿حَتَّى تَنكِحْ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾. (٥).

(١) المجادلة: ٣.

(٢) المجادلة: ٨.

(٣) الطلاق: ٢.

(٤) البقرة: ٢٣٤.

(٥) البقرة: ٢٣٠.

وإسناد العقد إليها حقيقة لا يوهنها ما جاء من أخبار مخالفة.

ويرى كثيرون بطلان مباشرة المرأة لعقد الزواج للحديث الوارد «أيما امرأة أنكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل ، فنكاحها باطل ، فنكاحها باطل»<sup>(١)</sup>.

وهناك من يرى الجلد وحده هو حد البكر إذا زنى ، مكتفيًا بالنص القرآني «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة»<sup>(٢)</sup> ويرى آخرون ضم النفي أو السجن سنة إلى ذلك أخذًا بحديث وارد في الموضوع.

وهناك من يرى أن أحكام صلاة الخوف ، وتوحيد الإمامة في شخصه صلوات الله عليه إنما ذلك خاص به لقوله تعالى : «وإذا كنتَ فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك»<sup>(٣)</sup> إلخ .

ويرى آخرون وحدة القيادة والإمامية في جبهة القتال على اختلاف الزمان والمكان محتجين بأثار مروية . .

وهناك من يقتل المسلم قصاصاً ممَّن قتلهم من المسلمين أو الذميين لعموم قوله تعالى «أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ»<sup>(٤)</sup> ، وقوله بعد «وَأَنِّ احْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ»<sup>(٥)</sup> .

ويرى آخرون أن المسلمين لا يقتل في الكافر مستشهادين بما ورد في ذلك عن الرسول صلوات الله عليه . .

وأعرف في عصرنا بعض العلماء الذين يرون أن آية النور في حد الزنا نَسْخَتْ حد الرجم الذي كان مقرراً في السنوات الأولى بعد الهجرة ، ولم أر من قال ذلك إلا نفراً من المعتزلة والخوارج .

وهم يستشهدون بأية النساء في نكاح الإمام وجوائز ذلك للأحرار من الرجال : «بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محسنات غير مسافحات ولا متخذات أخذان إذا أحسن - {أى تزوجن} - فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحسنات من العذاب»<sup>(٦)</sup> . - يعني الحد - والرجم لا ينضاف ، فلابد أن الحد هو الجلد ، وجمهور المسلمين ضد هذا الرأي . .

(١) الترمذى : كتاب النكاح . باب ما جاء لا نكاح إلا بولى .

(٢) النور : ٢ .

(٣) النساء : ١٠٢ .

(٤) المائدة : ٤٥ .

(٥) المائدة : ٤٩ .

(٦) النساء : ٢٥ .

وقد ألف أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ رسالَةً فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ يَسْتَغْنُونَ بِظَاهِرِ الْقُرْآنِ عَنِ السُّنْنِ الْمُفْسَرَةِ لَهُ، وَهَذَا يَتَأْدِي بِنَا إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ سَبِّبِ مَهْمَمِهِ مِنْ أَسْبَابِ الْخَلَافِ الْفَقِيْهِيِّ .

٢ - أَحَادِيثُ الْأَحَادِيدُ وَدُورُهَا فِي التَّشْرِيعِ: كَتَبَ الْإِمَامُ ابْنُ تِيمِيَّةَ رسالَةً جَلِيلَةً فِي أَسْبَابِ الْخَلَافِ بَيْنَ أَعْلَامِ الْأَئمَّةِ كَانَ فِيهَا قَمَّةٌ مِنْ قَمَّةِ الْعِلْمِ وَالنِّصْفِ .

صُورٌ وَجَهَاتُ النَّظَرِ الْمُتَبَايِّنَةُ بِأَمَانَةٍ وَإِحْاطَةٍ دُونَ أَنْ يَكُونَ لِرَأْيِهِ الْخَاصِّ أَثْرٌ فِي تَشْوِيهِ رَأْيِ مَعَارِضِهِ . نَعَمْ، أَجْمَلُ أَسْبَابِ الْخَلَافِ، وَحَدَّدَ نَتَائِجَهُ، فِي حِيَادِ نَزِيْهِ، وَلَمْ شَاءْ أَنْ يَقْرَأَ رِسَالَتَهُ «رَفْعُ الْمَلَامِ عَنِ الْأَئمَّةِ الْأَعْلَامِ» لِيُسْتَفِيدَ مِنْهَا فَوَائِدُ جَلِيلَةٍ . . .

وَقَدْ ذُكِرَ عَشْرَةُ أَسْبَابٍ لِلْخَلَافِ الْفَقِيْهِيِّ وَدُورُ أَحَادِيثِ الْأَحَادِيدِ فِي تَعْدِيدِ الْمَذَاهِبِ، وَنَحْنُ نَقْتَطُّ مِنْهَا مَا يُشَرِّحُ الْقَضِيَّةَ، مُتَصَرِّفِينَ فِي الْعِبَارَةِ عَلَى نَحْوِيْنَ يَقْرَبُ الْمَعْنَى إِلَى الْقِرَاءِ الْمُعَاصِرِيْنِ .

أ - رَبِّيَا لَا يَبْلُغُ الْحَدِيثُ الْفَقِيْهِيِّ الْمُجْتَهِدِ، فَإِنَّ الْأَحَادِيثَ كَثِيرَةٌ وَالْإِحْاطَةُ بِهَا مَتَعْذِرَةٌ . وَقَدْ كَانَ أَبُو بَكْرَ لَا يَعْلَمُ سَنَّةَ فِي مِيرَاثِ الْجَدَّةِ حَتَّى أَخْبَرَهُ مِنْ يَرَوِيهَا . وَكَانَ عَمْرُ لَا يَعْلَمُ سَنَّةَ الْأَسْتَاذِيَّانِ حَتَّى اطَّلَعَ عَلَيْهَا مِنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِ، وَكَانَ لَا يَدْرِي حَكْمَ الْمَجُوسِ فِي الْجَزِيرَةِ حَتَّى ذَكَرَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ حَدِيثَ «سَنُوا بِهِمْ سَنَّةً أَهْلَ الْكِتَابِ»<sup>(١)</sup> .

وَمِنْ لَمْ يَبْلُغْهُ حَدِيثٌ مَا رَبِّيَا اعْتَمَدَ عَلَى ظَاهِرِ آيَةٍ أَوْ عَلَى حَدِيثٍ آخَرَ، أَوْ عَلَى قَاعِدَةِ عَامَّةٍ، أَوْ لَجَأَ إِلَى الْقِيَاسِ . . . إِلَى غَيْرِ ذَلِكِ .

وَعِنْدِي أَنَّ الْأَحْنَافَ لَمْ يَجِيزُوا الْجَمْعَ بَيْنَ الْصَّلَاتَيْنِ فِي السَّفَرِ - وَأَحْيَانًا فِي الْخَضْرِ - لِأَنَّ السُّنْنَ فِي ذَلِكَ لَمْ تَبْلُغْهُمْ، وَأَسَانِيدُهَا قَائِمَةٌ .

ب - قَدْ يَبْلُغُ الْحَدِيثُ الْفَقِيْهِيِّ، وَلَكِنَّهُ يَرْفَضُ سَنَدَهُ لِعُلُلٍ قَادِحَةٍ فِيهِ، وَرَبِّيَا بَلَغَ غَيْرَهُ بِسَنَدٍ أَجْوَدٍ فِي أَخْذِهِ . وَالْخَلَافُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي تَقْوِيمِ الرِّجَالِ، وَبِالْتَّالِي قَبْوُلِ الْمُتَوْنِ أَمْرٌ شَائِعٌ .

ج - مِنَ الْفَقَهَاءِ مَنْ يَشْرُطُ فِي قَبْوُلِ خَبْرِ الْوَاحِدِ شُرُوطًا لَا يَوْافِقُهُ غَيْرُهُ عَلَيْهَا، مِثْلُ اشْتِرَاطِ بَعْضِهِمْ عَرْضِ الْحَدِيثِ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسَنَّةِ رَسُولِهِ، أَوْ اشْتِرَاطِهِ أَنْ يَكُونَ الْمَحْدُّثُ فَقِيْهَا، فَإِنْ جُودَةُ الْحَفْظِ لَا تَغْنِي عَنْ حَدَّ الْذَّهَنِ، أَوْ اشْتِرَاطِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ شَائِعٍ الْعُمُومَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ طَرْقِ كَثِيرٍ فَإِنَّ انْفَرَادَ وَاحِدٍ وَحَسْبٍ بِحَدِيثٍ فِي قَضِيَّةِ عَامَّةٍ مَشْهُورَةٍ قَدْ يُثِيرُ التَّهْمَةَ .

(١) مَوْطَأُ مَالِكٍ - الزَّكَاةَ - ٤٢ .

د - اعتقاد ضعف الحديث لفكرة خاصة ، فإن كثيرا من الحجازيين مثلا يرون ألا يحتجوا بحديث رواه عراقيون أو شاميون إن لم يكن لهذا الحديث أصل بالحجاز . ومع أن الحجاز هو البيئة الأولى للسُّنْنَة الأولى فإن هذا الاعتداد بالأسانيد الحجازية وحدها رأى خاص .

ه - أن يكون الحديث قد بلغه وثبت عنده ولكنه نسيه . وذلك كنسيان عمر الحديث التيمم من الجناة حتى ذكره به عمار بن ياسر . . . وكان عمر رضي الله عنه لم يفهم من القرآن إلا أن التيمم يرفع الحديث الأصغر وحده .

و - عدم العلم بدلالة الحديث ، مثل ما ورد «لا طلاق في إغلاق»<sup>(1)</sup> : هل الإغلاق هو الإكراه؟ أم هو استغلاق الذهن وانسداد أبواب الفهم لسبب عارض ، كالغضب الشديد أو سبب مستمر كالجنون أو العته . . ؟ وقد اختلفت الفتاوى باختلاف الأفهام في الكلمة .

و - وقد يكون اللفظ مشتركا أو مجملأ ، أو متربدا بين الحقيقة والمجاز ، فإن بعض الصحابة فهم من قوله تعالى : «وكلوا واشربوا حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر»<sup>(2)</sup> ، أن المراد حبل أبيض وحبل أسود ، حتى عرفهم الرسول بأنه بياض النهار وسود الليل .

وربما كانت دلالة النص خفية لا يلحظها كل ذهن . قال أحد الدعاة لعامل يغالي فيما له من مطالب ، ويفرط فيما عليه من واجبات : أنت من المطفيين الذين تناولتهم الآية : «الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهם أو وزنوهم يُخسِرون»<sup>(3)</sup> ، والتشابه بين المثلكين موجود .

ز - اعتقاد الفقيه أن لا دلالة في الحديث على ما يراد . . والفرق بين هذا وما قبله أن الأول لم يعرف جهة الدلالة ، أما هنا فقد عرف الجهة وردتها لسبب قائم عنده . .

وقد ذكر ابن تيمية مصطلحات فنية من علم أصول الفقه تعنى المتخصصين ، ونرى أن نستبدل بها أمثلة أوضح ، فإن اختلاف العلماء في دلالة الكلام ميدان واسع : خذ مثلاً حديث «إنا الأعمال بالنيات»<sup>(4)</sup> . هل المقصود كمالها أم صحتها؟

---

(1) أبو داود وابن ماجة .

(2) البقرة : ١٨٧ .

(3) المطففين : ٢ . ٣ .

(4) متفق عليه .

و الحديث «لا يدخل الجنة نمام..»<sup>(١)</sup> . هل يمتنع دخوله على التأييد، أم لا يدخلها مع الأفواج الأولى، ويقضى في جهنم رحما من الزمن؟

و الحديث «لا يزني الزانى حين يزنى وهو مؤمن..»<sup>(٢)</sup> . هل يكون كافرا، أم الإيمان موجود مشلول؟

فإذا تجاوزنا هذه القضايا المفردة إلى قضايا أعم وأهم وجدنا الرأى يختلف اختلافاً بعيد المدى.

تحدث ابن تيمية عن القتال الذى يدور بين المسلمين والكفار، فتساءل: ما سببه؟ هل العداون سبب المقاتلة أم مجرد الكفر...!

الأول قول الجمهور كمالك وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة وغيرهم.

والثانى قول الشافعى وربما علل به بعض أصحاب أحمد..

و شرح ابن تيمية فى رسالته الآثار السيئة المترتبة على القولثانى ، والتى ترجم رفضه ، ثم قال مؤيداً الرأى الأول : «وقول الجمهور هو الذى يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار فإن الله سبحانه يقول : ﴿وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُم﴾<sup>(٣)</sup> فقوله الذين يقاتلونكم تعليق للحكم بأنهم يقاتلوننا فدل على أن هذا علة الأمر بالقتال . ثم قال : ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ ، والعداوة مجاوزة الحد ، فدل على أن قتال من لم يقاتلنا عداون . ويدل عليه قوله بعد هذا : «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ»<sup>(٤)</sup> ، فدل على أنه لا يجوز الزيادة . ثم قال : «وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ»<sup>(٥)</sup> . والفتنة أن يفتن المسلم عن دينه كما كان المشركون يفعلون ، فلما كانت لهم سلطة حينئذ يجب قتالهم حتى لا يفتنوا أحدا ، وهذا يتحقق بعجزهم عن القتال... . ولم يقل جل شأنه : وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى يَسْلِمُوا... إلخ .

ثم قال : وادعى طائفة أن هذه الآية منسوبة... . وبعد أن حكى قولهم قال : إن دعوى النسخ تحتاج إلى دليل ، وليس فى القرآن ما يناقض هذه الآية ، بل فيه ما يوافقها ، فأين النسخ؟

(١) أحمد ٥/٣٩٦.

(٢) متفق عليه.

(٣) البقرة: ١٩٠.

(٤) البقرة: ١٩٤.

(٥) البقرة: ١٩٣.

أقول : ونحن نستغرب من بعض المفسرين ولو عهم بذكر النسخ حتى ليكاد يكون ذلك مرضًا عند السيوطي غفر الله له ، فقد حكم بنسخ عدة مئات من الآيات متعلقة بآراء وموريات تافهة .

من ذلك ما حكاه من نسخ قوله تعالى : ﴿لَا إِكراه فِي الدِّين﴾<sup>(١)</sup> ! قال ابن تيمية في تسخيف هذا القول : وجمهور السلف والخلف على أنها ليست مخصوصة ولا منسوبة ، بل يقولون : إِنَّا لَا نَكِرُهُ أَحَدًا عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَإِنَّا نَقَاتِلُ مَنْ يَحْرِبُنَا .

وقد ذكرنا الأسئلة التي ذكرناها في تعرُّف دلالات الكلام ، ووجوه الأحكام ، ليدرك القراء من أين يجيء الفقهاء بآرائهم ، ولماذا يختلفون مع أنهم جميعاً يستقون من الكتاب والسنّة .

ح - وقد تتساوى الدلالات المختلفة في إفادة معانٍ كثيرة ، ويصعب ترجيح وجهة على أخرى . قال ابن تيمية : «مثلاً معارضه العام بخاص ، أو المطلق بمقدار ، أو الأمر المطلق بما ينفي الوجوب أو الحقيقة بما يدل على المجاز ، إلى أنواع المعارضات الأخرى وهو باب واسع فإن تعارض الدلالات وترجح بعضها على بعض بحر ضخم» .

نقول : وينضم إلى هذا أن تختلف المرويات اختلف تنوّع لا اختلف تضاد ، فقد وردت كلمات الأذان ببعض عشرة صيغة ، وترجح لدى كل فقيه سند ، أو سبق إلى علمه ، وظاهر أن رسول الله أقرها كلها . ومثل ذلك كثير .

قال الشيخ عبدالجليل عيسى :

ثبت في الصحيح أن ابن عباس صلى الله عليه وسلم فقرأ بأم القرآن جهراً، وذكر أنه فعل ذلك ليعلم الناس أنها سنة . وذلك أن الناس في صلاة الجنازة على قولين ، منهم من لا يرى فيها قراءة بحال كما قال كثير من السلف وهو مذهب أبي حنيفة ومالك ، ومنهم من يرى القراءة فيها سنة كقول الشافعى وأحمد لحديث ابن عباس هذا وغيره . ثم من هؤلاء من يقول : القراءة فيها واجبة كالصلاحة ، ومنهم من يقول : بل هي سنة مستحبة ليست واجبة . وهذا أعدل الأقوال الثلاثة ، فإن السلف فعلوا هذا وهذا وكان كلا الفعلين مشهوراً بينهم ، كانوا يصلون على الجنازة بقراءة وبغير قراءة ، كما كانوا يصلون تارة بالجهر وبالبسملة وتارة بغير جهر وتارة باستفتاح وتارة بغير استفتاح وتارة برفع اليدين في المواطن الثلاثة وتارة بغير رفع وتارة يسلمون تسليمتين ، وتارة تسليمة

(١) البقرة : ٢٥٦ .

واحدة وتارة يقرءون خلف الإمام بالسر وتارة لا يقرءون ، وتارة يكبرون على الجنازة سبعا وتارة خمسا وتارة أربعا . كان فيهم من يفعل هذا وفيهم من يفعل هذا .

كل هذا ثابت عن الصحابة ، كما ثبت عنهم أن فيهم من يُرْجعُ فِي الأذان وفيهم من لم يرجع فيه ، ومنهم من يوتر الإقامة وفيهم من كان يشفعها ، وكلاهما ثابت عن النبي ﷺ .

فهذه الأمور وإن كان أحدها أرجح من الآخر ، فمن فعل المرجوح فقد فعل جائزا وقد يكون فعل المرجوح أولى للمصلحة كما يكون ترك الراجح أولى أحياناً للمصلحة أهم .

ط - قد يكون الفقيه - مع جودة حفظه واستنتاجه - قد أخطأ في تقرير المقدمات التي انتهت بالنتيجة التي ارتآها ، وذلك مثل من يقول : لا أعلم أحداً أجاز شهادة العبد ! مع أن قبول شهادته محفوظ عن على وأنس وشريح وغيرهم رضي الله عنهم . .

ويقول آخر : أجمعوا على أن المعتق بعضه لا يرث ، وتوريثه محفوظ عن على وابن مسعود ، وفيه حديث حسن عن النبي ﷺ .

ويقول آخر : لا أعلم أحداً أوجب الصلاة على النبي ﷺ - في أثناء الصلاة - وإيجابها محفوظ عن أبي جعفر الباقر . .

ى - وأخيراً من الفقهاء من يرد الحديث الصحيح إذا خالف القياس الجليّ ، ومنهم من يرده إذا كان عمل أهل المدينة المنورة على خلافه ، فإن عملهم أدلّ على السنة من خبر الواحد - كما ذكرنا عن مالك - .

وقد رأى ابن تيمية أن ذلك خطأ ، وأن الحديث أولى بالتقديم من القياس ومن عمل أهل المدينة .

قال ابن تيمية : ومن ذلك دفع الخبر الذي فيه تخصيص لعموم الكتاب ، أو تقييد لمطلقه ، أو تضمن زيادة عليه ، اعتقاداً منه أن التخصيص ، والتقييد والزيادة نسخ - وهذا رأى أبي حنيفة - .

والسنة لا تنسخ القرآن ، فيبقى الحكم كما تقرر فيه وبصرف النظر عن هذه الأحاديث . . وللأحناف في ذلك كلام طويل يرجع إليه في كتبهم من شاء . .

## أُخْبَارُ الْأَحَادِ وَرِزْنَاهُ الْعَالَمِي

كنا في دراستنا الأزهرية لا نعرف إلا قولاً واحداً هو أن أحاديث الآحاد لا تفيق القطع وأن العمل بها هو في فروع الشريعة وحدها.

وقد صور الأستاذ المحدث المحقق أحمد شاكر هذا الرأي في تعليقه على المحلى لابن حزم عندما قال: «أما الظن - الذي هو بمعنى الطرف الراجح - فهو متعبد به قطعاً، بل أكثر الأحكام الشرعية دائرة عليه».

وهو البعض الذي ليس فيه إثم أي البعض المفهوم من قوله تعالى «إن بعض الظن إثم»<sup>(١)</sup>.

إن خبر الآحاد معمول به في الأحكام، ولا يفيق بنفسه إلا الظن.

والعمل به في الفروع مذهب الأئمة الأربعة جميعاً.

وابن حزم سبق أن قال: إن الجاهم يسأل العالم عن الحكم فيما يعرض له فإذا أفتاه، وقال له هذا حكم الله ورسوله، عمل به أبداً.

قال الشيخ أحمد شاكر: ومعلوم أن هذه رواية آحادية من العالم بالمعنى ولا تفيق إلا الظن وقد أوجب قبولها.

وكذلك أمر الله بإشهاد ذوى عدل، فإن شهدا وجب على الحاكم الحكم بما شهدا به، وشهادتهما لا تفيق إلا الظن، بل كونهما ذوى عدل لا يكون إلا بالظن..

وقد قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلى، وإنما أنا بشر ولعل بعضكم أن يكون أحن بحجه من بعض فأقضى له، فمن قضيت له من مسلم فإنما أقطع له قطعة من النار»<sup>(٢)</sup>.

وهذا صريح في أن رسول الله ﷺ حكم بالظن الحاصل عن البينة، إذ لو كان بالعلم لما كان المحكوم به قطعة من النار، ألا ترى أنه يُجُوز أن تكون البينة التي حكم بها باطلة في نفس الأمر؟

(١) الحجرات: ١٢.

(٢) متفق عليه.

ثم قال الشيخ أحمد شاكر - مستغرباً من ابن حزم دعوى الاعتماد في الفروع على اليقين وحده : «إنه في هذا الكتاب - يعني المحتوى - يستدل بأخبار الأحاديث، وبعموم الفاظها وألفاظ القرآن، والكل لا يخرج عن الأدلة الظنية فاعرف قدر هذه الفائدة السنوية».

نعم : قرأنا رأياً لابن الصلاح أن أحاديث الأحاديث تفيد اليقين ، ولكن هذا الرأى لم يكن له رواج ولا وجاهة .

فلما اتصلنا بعلماء آخرين من الخنابلة وغيرهم وجدنا أن الرأى المرجوح عندنا هو الفكر السائد عندهم ما يأبهون لغيره !!

حديث الأحاديث لديهم حجة في الأصول والفروع والعقائد والشائع على سواء .

إن بين المذهبين خندقاً بعيد القاع . . . !

وقد كان لذلك أثر رديء في مسالك الأفراد والجماعات خصوصاً بين العوام وأشباههم . وأجلت الفكرة هنا وهنا ، فرأيت أن مدرسة الأزهر تحضن المذاهب الأربع بقوة ، وتغض من قيمة الحديث إذا خالف أحكامها مع أن الحديث قد يكون جديراً بالترجيح لثبوته وضعف الدليل المقابل له ، ورأيت أهل الحديث يشبهون أهل الظاهر ، في ضعف الرأى وقلة الفقه وسوء الموازنة بين شتى الأدلة .

## خبر الأحاديث لا يفيد القطع:

ونعود إلى أخبار الأحاديث لتساءل: هل تفيد القطع حقيقة؟ وهل هي في قوة الحديث المواتر؟

والإجابة التي نرتضيها: لا . . . المواتر يفيد ، أما حديث الأحاديث فيعطي الظن العلمي أو العلم الظني ، ومجده الرحب في فروع الشريعة لا في أصولها .

ويدفعنا إلى ذلك أمور:

١ - الفرد قد ينسى أو يخطئ ، فهو بشر ، وقد تفاوتت كلمات الرواية في نقل حادثة واحدة تبعاً لذلك .

وأوضح مثالاً لذلك ما جاء في البخاري في «باب سؤال جبريل النبي عليه السلام عن الإيمان والإسلام والإحسان». ففي بعض الروايات قال جبريل للنبي عليه السلام : وما الإسلام؟ قال عليه السلام : «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتوتّى

الزكاة، وتصوم رمضان». قال: ما الإحسان..؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه.. إلخ».

قال الحافظ بن حجر: فإن قيل إنه لم يذكر الحج مع أنه من أهم أركان الإسلام، أجيب بأنه ذكره لكن بعض الرواية، إما ذهل عنه أو نسيه، والدليل على ذلك الروايات الأخرى لهذا الحديث، ففي رواية أنس بن زيادة «وتحجج البيت إن استطعت إليه سبيلاً».

وفي رواية عطاء الخرسانى ذكر الحج و لم يذكر الصوم ، و ابن عباس لم يذكر فى روايته لهذا الحديث غير الشهادتين ، و ذكر التمييمى فى رواية لهذا الحديث جميع ما ذكر متفرقًا فى الروايات الأخرى و زاد بعد قوله و الحج «وأن تعتمر و تغسل من الجنابة ، و تتم الوضوء» .

قال ابن حجر : فتبين مما ذكرناه أن بعض الرواية ضبط مالم يضبط غيره .

ووقوع الخطأ أو النسيان في مرويات الأحاديث لا ريب فيه، ولذلك فمن المجازفات  
الزعم بأن خبر الواحد يفيد اليقين. جاء في البخاري أن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة  
قال: توفيت ابنة لعثمان رضي الله عنه بمكة، وجئنا لنشهادها، وحضرها ابن عمر وابن  
عباس رضي الله عنهم، وإنى جالس بينهما، أو قال جلست إلى أحدهما ثم جاء الآخر  
فجلس إلى جنبي، فقال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهم - لعمرو بن عثمان: ألا  
تنهى عن البكاء؟ فإن رسول الله عليه السلام قال: «إن الميت ليعذب بكاء أهله عليه». فقال  
ابن عباس رضي الله عنهم: قد كان عمر رضي الله عنه يقول بعض ذلك!!

ثم حدث قال: صدرت مع عمر رضي الله عنه من مكة، حتى إذا كنا بالبيداء إذا هو  
بركب تحت ظل سمرة، فقال: اذهب فانظر من هؤلاء الركب؟

قال فنظرت، فإذا صهيب، فأخبرته، فقال: ادعه لى، فرجعت إلى صهيب، فقلت: ارتحل، فالحق بأمير المؤمنين . . .

فلمَّا أُصيَّتَ عَمْرُ دَخَلَ صَهْيَبَ يَكْيَ وَيَقُولُ: وَأَخَاهُ! وَاصْحَابَاهُ!

فقال عمر رضي الله عنه: يا صهيب أتبكي على وقد قال رسول الله عليه السلام إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه!

قال ابن عباس رضي الله عنهمما: فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فقلت: رحم الله عمر، والله ما حدث رسول الله ﷺ إن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه... ولكن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه»!!

وقالت: حسبكم القرآن، «ولا تزر وازرة وزر أخرى».

قال ابن عباس رضى الله عنهمَا عند ذلك : والله هو أضحك وأبكي . . . ! . قال ابن أبي مليكة : والله ما قال ابن عمر رضى الله عنهمَا شيئاً<sup>(١)</sup> !!

وظاهر من هذا السياق أن ابن عمر عرف خطأه فسكت ، وسمع تعقيب ابن عباس وهو يؤيد أم المؤمنين ، في خبرها وفقيها فلم يجد ما يقول !!

وهناك قصة أخرى من مرويات البخاري تؤكد وقوع الخطأ والنسيان في مرويات الأحاديث .

عن شقيق بن سلمة قال : كنت جالساً عند عبدالله - ابن مسعود - وأبى موسى - الأشعري - فقال له أبو موسى : أرأيت يا أبا عبدالله الرحمن إذا أجب فلم يجد ماء كيف يصنع ؟ فقال عبدالله : لا يصلى حتى يجد الماء !!

فقال أبو موسى : فكيف تصنع بقول عمار حين قال له النبي ﷺ : كان يكفيك - وفي رواية ألم تسمع قول عمار لعمر بن الخطاب - : بعثني أنا وأنت رسول الله ﷺ في حاجة ، فأجبت ، فلم أجده الماء . . فتمرغت في الصعيد كما تمرغ الدابة ! فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال : إنما كان يكفيك أن تصنع هكذا ، فضرب بكتفه ضربة على الأرض ، ثم نفضها ، ثم مسح بها ظهر كفه بسماله أو ظهر شماليه بكفه ثم مسح بها وجهه .

قال عبدالله : ألم تر عمر لم يقنع بذلك ؟

فقال أبو موسى : فدعنا من قول عمار ! كيف تصنع بهذه الآية - في سورة المائدة «فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً ..»<sup>(٢)</sup> - مما درى عبدالله ما يقول . . .

فقال : إنما لور خصنا لهم في هذا الأوشك إذا برد على أحد هم الماء أن يدعه ويتم العصي !

فقلت لشقيق إنما كره عبدالله لهذا ؟ وفي رواية وإنما كرهتم هذا الذي ؟ قال : نعم<sup>(٣)</sup> .

وهذا السياق يحتاج إلى تأمل طويل ، إن الفقهاء جميعاً يرفضون فتوى ابن مسعود ، ويستغربون أن يستظهر لفتواه برأي عمر ، والقضية بت فيها القرآن الكريم بجواز التيمم لمن فقد الماء حقيقة أو حكماً .

(١) البخاري باب «في الجنائز» .

(٢) المائدة : ٦ .

(٣) البخاري باب التيمم .

ولا معنى لتخوفه من أن البعض سوف يتيمم عند البرد، فقد فعل ذلك عمرو بن العاص وأقره النبي ﷺ، وما نشره القرآن لا يطويه أحد لوهם عارض . .

الحق أن عبد الله أخطأ، وذاك سرُّ قولنا: إن خبر الواحد لا يفيد اليقين، ولا تؤخذ منه العقائد.

وإذا كان قمة السنن أعني الصحابي ينسى فمن دونه أولى.

وهكذا من مرويات البخاري مثلاً آخر .

كم اعتمر النبي ﷺ؟ عن مجاهد قال: دخلت أنا وعروة بن الزبير المسجد فإذا عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - جالس إلى حجرة عائشة - رضي الله عنها - . وإذا أناس يصلون في المسجد صلاة الضحى !

قال: فسألناه عن صلاتهم؟ فقال: بدعة!!

ثم قال له: كم اعتمر رسول الله ﷺ؟ قال: أربع، إحداها في رجب! فكرهنا أن نرد عليه . .

قال: وسمعنا استنان عائشة أم المؤمنين في الحجرة، فقال عروة: يا أماه يا أم المؤمنين ألا تسمعين ما يقول أبو عبد الرحمن؟ قالت: ما يقول؟ قال: يقول: إن رسول الله ﷺ اعتمر أربع مرات، إحداها في رجب!

قالت: يرحم الله أبا عبد الرحمن، ما اعتمر عمرة إلا وهو شاهده، وما اعتمر في رجب قط<sup>(1)</sup>.

وظاهر أن عبد الله بن عمر كان واهماً عندما أخبر أن رسول الله ﷺ اعتمر في رجب!

كما أن إنكاره صلاة الضحى، واعتراضه ببدعة أمر يدعوه للدهشة، إذ هي سنة صحيحة من روایات كثيرة!!

ونحن نؤكد أن خبر الواحد قد يحاكي وحديثاً ما كان يفيد إلا الظن .

والإمام أبو حنيفة له وجهة نظره المعقولة عندما استبعد خبر الواحد في إيجاب أو تحريم حرم، واعتبر أن ذلك يحتاج إلى القطع، ويمكن الاحتجاج بخبر الواحد في نطاق المندوب والمكروه - كما يعبر الأصوليون - ومع ذلك ففي عصرنا قوم يريدون بخبر الواحد إثبات العقائد!! العقائد التي يكفر منكرها...!

(1) البخاري باب العمرة.

وهذا ضرب من الغلوّ المموج، وقد ينتهي بالصدّ عن سبيل الله! وقد رأيت ناساً يتسمّون أهل الحديث، صلتهم بالقرآن واهية، قال لي أحدهم: إننا نعتقد أن والد الرسول في النار كما روى مسلم!!

قلت: ما دخل الاعتقاد في هذا؟ إن القرآن حكم بنجاة أهل الفترة، ومسلم روى في الرضاع المحرّم حديثاً رفضه الأحناف والمالكية، ومن حقهم وحق غيرهم رفض ما قال عن عبدالله.

وأخبار الأحاديث تناقش في ضوء الكتاب، وسائر السنن، ثم يقرر الحكم بعد ذلك!!

٢ - نحن في شؤون الدنيا نستوثق للحقوق بجعل شهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين، فكيف نهبط بنصاب الثقة في شؤون الدين؟ وإذا كان خبر العدل لا يثبت عشرة دنانير فكيف يثبت عقيدة قد تطيع عند جحدها بالرقب؟

٣ - رأينا من أسباب الخلاف الفقهي أن خبر الواحد ربما لم يصل إلى الأكابر، أو وصل إليهم ثم نسوه! فهل هذه القناة المحدودة تصلح مجرّى لنقل العقائد الرئيسة التي يهلك من جهلها؟

إن المفروض ابتداء أن تأخذ هذه العقائد طريقة مساعدة شاملة، لا يبقى معها جهل ولا غفلة.

إن أخبار الأحاديث تشبه في عصرنا حديثاً صحفياً مع رئيس الدولة، أما مصادر العقيدة والحقوق العامة فهي تشبه الدستور الذي ولد في الساحات العريضة، وتيسرت مواده لكل مطلع..

٤ - المتواتر مصون كلاً وجزءاً، أما أخبار الأحاديث فقد تضمنت ما رفضه الأئمة والراسخون في العلم، ككون المعدودتين ليستا من القرآن، أو أن سورة الأحزاب كانت في طول سورة البقرة ثم نسخت.. أو أن إرضاع الكبار يحرم كرضاع الصغار، أو أن لحديث الغرانيق أصلاً ما - ولو أصلاً ضعيفاً - أو أن الصائم يتناول البرد ولا يفطر.

إن هذه المرويات حبر على ورق عند رجال الإسلام مع ورودها في كتب السنن!!

والحق أن حديث الأحاديث دليل محترم ما لم يكن هناك دليل أقوى منه وأولى بالقبول.

قد يرى المالكية أن عمل أهل المدينة أدل على السنة الشريفة منه، وقد يرى الحنفية أن القياس أدل على الدين منه، أو أن ظاهر القرآن أولى بالقبول منه..

ما ناقش الآن هذه الفروض والأراء، وإنما نثبت وحسب الوزن العلمي المجرد لخبر الواحد كما يبدو لنا.

وأهل الحديث يرفضون هذا الكلام، ويجعلون حديث الأحاديث حجة لا تقاوم. وقد يرى بعضهم أن السنة تنسخ القرآن، وهو رأي شاذ مرفوض.

ويقوم تفكيرهم على حجة قريبة سهلة: إذا ثبت أن الرسول قال فلا اجتهاد لأحد ولا افتیات على المعصوم. بل قالوا: إن الحديث الضعيف فيه رائحة وحى، أما القياس فهو فكر بشر، وما يقدم فكر على وحى..! وقالوا: إن الرسول ﷺ، كان يرسل الأمռاء - وهم آحاد - ويبعث برسله إلى الملوك - وهم آحاد - فينقلون عنه العقائد والشروع جميعا، فكيف تقع الريبة في خبر الواحد الثقة بعد هذا؟!

وفي هذا الكلام جانب من الصواب لا يعارى فيه مسلم. فإذا ثبت أن النبي قال، فلا رأى إلا السمع والطاعة! ولكن أنى لنا الثبوت؟ إن الريبة في قيمة السند، هل يهب لنا يقينا أم لا؟

وذلك موضوع النزاع.

وترجح الحديث الضعيف على القياس مردود، فإن هذا القياس يقوم على تعددية حكم شرعى ثابت في قضية ما إلى مشابهة أخرى كتحريم الإجارة وقت النداء يوم الجمعة قياسا على تحريم البيع وقت النداء، فأين هوى البشر هنا؟

وإذا كان البعض يشتم من الحديث الضعيف رائحة الوحى، فإن آخرين يشمون منه رواحة الوضع فلا لوم عليهم.

أما أن النبي ﷺ كان يرسل الأمռاء والمعلمين وهم آحاد، ويكونون حجة على غيرهم فهذا حق والحكومات لا تزال تبعث السفراء آحادا، ونحن لا نزال نعيّن الأساتذة يدرسون للطلاب آحادا.

وخبر الواحد هنا له احترامه، لأن الملابسات التي تحيط به توفر ضمانات شتى، فإن سفير الدولة إن أخطأ في البلاغ لحقه ألف مصحح، وكذلك المدرس بين تلامذته.

وقد قلنا: إن خبر الواحد مقبول في فروع الشريعة ومقبول في نقل ما تواتر أصله.

وعلى أية حال فإن العقائد في ديننا، لم تتلقها الأمة بأسانيد مفردة أو مزدوجة، بل تلقتها بالتواتر المؤسس للثقة المطلقة.

وما توجد في مصادرنا الثقافية عقيدة عبرت إلى الأخلاف عن طريق آحاد، ومن زعم ذلك فهو مخالق.

\* \* \*

## مدرسة الرأى، ومدرسة الآخر، ومدارس أخرى:

فى أول عهتنا بدراسة التشريع استمعنا إلى هذه العبارة، مدرسة الرأى ومدرسة الآخر!

قلت فى نفسى : ما هذه القسمة؟ هل هناك فقهاء يطرحون النص ويتبعون رأيهم؟ وهل هناك فقهاء يلتزمون النص ، دون إعمال فكر؟

الواقع أن هذا العنوان يحتاج إلى تفسير ، وسأضرب مثلاً يتضح منه المعنى المراد .

فى زكاة الزروع والشمار جاءت هذه الأحاديث ، وهى صحيحة : روى البيهقى عن أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل حين بعثهما النبي ﷺ إلى اليمن يعلمان الناس أمر دينهم فقال : « لا تأخذوا الصدقة إلا من هذه الأربعة الشعير والحنطة والزبيب والتمر ». .

وأخرج الطبرانى عن عمر قال : « إنما سن رسول الله ﷺ الزكاة فى هذه الأربعة: الشعير والحنطة والزبيب والتمر ». .

ونقل عن الشعبي أنه قال : كتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن : إنما الصدقة فى الحنطة والشعير والتمر والزبيب . .

على هذه الآثار اعتمد الأئمة فى فتواهم بتحديد الأصناف التى تتحقق فيها الزكاة، ورأوا أنه لا زكاة فى غيرها من الزروع والشمار . .

ورأى أبو حنيفة وغيره أن هذه الأصناف كانت تمثل المحصولات الرئيسة فى جزيرة العرب ، وأن ما عدتها من ثمر لم يكن مالاً له خطر . . فإذا كانت الأرض تنبت من الحبوب والفواكه ثروات زراعية لها قيمة كبيرة فإن الزكاة تجب فيها بيقين ، مثلما تجب فى الشعير والزبيب . واستصبح أبو حنيفة فقه الآية الكريمة : « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات » إلى قوله تعالى . . « كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده »<sup>(١)</sup> .

ومن ثم أوجب الزكاة فى التفاح والموز وسائر الفواكه، والفول والعدس والأرز وسائر الحبوب، والبرتقال واليوسفي وسائر الموالح، والبن والشاي .. إلخ.

وهذا الكلام وجيه من ناحيتين:

الأولى: أنه يحفظ حق الفقراء ، فى كل قطر .

(١) الأئم : ١٤١ .

والأخرى: أنه يمثل عالمية الإسلام، فهو دين يشمل القارات الخمس ويتناول ما بث الله من خيرات، وليس دينا بدؤيا يقف عند حدود الجزيرة العربية.

ففقهاء الرأى نظروا إلى الملابسات المحيطة بالحديث، وفسروه في ضوئها، وفي ضوء الآية القرآنية المحكمة، وهم جعلوا الآية حاكمة على الحديث، ومحددة لمعناه.

وذلك يلقي ضوءاً على الفروق بين المدرستين، فليست مدرسة الرأى ملغية لأثر وارد كما رأيت، وإنما هي تجمع بين نصوص كثيرة، وترجع ما ترى أنه الأصوب في نظرها ..

أما مدرسة الأثر فتكان تكون إمضاء لظاهر النص مع بعد عن الحرفيية التي أخذت على ابن حزم وأزرت بفكرة في قضايا كثيرة، وإن كان هذا البعد يتلاشى في بعض القضايا.

في تاريخ التشريع وجدنا مدرسة الرأى ومدرسة النص . والذى أراه أن الأمر يتبع الطبيعة العقلية للناس ، فهناك نصيون في كل مجال ، وهناك أهل الفحوى والتأمل العميق .

وقد تكشفت هذه الطباع في العهد النبوى نفسه ، ولا تزال تفجئنا في عصرنا هذا أمور في العبادات والمعاملات ينقسم النظار فيها إلى أهل نص وأهل معنى ..

في موسم الحج كان جمهور العلماء يفتى بأنه لا يجوز رمي الجمرات إلا بعد زوال الشمس .

وهم يحتجون لذلك بفعل رسول الله مع أن مجرد الفعل لا يعطى حكم الوجوب ! قد يكون دليلاً للنحو أو الإباحة .

ومع ذلك فإن المتشددين مضوا في طريقهم ، وكثرا القتلى في ميدان الرمي لشدة الزحام وهم لا يبالون !

ورأيت «مالك بن نبي» رحمة الله يريد الرمي ، ويوجّل من الزحام القاتل ، فوقف بعيداً عن الرمي بمسافة شاسعة وأخذ يرمي ! قيل له ما تفعل؟ قال أنفذ قول رسول الله عليه السلام «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم»<sup>(1)</sup> .

لا معنى للموت تحت الأقدام هنا ، هذا ما أقدر عليه !

ويقول الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود - وهو من الفقهاء المعدودين في عصرنا -

(1) مسلم .

«لا أدرى ما الذى جعلهم يتشددون فى عدم رمى الجمار قبل الزوال فى أيام التشريق، وفى حديث «إذا رميت - أى جمرة العقبة - وحلّقتم فقد حل لكم الطيب وكل شيء إلا النساء». وقد ركب رسول الله راحلته فجعل الناس يسألونه، فما سُئل عن شيء قدم ولا آخر إلا قال: افعل ولا حرج. فرفع الحرج عن الناس فى جميع ما قدموه أو أخروه من بقية مناسك الحج حتى سأله رجل فقال: رميت بعد ما أمسيت فقال: افعل ولا حرج»<sup>(١)</sup>.

والحديث صحيح وهو نص صريح فى جواز تقديم رمى الجمار قبل الزوال أو تأخيرها عنه فيجوز رميها فى أية ساعة شاء من ليل أو نهار.

وفى حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ ما سُئل عن شيء يوم النحر قدم أو آخر إلا قال: افعل ولا حرج ..

قال الشيخ عبدالجليل عيسى: عدد بعضهم الأشياء التى سُئل عنها رسول الله حتى أوصلها إلى ٢٤ صورة. ثم قال: أليس هذا دليلاً على أن كل فعل طلب من المكلف ولم يرد عن النبي ﷺ شيء يحدد كيفيته أو ترتيب بعضه على بعض، يكون الأمر فيه واسعاً؟

يفعل كل مكلف ما يغلب على ظنه أنه هو المطلوب، ولا حرج عليه بعد ذلك لأنه لو كان هناك تكليف لوجب على النبي ﷺ أن يبيّنه للناس ..

وأرى أن هناك هنات قد يقع فيها أتباع المدرستين.

فأهل الرأى قد يتتجاوزون أحاديث صحاحا لا معنى لتركها ولا سند من فكر أو مصلحة لذلك. فالأنهاف مثلاً يرون الخمر محرمة لذاتها، ما يسكر منها وما لم يسكر، وهى لديهم النبي من عصير العنب إذا غلا واشتد وقذف بالزبد، أما أنواع العصير الأخرى فإن المحرم منها هو القدر المسكر !! أما القدر الذى لا يسكر فليس بحرام.. ربما كان مكروها فقط !!

وهذا كلام يرفضه العقل والنقل، فإن الخمر ما غطى العقل من أى مادة صلبة أو سائلة، وليس بين رب السماء وعصير العنب خصومة خاصة.

إن كل شراب مسكر، أو كل عقار مغيب للعقل فهو حرام قل أو كثر والتحليل العلمي للمسكرات والمخدرات يكشف عن تشابه مطلق لفعلها وأثرها فى الإنسان، فلم التفريق بين الممااثلات؟

(٢) أبو داود والنسائي وابن ماجة.

والأحاديث الواردة في أن الخمر تتخذ من مواد كثيرة، أحاديث قائمة، ومحاولة تأويلاً لا تستساغ.

وهناك من المسوبيين لمدرسة النص من لا توازن له، فهو يجعل المكره حراماً والماه مكره، وقد يرى النافلة فريضة..

وهو يعرف بعض النصوص ويجهل غيرها، وما يعرفه ربما لم يحسن فهمه ولا سوقه في موضعه الواجب.

كانت ملكة إنجلترا تزور جزيرة العرب، ونشرت لها صور وهي تلقى أحسن استقبال..

ورأيت رجلاً عابداً ينظر إلى الأمراء والرؤساء من شتى الدول وهم يصافحونها.. !! وسمعته يقول: أَعُوذ بالله، لَا حُولَّ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، كَيْفَ يصافحون امرأة أجنبية؟! فقلت مداعباً: لعلهم يرون مصافحة الأجنبيات من الصغار التي يكفرها تجنب الكبائر.. !

فقال بحماقة: من الصغار؟! هذه من الكبائر ولكنكم تواغون المنكر.. !  
قلت - وأنا لا أزال أتضاحك - لو كانت هذه المصافحة مع ريبة وكانت لممّا تسعه المغفرة، فكيف والريبة لا موضع لها بتة؟

ثم قلت: لست من يستحبون التقاليد الغربية في مصافحة الأجنبيات لسبب ولغير سبب، لكن إذا صافح الرجل امرأة أجنبية في موقف غلبه فليس هناك ما يعد جريمة!!  
قال: كيف تقول ذلك، والرسول ﷺ يقول فيما رواه الطبراني: «لأن يطعن في رأس أحدكم بمحيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له»؟!

قلت: ما علاقة هذا الحديث بالصافحة؟! إن المس لم يذكره القرآن إلا وهو يريد الاتصال الجنسي، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكْحَتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا»<sup>(١)</sup>.

وقال في كفارة الظهار: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصَامَ شَهْرَيْنِ مُتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَسَّأَ»<sup>(٢)</sup>.

(١) الأحزاب: ٤٩.

(٢) المجادلة: ٤.

وقد يطلق المس على التحكك<sup>(1)</sup> السافل أو المزاحمة الخسيسة التي يفعلها بعض الرعاع. وأيا ما كان الأمر فلا علاقة للحديث بالمصافحة.

ذلك وقد لوحظ أن بعض الطلاب أعلن حربا على الأجراس لحديث «لا تصحب الملائكة رفقة فيها جرس».

ولا ريب أن المقصود جرس يتخذ للعبادة كما تفعل النصارى، فأما جرس الهاتف، أو جرس المنبه أو جرس محطات السكك الحديدية أو جرس البيوت الذي يستخدم في الاستئذان، فلا حرج فيه.

وبعض هؤلاء الطلاب كان ينتزع الأجراس من أبواب الشقق لسوء فهمه في الحديث..

والأفة جاءت من الوقوف القاصر عند ظاهر النص.

\* \* \*

### مدرسة الموازنة والترجيح بين مدرستي الأثر والرأي:

ظل الانفصال بين مدرستي الرأي والأثر أمدًا، وقام بعض الفقهاء بدراسة القواعد الفقهية ومبادئ الخلاف مثلاً بين الشافعية والحنفية، ولكن الفوائل الفكرية بين شتى المذاهب لم تضعف خصوصاً بعد إغلاق باب الاجتهاد وتجميد الفقه المذهبى في الأربع الكبار.

وفي هذه الآونة كانت مراجع السنة قد استغرقت وشاعت، وكانت الحضارة الإسلامية قد شرقت وغربت وانهزمت وانتصرت، وأفادت تجارب خطيرة من العدو والصديق.

ونشأت مدرسة الموازنة والترجيح في القرن السابع على أيدي ابن تيمية وتلامذته، وهي مدرسة استواعبت الأخبار المروية وأدركت وجوه الحكم والمصالح التي تتغيّرها الشريعة، أي أنها أفادت من الرأي والأثر معاً وإن كان انتصارها للأثر أظاهر، ودفاعها عنه أذكى وأقدر.

---

(1) كما يصف الشاعر الماجن بشار بن برد مغامراته الغرامية فيقول (وقد انتهى به نزقه إلى قتله):  
أول مس ما تحت مرطها يدی  
والباب قد حال دونه الستر!

وابن تيمية حنبلى المذاهب ولكن اجتهاده جعله يستقل بآراء انفرد بها ، لم يقل بها الأئمة الأربعة كإبطاله للطلاق البدعى وأثاره .

ورأى الرجل أحب إلى وأصح حجة من غيره وأحفظ لكيان الأسرة فى عصرنا هذا .  
والغريب أن ناسا من أتباع ابن تيمية كرهوا منه هذا المذهب ، واتهمه آخرون بأن الشيعة أثروا فى تفكيره . .

وابن تيمية أقوى شخصية من أن يتأثر بأحد ، وهو على أية حال مجتهد يخطئ ويصيّب ، ويفجر على ما انتهى إليه .

إن الأئمة الأوائل - وخصوصا الأربعة الكبار - كانوا رواداً فى تأسيس الفقه الإسلامى ، والرائد قد يشغله الاكتشاف عن الموازنة والتقدير ، ولعل من يجيء بعده يكون أقدر على التنظيم والمراجعة ، والموازنة والاختيار .  
وذاك ما بدا فى مدرسة ابن تيمية وأتباعه الأقدمين . .

وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر نشأت مدارس أخرى .

هناك مدرسة أشبه أن تكون امتداداً لمدرسة الأثر عرضت الفقه الإسلامى من الكتاب والسنة مباشرة ، وأفادت من الجهد العقلى لرجال المذاهب التقليدية ، وضمت إلى ذلك جهد الفقهاء الظاهرين ، وانتفعت من مدرسة ابن تيمية ، وأحيت أسماء كانت مغمورة فى ميدانى الأثر والرأى جمِيعاً ، والقاسم المشترك بين رجال هذه المدرسة عرض الفقه من أصوله الأولى .

يمثل هذه المدرسة : الصنعاني فى «سبيل السلام» والشوكانى فى «نيل الأوطار» ، والسيد سابق فى «فقه السنة» ، وصديق خان فى مؤلفاته ، والألبانى فى رسائله .

وعندى أن هذا الجهد يقوم على الاختيار الشخصى ، والتنسيق أو التل斐ق بين وجهات النظر المختلفة ، وأصحابه مقدرون فيما صنعوا ، لعلهم أحسن تصويراً للإسلام من مؤلفى «المتون» المذهبية .

وهم أيضاً يخطئون ويصيّبون .

وانتماؤهم للسنة لا يجعل التسليم بقولهم واجباً ، بل إن بعضهم قد يخالف بعضها فى كثير من الأحكام .

\* \* \*

وهناك مدرسة أخرى أقرب إلى مدرسة الرأى، وإن كان عنوانها سلفيا، هي مدرسة الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا، ويتبعهما الشيخ محمود شلتوت ومحمد عبدالله دراز ومحمد البهى ومحمد المدنى وقبلهم الشيخ المحقق محمد الخضرى و منهم الشيخ محمد أبو زهرة.

هذه المدرسة لها ملامح بيته، فهى - وإن قامت على النقل - إلا إنها تروج للعقل وتقىدم دليله وترى العقل أصلًا للنقل ..

وهي تقدم الكتاب على السنة، وتجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الآحاد ..

وهي ترفض مبدأ النسخ وتنكر إنكارا حاسما أن يكون فى القرآن نص انتهى أ منه . وترى المذهبية فكرا إسلاميا قد ينتفع به ولكنه غير ملزم ، ومن ثم فهى تنكر التقليد المذهبى وتحترم علم الأئمة .

وتعمل أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية ، ولا تلقى بالا إلى مقالات الفرق والمذاهب القديمية أو الحديثة .

وقد حاولت هذه المدرسة أن تقود الأزهر، وتفرض وجهتها على المسلمين ، ولكن التيارات العاصفة كانت أقوى منها فوقفتها أو جرفتها .

وبديه أن يكون فى اجتهادات رجالها أخطاء . فتفسير الشيخ محمد عبده للملائكة - كما ذكره تلميذه رشيد رضا - يرفضه الكافة .

وتبرم الشيخ أبو زهرة بحكم الرجم كذلك !! وفي فتاوى الشيخ محمود شلتوت ما يحتاج إلى مراجعة !!

ويبقى - بعد هذا الإلماح إلى المدارس الفقهية فى تاريخنا العلمى - أن نقول: إن الإسلام صائع أولئك الرجال كلهم، وهم لم يصوغوه.

وإن مصادر الإسلام معصومة لأنها من عند الله، ولكن التفكير فيها والاستنباط منها غير معصوم لأنه من عند الناس.

وإن الانتفاع بكل فقيه مخلص ذكى يدعم مسیرتنا العلمية، ولا يضريرها أبدا، ويجب أن تنتفي الحساسية والكراهية للأشخاص.

وإن وجود هنات فى رأى هذا أو سيرة ذاك لا تهدم عبقريته أو تخدش تفوقه إن كان صاحب عبقرية وتفوق ...

## ارجحهاردلفقرى علامه صحّه وهو سرف لاري خنا

من حق الفقهاء ، أن يختلفوا - كما رأينا - لتفاوت أنظارهم في شتى الأدلة ، ويجب أن نقبل نتائج هذا الاختلاف دون تشنج أو تشاؤم ، ولا يجوز أن نرتب عليه شقاقا ولا تحزبا ولا تحاقدا .

إن صاحب الرسالة - عليه الصلوات والتسليمات - أمضى نتائج الاجتهاد وقبلها ، وصح في السنة الشريفة أن من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر ، أى أن كل مجتهد مأجور . . . !

فمن السفة الاستطالة في عرض فقيه ، والنيل منه .

ومن الممكن طرح القضايا على ساط البحث العلمي ، وبذل الجهد في تعرف الخطأ والصواب ، ويغلب أن تتساوى وجهات النظر ، وأن يكون الكل أمام ملحوظ محترم يصعب تجاهله .

ويكفي أن نقول هنا: إن حقائق الأشياء ثابتة في الأمور العلمية ، فهل هي كذلك في الأمور العبادية؟

أعني أنه إذا قيل: إن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس ، فالامر هنا متردد بين الخطأ والصواب لا غير ، فالقول بدورانها علم و بتوقفها جهل ، والمخطئ سواء عذرناه أم لم نعذر له مخالف للواقع و نيته إلى الله .

والقاضي عندما يصدر حكمه على متهم ، قد يدينه أو يبرئه ، وفق الأدلة التي توضع بين يديه ، أى أنه يخطئ أو يصيّب وفق الواقع وحده ، ولكن حكمه نافذ حسب الأدلة الظاهرة و نيته إلى الله .

هل الأمور العبادية على هذا الغرار؟ فمسح الرأس كله ركن عند الله ، ولكن المجتهد - وفق ما رأى من أدلة - قال بأن مسح بعض الرأس يكفي ، فهو مخطئ في اجتهاده ولكن له أجره !

كذلك يقول بعض العلماء - أو جلهم - وإن كان تعرفحقيقة الحكم عند الله متعدرا، ومن ثم لا نجزم بصواب مجتهد أو خطئه.

ومن العلماء من يرى هذه الأمور العبادية اعتبارية، وأن مراد الله فيها هو السمع والطاعة، وأن كل ما يصل إليه وفق فكره وجهده هو المطلوب منه، ولا يكلف الله نفسها إلا ما آتاهَا، وتبعاً لذلك يرى أن كل مجتهد مصيّب.

وسواء كان كل مجتهد مصيّبا، كما يرى البعض أو مأجورا كما أجمعَت الأمة، فإن تجريم مجتهد أو التحامل عليه منكر كبير.

### احترام المخالف دين العلماء:

والفقهاء المجتهدون وإن اختلفت آراؤهم يحترم بعضهم بعضاً ويحترم حرية فـى مخالفته، وقد رأينا مالك بن أنس يرفض حمل الناس على مذهبـه فى كتابه الموطأ ويقول: إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا فى الأمصار وقد يكون لديهم ما فـاته.

وقد أنكر عبدالله بن مسعود إقامة الصلوات الرباعية أيام التشريق، لما بلـغه أن عثمان فعل ذلك، وقد رأى ابن مسعود بعدها يصلـى وراء عثمان مـُتمـاً فـلما كـلـم فى صـنيـعـه هـذا قال أـكـرهـ الخـلـافـ..!

وقد كان أحمد بن حنبل يرى أن الحجـامة تـنقـضـ الـوضـوءـ، فـسـئـلـ عـمـنـ رـأـيـ الإـمـامـ اـحـتـجـمـ وـقـامـ إـلـىـ الصـلـاـةـ وـلـمـ يـتـوـضـأـ، هـلـ يـصـلـىـ الإـمـامـ خـلـفـهـ؟ـ فـقـالـ رـضـىـ اللهـ عـنـهـ:ـ كـيـفـ لـاـ أـصـلـىـ خـلـفـ مـالـكـ وـسـعـيـدـ بـنـ الـمـسـيـبـ؟ـ!

وكان أبو حنيفة وأصحابـهـ يـرـونـ اـنـتـقـاضـ الـوضـوءـ مـنـ خـرـوجـ الدـمـ، وـلـكـنـ أـبـاـ يـوـسـفـ رـأـيـ هـارـونـ الرـشـيدـ اـحـتـجـمـ وـصـلـىـ وـلـمـ يـتـوـضـأــ لـأـنـ مـالـكـ أـفـتـىـ الـخـلـيـفـةـ بـأـنـ لـاـ وـضـوءـ عـلـيـهـ إـذـاـ هـوـ اـحـتـجـمــ فـصـلـىـ أـبـوـ يـوـسـفـ خـلـفـهـ وـلـمـ يـعـدـ الصـلـاـةـ.

وـرـوـوـاـ أـنـ الشـافـعـيـ تـرـكـ الـقـنـوـتـ فـىـ صـلـاـةـ الصـبـحـ لـمـ يـصـلـىـ مـعـ جـمـاعـةـ الـأـحـنـافـ فـىـ أـحـدـ مـسـاجـدـ بـغـدـادـ وـذـلـكـ رـعـاـيـةـ لـأـدـبـ الـإـسـلـامـ، وـرـغـبـةـ عـنـ الـخـلـافـ..

وـرـبـماـ قـيـلـ:ـ إـنـ الـقـنـوـتـ أـمـرـ ثـانـوـيـ،ـ أـمـاـ قـرـاءـةـ الـفـاتـحةـ فـىـ الصـلـاـةـ وـرـاءـ الإـمـامـ،ـ فـالـشـافـعـيـ يـرـاـهـاـ رـكـنـاـ وـلـاـ يـرـىـ ذـلـكـ أـغـلـبـ الـأـئـمـةـ،ـ وـمـاـ نـظـنـ الشـافـعـيـ إـلـاـ قـرـأـهـ سـرـاـ فـىـ هـذـهـ الـجـمـاعـةــ.

وـنـقـولـ:ـ إـنـ الـقـيـمـةـ الـذـاتـيـةـ لـاـ جـهـادـ الشـافـعـيـ فـىـ وـجـوبـ الـقـرـاءـةـ كـالـقـيـمـةـ الـذـاتـيـةـ لـرـأـيـ

غيره في كراهيتها، أو جوازها، كلاهما اجتهاد يلزم صاحبه وحده، ولا يلزم به غيره من المجتهدين . .

والأجر منحة إلهية لكلا المذهبين، الخطأ فيهما والصواب، فلم التنطع وإثارة الفرق؟ هل نحن أغير على الدين من صاحب الدين؟

لقد أدركنا في طفولتنا عصراً مجنوناً كانت تقام فيه ثلاث جماعات أو أربع للوقت الواحد! كان أتباع كل مذهب يرفضون الصلاة وراء إمام على غير مذهبهم.

هؤلاء الناس صنعت عقولهم ثقافة مسمومة، لا تكون على ظهر الأرض إلا أمة تافهة شريرة، وستحدث عن هؤلاء عند نقدنا للتعصب المذهبى، وقبل ذلك نزيد قضية الخلاف الفقهى وضوحاً فنتقل انتقالة كبيرة.

المعاصي والكبائر معروفة في ديننا، وبعد عنها شيمة المؤمنين، عامتهم وخاصتهم، وثبتت حرمتها قائم على القطع فإن التحرير ليس هو فرد أو توافق مجتمع. إنه خطاب الله سبحانه بالكف عن كذا، أو كذا، أى لا بد من نصٍ يُستند إليه التحرير . . .

وهنا قد يقع بين الفقهاء خلاف لا في أصل النص، بل في الدائرة التي يتناولها بعد تحديد مفهومه.

فالخمر حرام، ومن قال بإباحتها فهو مرتدٌ عن الإسلام، ومن شربها عالماً فهو فاسق.

وقد سبق أن أشرنا إلى كلام الحنفية في أن الخمر تصنع من العنبر، وأن اللغة تجعل الخمر من العنبر وحده، وأن ما أسكر من الأشربة يحرم بالقياس على الخمر، وأن القدر غير المسكر من هذه الأشربة الأخرى لا يحرم - كما يقولون - .  
وقد ضعفنا هذا الاجتهاد أو رفضناه.

وبقى أن نسأل: ما حكم من شرب هذا القدر غير المسكر أو أباهه؟

والجواب: هو مخطئ ولكن لا يكفر ولا يفسق ولا يجوز لعنه كما يلعن شارب الخمر وعاصرها وبائعها وشاربها.. إلخ.

ومثال آخر الربا حرام بيقين، قليله وكثيره، والإجماع على هذا انعقد، ومنعاً للوقوع في الربا جاء في السنة «والبُرُّ بالبُرِّ مثلاً بمثل، هاء وهاه»<sup>(١)</sup>، أى أن التبادل يجب أن يتم حالاً دون تفاوت!

(١) متفق عليه.

والتأمل في صورة هذه المعاملة، صورة استبدال قدح قمح بآخر دون زيادة ودون تأخير، أمر يدعو إلى الغرابة، إن المرء قد يبادل قمحاً رديئاً بآخر جيداً! فيختلف الكمن حتماً !!

لا، هذا مرفوض، فهو ربا. إن أردت الجيد فاشتره بثمن خاص، وبع ما لديك بثمن ما، ولا مبادلة إلاً مثلاً بمثل ويكون التبادل حالاً ..

وظاهر أن هذا الاحتياط الشديد جاء سداً لذريعة الربا، وإغلاقاً لأبوابه من بعد .. .

ولكن وردت أحاديث أخرى تجعل الربا في النسيئة، لا في الزيادة المعجلة، وقد أخذ بهذا المعنى عبد الله بن عباس وغيره، فهل يُعدون مبيحين للربا؟ لا . . . !

وقد ذكر ابن تيمية جملة من الاجتهادات التي أخذ بها أصحابها معتمدين على أسباب الخلاف التي أشرنا إليها - صدر هذا البحث - ورتب على ذلك أن لا تشريب عليهم ويغفر الله لنا ولهم .

ومع رفضي الشخصي لبعض هذه الآراء فإني لا أستبيح أصحابها ولا أنال منهم .  
قال ابن تيمية: إنه قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «لعن الله آكل الربا وموكله، وشاهديه وكاتبه»<sup>(١)</sup> .

وصح عنه من غير وجه أنه قال - لمن باع صاعين بصاع يدأ بيد - «أوْه عين الربا» كما قال البر بالبر ربا إلا هاء وهاه<sup>(٢)</sup> .

وهذا يوجب دخول نوعي الربا - ربا الفضل وربا النسيئة - ثم إن الذين بلغتهم قول<sup>(٣)</sup> النبي ﷺ «إما الربا في النسيئة» فاستحلوا بيع الصاعين بالصاع يداً بيد - مثل ابن عباس رضي الله عنهما - وأصحابه، أبي الشعثاء وعطاء وطاوس، وسعيد بن جبير، وعكرمة وغيرهم - من أعيان المكيين الذين هم صفة الأمة علماء وعملاء - لا يحل لمسلم أن يعتقد أن أحدهما منهم بعينه، أو من قلده - بحيث يجوز تقلیده - تبلغهم لعنة آكل الربا، - نعم لا يلعنون - لأنهم فعلوا ذلك متأولين تأويلاً سائغاً في الجملة .

وكذلك ما نقل عن طائفة من فضلاء المدینین من إتيان المحاش<sup>(٤)</sup> مع ما رواه أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال: «من أتى امرأة في دبرها فهو كافر بما أنزل على محمد»<sup>(٥)</sup> ﷺ ! .

(١) رواه مسلم وقال: هم سواء .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه مسلم والنسائي وابن حنبل وابن ماجة .

(٤) الشذوذ في إتيان النساء .

(٥) رواه أحمد وأبو داود وغيرهما .

وكذلك قد ثبت عنه صلوات الله عليه أنه لعن في الخمر عشرة<sup>(١)</sup> : عاصر الخمر، ومتصرها، وشاربها . . إلخ .

و ثبت عنه من وجوه أنه قال : « كل شراب أسكر فهو خمر »<sup>(٢)</sup> وقال : « كل مسكر خمر »<sup>(٣)</sup> و خطب عمر رضي الله عنه على منبره بين المهاجرين والأنصار ، فقال : « الخمر ما خامر العقل » .

وأنزل الله تحريم الخمر . وكان سبب نزولها ، ما كانوا يشربونه في المدينة ولم يكن لهم شراب إلا الفضيخ ، لم يكن لهم من خمر الأعناب شيء .

قال ابن تيمية : ومع ذلك كان رجال من أفالضل الأمة - علما و عملا - من الكوفيين يعتقدون ، أن لا خمر إلا من العنب وأن ما سوى العنب والتمر لا يُحرّم من نبيه إلا بقدر ما يسكر ، ويشربون ما يعتقدون حله قال فلا يجوز أن يقال : إن هؤلاء من درجون تحت الوعيد ، لما كان لهم من العذر الذي تأولوا به أو لموانع أخرى .

وكذلك لا يجوز أن يقال إن الشراب الذي شربوه ليس من الخمر الملعون شاربها ، فإن سبب القول العام لابد أن يكون داخلاً فيه ، ولم يكن بالمدينة خمر من عنب - عند نزول الوحي - .

ثم إن النبي صلوات الله عليه قد لعن البائع للخمر ، وقد باع بعض الصحابة خمرا حتى بلغ عمر رضي الله عنه فقال : « قاتل الله فلانا ، ألم يعلم أن رسول الله صلوات الله عليه قال<sup>(٤)</sup> : « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها ، وأكلوا أثمانها »؟ ولم يكن يعلم أن يبعها محرم ولم يمنع عمر - رضي الله عنه - علمه بعدم علمه ، أن يبين جزاء هذا الذنب ، ليتنهى هو وغيره عنه بعد بلوغ العلم به .

وقد لعن رسول الله صلوات الله عليه العاصر والمتصر ، وكثير من الفقهاء يجوزون للرجل أن يعصر لغيره عنبًا ، وإن علم أن من نيته : أن يتخذه خمرا .

فهذا نص في لعن العاصر ، مع العلم بأن المذور تختلف الحكم عنه لمانع .

---

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه البخاري بلفظ ( فهو حرام ) .

(٣) رواه مسلم مرفوعا إلى النبي صلوات الله عليه .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

وكذلك جاء لعن الواصلة والوصولة في عدة أحاديث صحاح، ثم من الفقهاء من يكرهه فقط<sup>(١)</sup>.

وقال النبي ﷺ : «إن الذي يشرب في آنية الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم»<sup>(٢)</sup> ومن الفقهاء من يكرهه كراهة تزية.

وكذلك قوله ﷺ : «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»<sup>(٣)</sup>. يجب العمل به في تحريم اقتتال المؤمنين بغير حق، ثم إننا نعلم أن أهل الجمل وصفين ليسوا في النار لأن لهم عذراً وتأويلاً في القتال، وحسنات منعت المقتضى أن يعمل عمله.

ومضى ابن تيمية يقول:

وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيمة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء يمنعه ابن السبيل، فيقول الله له: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ماله تعلم يداك. ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنياه، إن أعطاه رضي، وإن لم يعطه سخط. ورجل حلف على سلعة بعد العصر كاذباً: لقد أعطى بها أكثر مما أعطى»<sup>(٤)</sup>.

فهذا وعيد عظيم لمن منع فضل مائه، مع أن طائفة من العلماء يجوزون للرجل أن يمنع فضل مائه.

فلا يمنعنا هذا الخلاف أن نعتقد تحريم هذا محتاجين بالحديث ولا يمنعنا مجىء الحديث أن نعتقد أن المتأول معدور في ذلك، ولا يلحقه هذا الوعيد.

وقال ﷺ : «لعن الله المحلل والمحلل له»<sup>(٥)</sup>. وهو حديث صحيح قد روى عن رسول الله ﷺ من غير وجه، وعن أصحابه رضي الله عنهم، مع أن طائفة من العلماء صححوا انكاح المحلل مطلقاً.

(١) ترى السيدة عائشة أن هذا اللعن خاص بمن تغش الرجال للتزوج، فتظهره مثلاً أن لها شعراً - بالوصل - وهي صلقاء، أو أن جلدها بني وهي شقراء. روى عبد الرزاق في مصنفه أن امرأة أتت عائشة فقالت: يا أم المؤمنين إن في وجهي شعرات، أفارزيلهن؟ فقالت السيدة عائشة: «تزييني لزوجك! . أطيعي زوجك» وهذا من فقه أم المؤمنين ووقفها على أسرار التشريع.

(٢) رواه البخاري وغيره.

(٣) النسائي وابن ماجة.

(٤) البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجة وغيرهم.

(٥) أحمد بن حنبل وأبو داود والنسائي والدارمي.

ومنهم من صحق إذا لم يشترط في العقد، ولهم في ذلك أذدار معروفة.  
فإن قياس الأصول عند الأول، أن النكاح لا يبطل بالشروط، كما لا يبطل بجهالة أحد العوضين.

وقياس الأصول عند الثاني: أن العقود المجردة عن شرط مقتضي لا تغير أحكام العقود.

ولم يبلغ هذا الحديث من قال هذا القول. هذا هو الظاهر، فإن كتبهم المتقدمة لم تتضمنه. ولو بلغهم لذكره أخذين به، أو مجيبين عنه، أو لعله بلغهم وتأولوه أو اعتقدوا نسخه، أو كان عندهم ما يعارضه.

و كذلك استلحاقي معاوية رضي الله عنه زياد بن أبيه المولود على فراش الحارث بن كلدة، لكون أبي سفيان كان يقول: إنه من نطفته، مع أن رسول الله ﷺ قد قال: «من أدعى إلى غير أبيه، وهو يعلم أنه غير أبيه: فاجنحة عليه حرام»<sup>(١)</sup>. وقال: «من أدعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»<sup>(٢)</sup>.

و قضى أن الولد للفراش، وهو من الأحكام المجمع عليها - ومع ذلك - خالفه معاوية.

ونحن نعلم أن من انتسب إلى غير الأب الذي هو صاحب الفراش، فهو داخل في كلام الرسول ﷺ، مع أنه لا يجوز أن يعيَّن - باللعن - أحد من دون الصحابة فضلاً عن الصحابة فيقال: إن هذا الوعيد لاحق له، لإمكان أنه لم يبلغهم قضاء رسول الله ﷺ بأن الولد للفراش، واعتقدوا: أن الولد من أحبل أمه، أو اعتقدوا: أن أبي سفيان هو المحبل لسمية أم زياد.

فإن هذا الحكم قد يخفى على كثير من الناس، لاسيما قبل انتشار السنة.

بهذا العقل المفتوح، والقلب المتسامح ينظر ابن تيمية إلى ما وقع بين الأئمة من خلاف، ويرفع عنهم الملام.. ثم خلقت خلوف تحاول هدم القمم، وتتلمس لها الأخطاء من بعيد.. وتريد أن تجعل الإسلام بلا تاريخ علمي، ولا مفكرين كبار.. وتنظر إلى هذه الخلوف الملعونة، فترى مزيجاً من الجهل والكبر لا يستحق إلا المقت والازدراء.

(١) مسلم - الإيمان - ١١٥.

(٢) الترمذى: الولاء والهبة.

## التعصب المذهبى

للرأى الفقهى مكانته العلمية، ولمن شاء أن يأخذ به، وأن يدعوه إليه غيره . . .  
ونحن قد نؤثر رأيا على رأى لأن اقتناعنا بهذا أكثر من اقتناعنا بذاك، أو لأن هذا  
الرأى أدنى إلى تحقيق المصلحة العامة، وأرفق بعباد الله .

والشىء الذى نرفضه ويرفضه جمهور العقلاء أن يحسب أحد الناس أن رأيه دين، وأن ما  
عده ليس بدين، وأن يحمد على ما عنده جمودا قد يضر بالإسلام كله ويصدع وحدته.  
وتنفيرا من هذا المسلك نقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ  
الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعَةً كُلُّ حَزْبٍ بِمَا لَدِيهِمْ فَرَحُونَ﴾<sup>(١)</sup> .

وقد قرأت ورأيت من أمراض التعصب المذهبى ما يثير الاشمئاز ويدعو إلى  
الدهشة . . .

وكان الذين خاضوا هذه المعارك الجدلية يقصدون قصدا إلى تزييق المسلمين، وإهانة  
معارضيهم في الفكر بعلل مختلقة .

### تعصب ممقوت:

قال الشيخ عبدالجليل عيسى<sup>(٢)</sup> : سئل بعض المتعصبين من الشافعية عن حكم طعام  
ووقيع في قطرة نبيذ، فقال «فض الله فاه»: يرمى ل الكلب أو حنفى !!  
وسئل متعصب حنفى: هل يجوز للحنفى أن يتزوج امرأة شافعية؟ فقال: «فض الله  
فاه» هو الآخر: لا يجوز لأنها تشک فى إيمانها . . . يعنى هذا الأحمق أن الشافعى يجيز  
للمؤمن أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله ، تبركا . فهذا الاستدراك أو الاستثناء بالمشيئه  
جعله شكا يخرج من الملة !!

(١) الروم ٣٢ ، ٣١ .

(٢) بتصرف قليل .

أرأيت هذا السفه؟ وجاء حنفى آخر فزاد الطين بلة وقال : يجوز الزواج بها قياسا على الكتابية !

ورأيت حنابلة يأبون إلا ذبح النسك فى منى أيام التشريق ، ويرفضون مذهب الشافعى فى الذبح بمكة قبل ذلك ، ويقبلون أن تتنزأ آلاف الذبائح ، ويحتاج تنظيف منى منها إلى المال والرجال .. ذلك لديهم أرجح من إطعام الألوف من فقراء مكة .. أوائل ذى الحجة ..

وحنابلة آخرون يرون زكاة الفطر لا تكون إلا شعيرا أو قمحا ، ويرفضون باستعلاء مذهب أبي حنيفة فى إخراج القيمة مالاً للفقراء .

وتصور عواصم المسلمين تشحن بأرادب الشعير حتى لا يعمل الناس بمذهب أبي حنيفة .. لم هذا التعصب المذهبى؟!

لقيت متعصبين كثيرين ، ودرست عن كثب أحوالهم النفسية والفكرية ، فوجدت آفتين تفتكان بهم :

الأولى: العجز العلمى ، أو قلة المعرفة ! هؤلاء يحفظون نصاً وينسون آخر ، أو يفهمون دلالة للكلام هنا ويجهلون أخرى وهم يحسبون ما أدركوه الدين كله .

ولو أن هؤلاء اكتفوا بمنزلة المتعلم التابع ما عابهم ذلك كثيرا ، فليس كل مسلم مطالبا بمعرفة جميع الأقوال الواردة والدلائل المحتملة .

المصيبة أن يشتغلوا مفتين أو موجهين وهم بهذا المستوى الهاابط !

نقل الشيخ عبدالجليل عيسى عن ابن إسحاق الشاطبى فى «الموافقات» هذه الكلمة الصائبة : «إن تعويد الطالب إلا يطلع إلا على مذهب واحد، ربما يكسبه نفوراً أو إنكاراً لكل مذهب مادام لم يطلع على أداته، فيورثه ذلك حزازة في الاعتقاد في فضل أئمة أجمع الناس على فضلهم وتقديرهم في الدين وخبرتهم بمقاصد الشارع وفهم أغراضه».

حدث لى مرة أن أفتيت بجواز حج المرأة وحدها في الرفقة المأمونة ، فإذا طالب مكفوف يمسك بيديه وهو يرتعش من الغضب يقول : كيف تفتى بهذا الحكم المخالف للسنة؟

قلت : إنما أنقل مذهبى الشافعى ومالك رضى الله عنهم .

قال : هما يخالفان السنة ! قلت هما لا يخالفان السنة . إن حديث نهى المرأة عن السفر إلا مع محرم لها ، فهمه هذان الإمامان على أنه عند اضطراب الأمن وخوف الفتنة .

واستدلوا على صحة فهمهم بأن الرسول ﷺ تنبأ بأن الإسلام سوف يظهر، وأن الدمار والفتانين سوف يختلفون حتى تسير الظعينة من اليمن إلى العراق لا تخشى إلا الله.. وسفر الظعينة هذه المسافة الشاسعة لا يبشر الرسول به إذا كان حراما..!

وعندما كنت مسؤولاً عن المساجد في مصر جاءتني شكايات، ووُقعت فتن، من بعض المصلين لأن الإمام لم يصل في صبح الجمعة بسورة السجدة والإنسان، كما يرى الشافعى.

إن القصور العلمي عند أولئك وأمثالهم هو مثار الشغب والفوبي.

والآفة الثانية في التعصب المذهبي: سوء النية، ووجود أمراض نفسية دفينة وراء السلوك الإنساني المعوج، ويغلب أن تكون آفات الظهور والاستعلاء أو رذائل القسوة والسلط. كنت في مجلس قرآن ختم القارئ فيه التلاوة بقوله صدق الله العظيم. فإذا جالس ينتفض كأنما لسعته عقرب يقول: هذه بدعة... قلت له: لا أبحث معك أنها بدعة أو سنة، وإنما أسألك: ما هذا الفزع؟ لكانما سقط على رأسك حجر!! الأمر ما يعالج بهذه العاصفة. أجلس.

ورأيت في أحد مساجد القاهرة رجلاً تأخرت به السن يوشك أن يضرب نفراً من الطلاب الذين صلوا وراء وسهم عارية.

أخذت على يديه، وأفهمته بشق النفس أن الرأس ليس عورة، وأن الصلاة صحيحة، وأن مسلكه خطأ، فما تركهم إلا مغلوباً على أمره، غير مقنع بما قلت.

هذا الصنف من الناس لم يهذب نفسه بالأخلاق التي بعث صاحب الرسالة ليتمم مكارها.. إن صور العبادة عنده غطاء لقلب غليظ، وغرائز فجة.

وهو يجد متعة في قضايا الخلاف ليثور ويفور، وظاهر أمره الغضب للدين، وهو في الحقيقة ينس عن طبيعة معتلة، وتربيه ناقصة أو مفقودة.

رأيت إلى الشخص الذي قال لرسول الله: أعدل، هذه قسمة ما أريد بها وجه الله! إنه - والله - ما يغار على عدالة، ولا يأبى على جور. إنه طالب ظهور عن طريق الغيرة على القيم، يريد أن يقال عنه: استلقت معلم الإنسانية إلى ما فاته، وأدرك مال ميدركه، وهو صاحب الرسالة العظمى.

إنه هو وأمثاله كما قال رب العالمين: «إن في صدورهم إلا كبر» ما هم ببالغيه<sup>(1)</sup>.

(1) غافر ٥٦.

ولقد تألم رسول الله ﷺ لهذا الكلام، وقال لصاحبه: «ويحك منْ يعدل إذا لم  
أعدل؟ خبت وخسرت إنْ لم أعدل»!

## انشغال بسُنن وشكليات عن عظائم الأمور:

والواقع أن بين المتعصبين لبعض الآراء والمذاهب ناساً حظهم من الإيمان بالغ التفاهة. . ولذا اجتمعت الآفتان معاً على افتراس الأمة الإسلامية المغلوبة على أمرها بين المحيطين الأطلسي والهادئ.

شعرت بذلك عندما اشتغلت - من عشرين سنة - بالإجابة عن الأسئلة الدينية في برامج الإذاعات الموجهة بالقاهرة.

لاحظت أن أسئلة كثيرة تجئ عن حكم سدل اليدين أو قبضهما في الصلاة. كان النزاع محتداً ما بين أتباع مالك، وجماعة أنصار السنة في هذه البقاع النائية وخصوصاً بين مجموعة الأقطار المتكلمة بالفرنسية.

قلت: سبحان الله! هؤلاء قوم فقدوا اللغة العربية والتاريخ الإسلامي، والولاء الجامع على هذا الدين. وأظلمهم حكم أجنبي لا يرجو لله وقاراً ولا يحترم من حدوده حداً، بل لا يقيم للإسلام ركناً، ولا يحل حلالاً ولا يحرم حراماً.

وجملة الحكومات هناك إما صليبية على كثرة مسلمة، وإما مسلمة باللفظ، ولا تهتم من تعاليم الإسلام بشيء، ومع ذلك كله فالنزاع يحتمد حول سدل اليدين أو قبضهما في الصلاة. . هل هذه مشكلة المشكلات؟!

إن الشافعى الذى يجعل قبض اليدين سنة يصف هذه السنة بأنها هيئة، أى يجعلها شكلًا للصلاحة ويرى أن ترك الهيئة سهواً أو عمداً لا يستتبع سجود سهواً.

فهل نافلة خفيفة على هذا الغرار تنسى الدعائم والمعالم، وتشغل الجماهير عن أعمدة الإسلام التي انهارت أو تكاد. .

إن ما حدث في ظل الاستعمار الفرنسي حدث مثله في ظل الاستعمار الإنكليزي.

ولقد رأينا المسلمين الهندود الذين أنشئوا باكستان غلبتهم قضايا تافهة، قصمت ظهر الدولة التي أنشئوها، وبددت قواهم في خصومات مذهبية لا طائل تحتها، ولعلهم يستفيدون من تجارب الأمس ما يصون مستقبلهم المهدد.

نظرت إلى شئون الناس في أقطار أخرى، فرأيت ما يستحق التسجيل. إن الشعوب تختلف على نطاق واسع في تقدير مصالحها وفي رسم السبل التي تتحققها.

ففى انجلترا عمال ومحافظون وغيرهم، وفي الولايات المتحدة جمهوريون وديمقراطيون وغيرهم، وفي شتى الأقطار أحزاب تختلف على التافه والجليل.

ربما اختلفوا فى نظام الجمارك أو فى نظام المقابر، أو فى نظام الحكم المحلى أو فى نظام تأمين المرافق الكبرى.

ومع هذه الاختلافات فإن ولاءهم لأوطانهم ثابت، وانشغالهم بالدفاع عنها وإعلاء رايتهما يجمعهم على عجل من كل ناحية، وتطوى مسافات الخلف بين الكل فإذا هم صف واحد لنفع بلدتهم ورفع شأنها.

إن الخلافات الجزئية واقع لا بد منه، وتجاوزها لما هو أهتم منها واقع لا بد منه كذلك..! ولم أر ناسا حبسنهم الجزئيات وغلبتهم على رشدهم مثل صرعي التعصب المذهبى عندنا. وأظن السبب فى ذلك أسلوب تعليم العوام. إن المدرس يقول فى ثقة: حكم الله كذا فى هذه القضية، رأى الدين كذا فى ذلك الموضوع.. فيظن المستمع أن ما سمع هو حكم الله ورسوله.

وما ينبغي أن يذكر حكم بهذا الجزم إلا ما قطع به، أما الاجتهادات المذهبية فينبغي أن يقول المفتى: أرى كذا أو الحكم عندنا كذا أو صح الدليل لدينا بكذا، ويترك مجالاً للرأى الآخر فلا يحرمه من الانتماء إلى الإسلام.

وعلى الأتباع أن يستبينوا قيمة ما يؤدون وما يدعون، فلا يظنوا الإسلام حكراً على مسالكهم وحدها. واختيار المسلم لمذهب ما، لا يجوز أن يتحول إلى حاجة ومحاسبة، فإن ذلك يفسد النية ويذوق الأمة ويؤوهى الصلة بالله سبحانه وتعالى.

والموضوع كله لا مكان فيه لمكابرة واستطالة، إنه أهون من ذلك كثيراً.

سألنى صيدلى عن حكم من أدرك الإمام راكعاً ولم يقرأ الفاتحة، أتسقط الركعة عنه أم يعيدها؟

قلت: الجمهور على سقوط الركعة عنه، وهناك من يرى قضاءها، فاختر لنفسك ما يحلو.

قال: أعرف ذلك ولكن أريد مناقشة من يرى عدم قضاء الركعة..!

قلت له: ما جدوى ذلك عليك؟ ولماذا تتكلف ما لا تحسن وتترك ما تحسن..؟

قال: ما معنى ما تقول؟

قلت: أنت صيدلى، وجميع الأدوية فى دكانك من صنع الصهيونيين أو الصليبيين أو الشيوعيين، فإذا تركت أنت وزملاؤك هذا الميدان، ميدان صناعة الدواء، واشتغلت باللغو، أفتحسب ذلك يرفعك عند الله وعند الناس؟ إنك للاسف تسهم فى سقوط الأمة وتجعلها غير جديرة بالحياة.

قال: إننى أبحث فى حكم شرعى ولا أشتغل باللغو.

قلت: الحكم الشرعى كما قرره أهل الذكر بين أمرين، خذ منهما ما شئت، ولا يجوز أن تحول الموضوع إلى لبان يضوغه الفارغون. إن كل ما يصرفك عن ميدان الدواء هو فى حقيقته عبث أو عيب أو ذنب تؤاخذ به.

أما أن تؤلف رابطة عنوانها «جماعة من يقضون الركعة إذا لم تقرأ الفاتحة» فهذا سخف. ما قيمة هذا الرأى أو ذاك حتى يحسى به عقول الناس؟

إن المسلمين المعاصرين نسوا ضياع التركستان والقرم، ولم ينسوا الخلاف على الجهر بالبسملة أول الفاتحة.

لحساب من تستشار المشاعر المشبوبة وراء رأى فقهى؟ إن كان خطأ أو صوابا، فهو مأجور. وماذا يبقى من مشاعر الناس بإزاء العقائد الأولى، والوحدة الجامعة، والتماسك فى وجه أعداء لا ينامون حتى يقضوا علينا..؟

إن التعصب لرأى أحد الفقهاء غباء، اعمل به إن شئت، ولا تستحمق إذا رأيت غيرك بعمل بضده.

وإذا وجد مجال لبحث وجوه النظر وقيم الأدلة - من يقدرون على ذلك - فلا حرج! ثم يصير كل إلى ما يرى. إننى استيقنت من أن التعصب الشديد لمسألة ثانوية يتم على حساب الدماء والأموال والأعراض وكرامة الأمة وحياتها.

وأذكر صحيفيا من شهدوا القبض على الجماعة التى احتلت الحرم المكى هذه السنة، قال لى: عندما أخذنا صورا لهم رأيت بعضهم يتململ، فقلت له: مالك؟ قال لا تصورونا فالتصوير حرام!

قلت له: ترى أن التصوير حرام، وقتل الأبرياء فى المسجد وامتهان قداسته مباحان!!

هذه هى عقلية المتشبئين ببعض الأفكار والفتاوی، وذلك مبلغهم من العلم، يعمون عن العظائم ولا يرون إلا ما يضخمون من وجهات نظر، قد يكون خطأها أجلى من صوابها.

ذلك وقد ظهر نوع آخر من التعصب ! جماعة يتسمون أهل الحديث ، يفهمون أحد هم في الخبر المروي فهمًا معيناً ، فإذا خالفته في فهمه اتهمك بأنك تخالف السنة ، أو تخاصم الرسول ﷺ ، وهذا بلاء جديد شديد نشير إليه في الفصل اللاحق إن شاء الله .

\* \* \*

## حوار حار حول التقليد والابهار

أحب للمتحدين في الإسلام - وأنا منهم - أن يرزقوا سعة العلم وعمق الفقه. إن فقر العلم كفقر الدم لا يعين على نشاط ولا يوجد معه إنتاج، وغزارة العلم مع ضحالة الفقه تضليل للسعي وضياع للثمرة.

وكتيراً ما أستشعر الضيق في مواجهة صنفين من الناس، صنف حار العاطفة قليل الدراءة، وصنف ظاهر الجحود لأنّه لا يدرى شيئاً، أو يدرى الأمور على نحو بعيد عن الحقيقة.

وعصرنا هذا عصر حضارة ذكية الفكر عارمة الهوى.. وليس يجد في تقويمها إلا أصحاب بصائر نيرة وقلوب عامرة، لهم من رحابة الاطلاع والأفق ما يسد حكمهم ويقنع خصمهم.

وقد آلت إلينا في هذا العصر مواريث عقلية ونقلية ضخمة، تمثل جهد آبائنا في خدمة الإسلام وعلومه، كما أن غيرنا لديه أشياء كثيرة يستريح إليها ولا يتنازل عنها بسهولة.

ترى هل أحسنا الإفادة مما ورثنا؟ ثم هل عرضناه - بعد - العرض الذي يهيء له القبول؟

رأي لا. وبيننا وبين الخدمة الناجحة للإسلام أمد بعيد.

وأسوق بعض المجادلات التي دارت بيني وبين قوم يشتغلون بالقضايا الفقهية، لعل في سوقها ما يكشف الغاية التي أريد.

حدث في مدينة الإسكندرية أن قتل رجل ولديه، ويظهر أنه فعل ذلك إسقاطاً لنفقتهم، بعدما طلق أمهما! وحكم القضاء الوضعى بإعدام الرجل، وأحال أوراقه إلى المفتى للتصديق، ورفض المفتى التصديق على الحكم لأن الشريعة تأبى ذلك، ولكن القضاء الوضعى مضى في طريقه وقتل الأب القاتل.

وشار أخذوا كثیر حول القانون والشريعة في هذه القضية .

وقال لى أحد الناس لماذا تصمت في هذا الموضوع؟ قلت: إن هوای مع الإمام مالك في القصاص من هذا الأب المجرم! قال: إن المفتى ذكر في اعترافه الحديث الصحيح عن ابن عمر أن رسول الله قال: «لا يقتل الوالد بالولد»<sup>(۱)</sup> قلت: هذه هي القاعدة، والأباء يشكون ليسعد أبناؤهم، بل قد يموتون في سبيلهم، فإذا حصلت أن غلبت على الوالد نزوة غضب أو ساعة طيش فقتل ابنه عوقب بغير القتل، لأن ما وقع منه لا يتصور غالباً - أن يكون تعمد إهلاك، أو قصداً واعياً لإزهاق روح أعز الناس عليه .

فإذا تبين من التحقيق أن الأب شاذ، وأنه تعمد ذبح ابنه عن إصرار وروية، وجب القصاص .

وقاتل ابنيه في قضية الإسكندرية الآنفة استدرجهما ثم حملهما إلى أعماق البحر المتوسط بعيداً عن الشاطئ، ورمى بهما بين الأمواج، وعاد ليفر من أداء النفقة الواجبة لطلقته ولهمما معها !!

إن الإمام مالكا يحكم بالقصاص منه، ويحمل الحديث على صور القتل العارضة، التي لا تحمل طابع التعمد والعدوان الدنىء !!

قال لى صاحبى: إن غباراً حق بسمعة الشريعة في هذه القضية . أما كان ينبغي على المفتى أن يرى رأى مالك في هذا الحدث؟

قلت: إنه حنفى المذهب، وله وجهة نظره، ولكن أبا حنيفة في بعض قضايا القتل رجح ظاهر القرآن على نصوص السنة، وقضى بقتل المسلم بالكافر إعمالاً لقوله تعالى: «أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ»<sup>(۲)</sup>، وحمل الحديث الذي يفيد عدم قتل المسلم بالكافر بأنه يعني كافراً لا عهده ولا ذمة ولا أمان! أما من عاش في ذمة المسلمين فلا يهدر دمه ويجب الاقتصاص له .

وقد كان المفتى قادراً على تقليد مالك، أو التمثي مع منطق الأحناف إلى نهاية الطريق وهو منطق يرجع القصاص من الأصل في عدوانه على الفرع؛ لأن وجهة نظرهم تقديم ظاهر القرآن على حديث الأحاديث .

والطريف أن الأحناف والمالكية اتفقوا في قضية مسترق النظر، ورأوا أن ما جاء بها من سُنن هو للترهيب والتغليظ وحسب .

(۱) أحمد والترمذى وابن ماجة .

(۲) المائدة: ۴۵ .

إن بعض الناس قد يضع عينه في ثقب باب مثلاً ليطلع على سورات البيت ويستكشف محارمه، وهذا بلا ريب سلوك ذنبي، وقد حذر النبي ﷺ منه، وبين أن رب البيت لو فقاً عين هذا المتلصص ما كان عليه من بأس.

وفي ذلك روى أحمد والنسائي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم ففتقوا عينه فلا دية له ولا قصاص».

وبظاهر الحديث أخذ الخنابلة والشافعية، أما أبو حنيفة ومالك فحملوا الحديث على الترهيب وإشعار سارق النظرات أنه يفعل ما يهدى حقه وكرامته. قالا: لأن الأخذ بالظاهر يخالف الأصول العامة، إذ إن هذا المساء لو اقتحم البيت، وارتکب جريمة الزنى - وهو بكر - أو ارتکب من المنكر ما دون الزنا وهو متزوج، ما فقئت عينه شرعاً، بل يجلد أو يعزر حسب حالته، فكيف يكون المراد أن تفقاً عينه على الحقيقة، ومم يقتضي منه؟

يمكن تأديبه بعقوب مناسب، وإذا حدث أن فقاً عينه رب البيت لزم تعويضه عن العاهة التي أحدثها. والمفهوم من كلام الأحناف والمالكية أن صاحب البيت الذي دافع عن محارمه يعزر فلا يقتضي منه! ولكنه يؤخذ في حكم عليه بغرم مالي!

قال لي محدثي: وماذا تقول أنت في هذا الخلاف؟ قلت: لم أكون رأياً مكتتملاً فيه! ولا أستطيع الآن ترجيح رأي على آخر!

أنا قصدت فقط استعراض وجهات النظر في فقهاً الإسلامي، وكان بجانبنا شاب يكاد يتمزق من الغيظ، فعندما وصل الكلام إلى هذه المرحلة صاح يقول: تفاضلون بين أقوال الرجال وسنة رسول الله، وتناولون الأحاديث الصحيحة بهذا الأسلوب السيئ؟! إن هذا عمل يكاد ينتهي بأصحابه إلى الكفر! هذا تقديم بين يدي الله ورسوله، هذا . .

### خصلتان مهمتان للشباب المسلم:

قلت للشاب الهائج: على رسلك.. إنك قبل أن تخوض في هذه الأمور باسم السلف يجب أن تستجمع خصلتين مهمتين: أدب النفس وحسن الفقه.. ولن نقبل من فقد الأدب والفقه كلاماً في هذه القضايا..!

أما الأدب فأساسه ألا تلمس للبراء العيب، وألا تنتهي إلى الصاق التهم بالناس، وإذا غلبتنا سوء الظن بالآخرين استغفرنا الله للمخطئ كما نستغفر لأنفسنا . .

وعندما اختلف الصحابة السائرون إلى بنى قريظة: أ يصلون العصر في بنى قريظة كما أمرهم الرسول بذلك صراحة، أم يرعن حق الوقت ويصلون في الطريق كما فهم غيرهم، لم يقل الأولون لآخرين: خالفتم أمر رسول الله وكرهتم تنفيذه لأنكم أصحاب أهواء وأنكم ..

لم يقولوا لأخوانهم كلمة سوء، ولما بلغ الأمر الرسول ﷺ لم يلم أحداً أو يخطئه، ووقف الكل جبهة واحدة ضد اليهود!

إن أدب الإسلام كان صبغة عامة، ولو كنت - والخطاب للشاب الهائج - أنت وأمثالك في هذا الميدان لصنعتم مأساة في الطريق، وربما سفكتم الدم الحرام ... ولندع الكلام عن أدب النفس واللسان لنرى فقه الموضوع الذي يفوت القاصرين.

قال الإمام ابن تيمية: وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه عام الخندق: «لا يصلين أحد العصر إلا في بنى قريظة، فأدركتهم صلاة العصر في الطريق. فقال بعضهم: لا نصلى إلا في بنى قريظة، وقال بعضهم: لم يرداً منا هذا.. وصلوا في الطريق.. فلم يعب الرسول - لما بلغه الخلاف - واحدة من الطائفتين».

قال ابن تيمية يشرح فقه القضية:

الأولون تمسكوا بعموم الخطاب فجعلوا صورة الفوات داخلة في العموم - يعني أنهم رأوا إضاعة وقت العصر من مفهوم النص النبوى.

والآخرون كان معهم من الدليل ما يوجب خروج هذه الصورة عن العموم - إذ المقصود المبادرة إلى اللحاق باليهود قبل أن يتهيئوا للقتال.

وهي مسألة اختلف فيها الفقهاء اختلافاً مشهوراً: هل يخص العموم بالقياس - أم لا -؟

قال ابن تيمية: ومع هذا فالذين صلوا في الطريق كانوا أصوب فعلاً.. !! هكذا يقول كبير العلماء السلفيين في العصور الأخيرة.

ولست هنا أرجح رأياً على رأى، وإنما يعني أن يتأدّب ويتفقّه من يخوضون في هذه القضايا وأشباهها ثم ليختلفوا نظرياً ما شاءوا.

أما أن يتهم نفر من الطلاب، أو بعض البوابين والبقالين على الأئمة الكبار، وينالوا من قيمهم الدينية والعلمية فهذا سفهٌ منكرو .. !!

إن جعل أمتنا بلا تاريخ ولا قادة عمل أخرق.. وتقدير الرجال الذين خدموا الثقافة

الإسلامية لا يعني نسبة العصمة لأحد them، كما أن نقد them ليس كلاماً مباحاً لكل من فك الخط، أو حفظ جملة من الأحاديث أو حتى حفظ ألوها من السنن..

إن نقد الأئمة لا يتصل به إلا من قارب مستواهم على الأقل.. وكان نقده بياناً للحق كما وقع في نفسه دون أن يجعل الحق حكراً على فهمه هو، ودون أن يحرم عباد الله الصالحين أجورهم على ما اجتهدوا، أخطئوا أم أصابوا.

قال محدثي : قد يكون الحق معك ، بيد أننا ينبغي أن نرافق من يرفضون تقليد الأئمة ويعتمدون على أنفسهم في فقه الكتاب والسنة !

قلت : إنني لا أتعصب لمذهب معين ، ولكنني أحترم القيمة العلمية للفقه المذهبى ، وأقدر الرجال الكبار الذين تناقلوه في تاريخنا الثقافى ، وأرد الزعم الغريب بأنه قسم لفقه السنة وأن كلا الطرفين بعيد عن الآخر .

كأن المحدثين أصدق برسول الله وأغير على سنته ! وكم الأئمة الأعلام بعدها عن السنة يشقون لهم في ميدان المعرفة الدينية طريقاً آخر . . !!

هذا غير صحيح . وربما غاب عن أحد them أو عن بعضهم حديث ما ، فذاك لا يغض من جملة الحقائق التي قررها .

ثم إن إنشاء فقه جديد يستمد مباشرة من الكتاب والسنة - كما يقال - جهد لا نعترضه عند من تكتمل ثقافتهم وتنضج ملحوظاتهم ، وليس لهؤلاء أن يعدوا أفهمهم هم مراد الله ورسوله ، فإنهم قد يوافقون أحكاماً سبق أن قررها غيرهم من العلماء ، وقد يقررون أحكاماً جديدة لا عصمة لها بداهة كما أنه لا عصمة لأقوال غيرهم .

وقد رأيت الحصيلة الأخيرة لجهود هؤلاء فوجدت تشكيلاً من فقه المذاهب القديمة أساسها التلقيق ، ورأيت أحكاماً جديدة يدعى من بلغوها أنها الدين وهي لا تزيد عن أنها آراء لأصحابها يؤجرون عليها إن شاء الله أصابوا أم أخطئوا . . !!

مشكلة هؤلاء أنهم يفهمون في الأثر المروي فهما ما ، فإذا خالفهم غيرهم قالوا : خالف الرسول ﷺ .

لا يألف إلا خالف فهمكم لرواياته ، وقد يكون فهمكم شرهاً مستطيراً على السنة وصاحبها والدين ومستقبله ، فمن حق أولى الألباب أن يأخذوا على أيديكم ويحدروا الناس منكم .. !!

قال لي صاحبى : أوضح لنا ما تقول . قلت : ألف بعضهم رسالة يزعم فيها أن شن الحرب على الأعداء يتم دون دعوة إلى الإسلام ، واستند إلى فهمه المنكور لحديث البخاري أن الرسول ﷺ أغاث على بنى المصطلق وهم غارون ، أى اجتاز أرضهم

على غرة، وأن الدعوة إلى الإسلام كانت في صدر الإسلام... ثم؟ ثم أصبح المسلمون قطاع طريق عند هذا الأحمق الذي يدعى أنه يقرر فقه السلف! أصبحوا يغيرون على أعدائهم هكذا دون نذير... !!

والحقيقة أنه عليه دعا وترى وأمل الخير في الناس، فلما وجدهم جمعوا الجموع لقتاله لم يتظر حتى يستكملوا عدتهم فأخذهم على غرة... !!

وأخذ بعضهم ينشر أن الزكاة لا تؤخذ إلا من الحبوب التي تدخر، قلت له: إن أبي حنيفة يوجبها في الفواكه والموالح والأزهار والشاي والبن، وكل ما تنتج الأرض من قطن ومطاط وقصب. إلخ.

قال: السنة: ما نقول، وأبو حنيفة في ميدان السنة ليس بشيء!

قلت: السنة أن نترك زارع الشاي يكسب من فداته ألف جنيه لا زكاة فيها، ونأخذ من زارع الشعير الذي لا يكسب من فداته خمسين جنيهًا زكاة؟!

قال: نعم، هذه هي السنة.. ! قلت ساخرا: بدعة أبي حنيفة خير من سنتكم، إنكم وبال على الإسلام بهذا الأسلوب.

إن أبي حنيفة اعتمد في مذهبته على قرآن محكم... وما اعتمد على هوى!

ربما ترك رسول الله عليه أخذ الزكاة من الفواكه لأنها في عهده أو في أرضه لا تمثل ثروة محترمة، أما اليوم والحساب الزراعية مال خطير مما يمكن تركها.. وأبو حنيفة أرعن للسنة منكم، وأدرى بملابسات الأحكام.

إنكم تحفظون مئات الأحاديث دون وعي، والقليل الذي حفظه أبو حنيفة أحسن الاستفادة منه... !

هناك رجل يملك مائة بندقية ولا يحسن إصابة الهدف بواحدة منها، وربما أراد الضرب فقتل بريئا، أو قتل نفسه... خير منه من يملك بندقية واحدة يحسن استخدامها. ذاك مثلكم ومثل أبي حنيفة الذي تتطاول عليه... !

عندما كنت مديرًا للمساجد، وصيت الخطباء فقلت: إذا رأيتم من دخل المسجد أثناء الخطبة يصل إلى ركعتي التحيية فلا تجلسوه، وإذا رأيتموه جلس دون صلاة فلا تنهضوه للصلوة.

قال لي أحدهم: السنة أن يقوم ليصل إلى ويستلفته الإمام إلى ذلك! قلت ذاك ما رأه الإمام الشافعى وأحمد فى الحديث المروى فى هذه القضية.

أما الإمامان مالك وأبو حنيفة فيقولان يجلس ليسمع الخطبة، ولا يشغل عنها بشيء!

يقول مالك: هكذا وجدنا الناس يفعلون في المسجد النبوي، متوازيين ذلك عن الصحابة والتابعين، فعملهم أدل على السنة من حديث البدوي الذي صح أن الرسول أمره بالصلاحة، لعل هذا الأمر كان ثم نسخ!

وقال أبو حنيفة: تلك وقعة حال كان الرجل فقيراً يرتدي أسمالاً بالية فاستوقفه الرسول وحث على الصدقة ليستدر العطف عليه، والأصل أن الخطيب يتحدث ليستمع الجميع إليه لا ليشغله الداخلون عنه بالصلاحة.

قال لي محدثي: إن ظاهر الحديث مع أحمد والشافعى. قلت: نعم وظاهر الحديث مع السائرين إلى قريطة إلا يصلوا في الطريق! ومع ذلك فإن ابن تيمية رجح الصلاة في الطريق، ونحن في توصيتنا لعلماء المساجد نرفض التعصب المذهبى ونمنع فتنا سخيفة. من تابع أبا حنيفة ومالكاً فليتبعهما، ومن تابع الشافعى وأحمد فليتبعهما...

ومازلت أوصي الخطباء بذلك، وأرفض الزعم بأن نصف الأئمة خالفة السنة الواردة، قد يكون خالفة فهمنا للسنة الواردة وله حقه غير منكور، وللجميع أجرهم إن شاء الله.

وأخيراً قلت لمحدثي: إن دقة الفقه لا تباح لكل مسلم صالح. إنها هبة يؤتى بها الله من شاء. أرأيت الخلاف الذى نشب بين عمر وبعض الصحابة حول الأقطار المفتوحة؟

كان هذا البعض يريد تخفيضها وفق آية الأنفال، ولو استجاب عمر له لوقف الفتح الإسلامي، وتحول الفاتحون إلى إقطاعيين، وانهار بناء الإسلام..

ولكن عمر رضى الله عنه جعل التخفيض الذى نصت عليه الآية فى الأمة والأسلحة والأغذية وشتى المقولات المغnomة، أما الأرض المفتوحة فبقيت لأصحابها ووضعت عليها ضرائب معقولة لمصلحة الدولة.

هذا هو الفقه وإن خالف ظاهر النص.. إننا لا نسمح أن يجىء نفر من الدهماء ليرفع خسيسته على حساب كبار الأئمة. وعندما تختفى القمم الفقهية من تاريخنا خلال أربعة عشر قرناً فمن يبرز بعد ذلك؟!

أين الأدب الذى علمنا رسول الله عليه السلام الأخذ به فى قوله:

«ليس منا من لم يقر كبرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه»<sup>(1)</sup> .  
إن المجتهد - أخطأ أم أصاب - معذور ومحجور ، فلم التطاول والإيذاء؟ ثم من ألزم  
الجماهير برأى معين لواحد من هؤلاء الأكابر؟  
ليكن أفقنا واسعا وخلقنا أوسع .

\* \* \*

---

(1) الترمذى وأحمد وأبو داود .

## نحو سلفيّة واعية

الاصطلاح الشائع أن المذاهب الفقهية لا تعدو أن تكون وجهات نظر محترمة في العبادات والمعاملات ، وأن الوحدة الجامعة بين أتباعها لا ينكرها أو يخدشها عاقل ، وأنه لا يجوز إطلاق كلمة فرقة على الحنفية أو الحنبلية مثلاً ، فإن التبعية المذهبية ما كانت لتمييز أحدهما عن جماعة المسلمين .

أما اصطلاح فرقة ، فيتناول في تاريخنا أصحاب الاختلاف العقائدي أو السياسي ، فيقال فرقة المعتزلة أو المرجئة ، أو الشيعة إلى آخره .

ولا مشاحة في الاصطلاح ، وعذر الذين فرقوا بين المذاهب والفرق أن التنازع في الأصول غير التنازع في الفروع ، وأن النتائج الكبيرة هنا غير النتائج المحدودة هناك .

وأريد أن أقف وقفه تأمل في هذه القضية ، إنه من فضل الله على سلفنا الأول أنه لم يتقرر في بحوث ما وراء المادة ، ولم يحاول استكناه الغيبيات ، بل كان جيلاً مستقيماً على نسق الفطرة سوى النظرة أحسن علاقته بالله في العبادة الخاشعة وأحسن علاقته بالناس فيما التزمه من خلق حسن وعدالة مطلقة ، وقد أعاده ذلك على إبلاغ رسالة الإسلام ، فشرق وغرب ، وتألق وتألق واندكَت أمام عزماً الصعب والعقبات .

ولو أنه اشتغل بالفلسفة اللاهوتية ، والمناظرات الكلامية ما خرج من جزيرة العرب ، بل لأرسلت له فارس أو الروم كتبية من كتابتها تركته شذر مذر بين الرمال والتلال ..

فلما ذهبت الأجيال الزاكية ، وولى رهبان الليل وفرسان النهار ، خلقت البطالة ناساً يحسنون اللغو ويطيلون الفكر العابث والنظر الشرود .

وأوجد الفراغ مجالس كلامية كثيرة كان لها في تاريخنا وكياناً أثراً ردئاً . ونستطيع القول بأن العراق الذي نشب كان جهاداً في غير عدو ، أو كان حرباً عمياء أذكى نارها المراء والغباء .

فالخوارج حين كفروا العصاة كانوا جهلة بطبع البشر ، وعجزة عن فهم الأسباب الدخيلة والأصلية في الانحراف عن الطريق القويم .

والمرجئة حين هونوا من قيم الصالحات ، ومقارفة السيئات كانوا جهله بحق الله وما أوجب على عباده ! وكانوا عجزة عن صياغة المجتمعات وتحصينها ضد التحلل والخطب .

ودعك من المتقدّر السمج الذي تساءل : كيف كلام الله موسى تكلّيما ؟ أكان الكلام بلغة رسالت . أم ماذما ؟ والسمج الآخر الذي تساءل : كيف اتّخذ الله إبراهيم خليلا ؟ وكيف انعقدت موعدة بين الله وعبده ؟

ثم دعك من تقلّيد المعتزلة لليونان في نمط تفكيرهم البالى . لقد اقتنوا أثر أرساطو في فهم الألوهية ، والمعروف أن أرساطو أو غل في تنزيه إلهه حتى قطع علاقته بالأرض وما فيها ، لأنّه أكبر من ذلك ! وجرده من أن تكون له صفة فوق الذات ، لأنّ مقتضى التوحيد أن يعلم بذاته ويرحم بذاته ، فلا تكون له صفات العلم والرحمة والقدرة .

وهذا التفكير لا وزن له من ناحيتي العقل والنقل ، ولكن المتأثرين بالغزو الثقافي تبنوه وشغلو نابه ، وأقحموه إقحاما على تفكيرنا النظيف . ماذا لو بقى منهج السلف يخط أصول الإيمان كما ورثناه عن نبينا وصحابته ؟ ! واشتعل الجمّهور بما يرفع مستواه في معاشه ومعاده ؟ !

تلك صورة للهيجان العقائدي الذي اكتنف تاريخنا العلمي أول الأمر ، ثم تلاشى منه وبقى منه ما بقى .

على أن هناك خلافات قد تنشأ من التدبر الذاتي للنصوص وقد نظرت في هذه الخلافات فوجدت ما بها من نزق واستطالة أكثر مما بها من ذكاء وتعبد لله . فقضايا خلق الأفعال ، والتحسين والتقييم كان يمكن علاجها بأفضل من الأسلوب الذي مزق الشمل وقسم الأمة .

نعم من شيوخنا من رأى أكثر الخلافات لفظيا لا ثمرة له ، فالذين أنكروا رؤية الله مثلاً أنكروا رؤية مادية لها جهة وتحيز وانحصار ! والذين أثبتوا لم يقرروا لها هذه الخواص ولم يقيسوا غائبا على شاهد .

والذين قالوا بالصلاح والأصلاح لم يحسنوا اختيار العبارة المذهبة ، وهم إنما عنوا وصفه بالحكمة والرحمة كما قال تبارك اسمه عن نفسه : ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رِيبَ فِيهِ .. ﴾<sup>(1)</sup> . وهذا الجدل بعيد عن دائرة العقيدة عند أولئك المعقّبين .

يقول الشيخ محمد المدنى : إنها نظريات كلامية لا عقائد تعتمد على اليقين الذى يحف أصول الإيمان ، فإن المسلمين متفقون على أن الله موصوف بكل كمال منزه عن كل نقص . ثم تأدى الجدل بعلماء الكلام إلى تساؤل : هل يجب على الله فعل الصلاح والأصلح أم لا يجب ؟

فمن الناس من ينظر إلى الصلاح والأصلح على أنها كمال وجمال ، ويرى إيجاب ذلك على الله - لأنه أوجب على نفسه الرحمة - وهو متصف أبداً بكل كمال . . . ومن الناس من يقول : لا يجب على الله شيء لأن الإيجاب تقيد ، والله جل وعلا ليس عليه قيد ، ولا يمكن أن نوجب عليه شيئاً ، ومن ثم يرفضون القول بأنه يجب على الله فعل الصلاح والأصلح .

كلا الفريقين عند التأمل يقصد إلى تقرير الكمال الأعلى ، وإلى تنزيهه - سبحانه وتعالى - عما لا يليق به . . . ولكن اختلفوا في إدراك هذا الشيء بالذات . هل هو من قبيل الكمال من جانب الله ؟ أو هو يعد نقصاً في جانب الله ؟ فلا يثبته مؤمن إلا وهو معتقد أنه كمال ، ولا ينفيه مؤمن إلا وهو معتقد أنه نقصان .

نقول هذا اعتذار لبق عن المعارك التي أدارها الكلاميون قديماً ، وهي معارك كنا والله في غنى عنها ، اختلفت فيها التراث العقلى ونهاها وشغلت بها الجماهير عن خير الدنيا والآخرة ، وبقيت في كتب العقائد ذكريات مؤسفة .

وها قد سلخ الإسلام من عمره المديد أربعة عشر قرناً ، وعانت أمتنا أياماً عصيبة لانطلاقها بغير قواها وإلى غير وجهتها .

ونحن ما نقلق من كثرة المذاهب الفكرية في شئون الأدب والحياة ، ولا من كثرة هذه المذاهب في ساحات العبادة والمعاملة ، مادام المفكرون المجتهدون من أهل الذكر وذوى الأصالة العلمية والخلقية .

وإنما نكره التفرق في المعتقد ، والتحزب في أصول الديانة ، ونؤثر دراسة العقائد من منهاجاً القرآني ونبعها النقي كما تدفق به الوحي الأعلى ، ونهض عليه سلفنا الصالحون .

### مفاهيم قاصرة لمعنى السلفية:

والسلفية ليست فرقة من الناس تسكن بقاعاً من جزيرة العرب وتحيا على نحو اجتماعي معين .

إننا نرفض هذا الفهم ونأبى الانتماء إليه.

إن السلفية نزعة عقلية وعاطفية ترتبط بخير القرون، وتعمق ولاها لكتاب الله وسنة رسوله، وتحشد جهود المسلمين المادية والأدبية لإعلاء كلمة الله دون نظر إلى عرق أو لون.

وفهمها للإسلام وعملها له يرتفعان إلى مستوى عمومه وخلوده وتجابوه مع الفطرة وقيامه على العقل.

وقد رأيت أناساً يفهمون السلفية على أنها فقه أحمد بن حنبل رضي الله عنه، وهذا خطأ. . ففقه أحمد أحد الخطوط الفكرية في الثقافة الإسلامية التي تسع أئمة الأمصار وغيرهم مهما كثروا.

ورأيت ناساً يفهمون السلفية على أنها مدرسة النص، وهذا خطأ فإن مدرسة الرأي كمدرسة الأثر في أخذها من الإسلام واعتمادها عليه.

وقد كان من هؤلاء من تسموا أخيراً بأهل الحديث، وسيطرت عليهم أفكار قاصرة في فهم الأخبار المروية، وأحدثوا في الحرم فتنة منكورة.

والحديث النبوي ليس حكراً على طائفة بعينها من المسلمين، بل إنه مصدر رئيسي للفقه المذهبى كله.

ورأيت ناساً تغلب عليهم البداءة، يكرهون المكتشفات العلمية الحديثة ولا يحسنون الانتفاع بها في دعم الرسالة الإسلامية وحماية تعاليمها، ويرفضون الحديث في التليفزيون مثلاً لأن ظهور الصورة على الشاشة حرام، ويتناولون المقررات الفلكية والجغرافية وغيرها بالهزل والإنكار، وهؤلاء في الحقيقة لا سلف ولا خلف، وأدمغتهم تحتاج إلى تشكيل جديد.

ورأيت ناساً يتبعون الأعنت والأعنت، والأغلظ الأغلظ، من كل رأى قيل، فما يفتون الناس إلا بما يشق عليهم وينغص معايشهم، ويؤخر مسيرة المؤمنين في الدنيا، ويرأوى بهم إلى كهوفها المظلمة. وهؤلاء أيضاً لا سلف ولا خلف. إنهم أناس في اتسابهم إلى علوم الدين نظر، وأغلبهم معتل الضمير والتفكير.

ورأيت ناساً يتبعون إلغاء الرقيق بعيون كئيبة! قلت لهم: ألا تعرفون أن هؤلاء العبيد هم أحرار أولاد أحرار اختطفتهم عصابات النخاسة من أقطارهم، وباعتهم كفراناً وعدواناً ليكونوا لكم خدماً، وهم في الحقيقة سادة؟!

ما السلفية التي تقر هذا البلاء؟ وما هؤلاء العلماء الذين ضاقوا بسياسة الملك فيصل في تحريرهم، وإلغاء بيعهم وشرائهم؟ إن الرجل الشهيد أولى بالله منهم.

ورأيت ناسا يقولون: إن آية ﴿وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِي يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾<sup>(١)</sup> مرحليّة.

فإذا أمكتتنا اليد! لم نبق على أحد من الكافرين.

قلت: ما هذه سلفية. هذا فكر قطاع طرق لا أصحاب دعوة شريفة حصيفة، وأولئك لا يؤمنون على تدرис الإسلام لجماعة من التلامذة بله أن يقدموا في المحافل الدولية والجامعات الدولية.

إن العالم الإسلامي الآن متخلّف حضارياً، ومضطرب أخلاقياً واجتماعياً وسياسياً، وبينه وبين الأمم القائمة الصاعدة أمد بعيد.

هذه الأمم تعلم ظاهراً من الحياة الدنيا، وتفتقر إلى جيل من البشر يذكرها بالله ولقائه. والإسلام وحده هو المالك لهذه الحقائق الهدية. ولكي تؤدي أمته رسالتها يجب عليها أمران:

الأول: أن تطوي مسافة التخلف الحضاري، والاضطراب الإنساني الذي يشنّها ولا يزيّنها.

والثاني: أن تتقىم بشرف وكياسة لتقول للناس كلهم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بِرَهَانٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾<sup>(٢)</sup>.

ولكي ننجح في عملنا يجب أن نقتفي آثار سلفنا.

والسلفية هنا عنوان كبير لحقيقة كبيرة أساسها العقل الحر المكتشف الداء ود.

إن هذا العقل عندما رغب عن البحث في الذات العليا وحقيقة الصفات، كان يحترم نفسه عندما توقف. والعلم المعاصر نجح أياً نجاح عندما بحث في المادة التي بين يديه ولم يبحث في ربها - سبحانه - فأنى له البحث فيما لا يملك ولا يقدر؟!

من أجل ذلك نرفض النظريات الكلامية، ونقبل المذاهب الفقهية، ونضع الشبكة القانونية التي يتطلّبها انتقال الحياة من طور إلى طور.

(١) البقرة.

(٢) النساء: ١٧٤.

من أجل ذلك نهش للتقدم العلمي ونطوعه لنصرة مبادئنا ومثلنا.

ومن أجل ذلك نرى ضرورة إزاحة البلة وذوى العقد النفسية من قيادة الفكر الدينى ،  
فإنهم غشاوات على البصائر ، وحجب على الضمائر .

إننا محتاجون إلى فقهاء يستطيعون النظر فى سياسة المال والحكم ، ويرفضون أن يسبقهم الإلحاد إلى اجتذاب الشعوب الفقيرة فى هذه الميادين الخطيرة . ومحاجون إلى فقهاء يهيمون على شئون التربية والإعلام برحابة الإسلام وبشاشة لا بالتزام والتکلف .

إن الفقه الإسلامي كما قدمه سلفنا حضارة معجزة ، أما الفقه الإسلامي كما يقدمه البعض الآن فهو يحيى ولا يحيى .

\* \* \*

## المذاهب الفقهية وسلطات الدولة

لو كان الفقه مقصوراً على شئون العبادات لمضى في طريقه مقطوع العلاقات بالدولة ورجالها، إذ إن المصلى حرفٌ أن يسر بالبسمة أو يجهر بها وفق ما يؤثر من مذهب، حرفٌ أن يسر بالتأمين أو يجهر به، إلى غير ذلك من عبادات خاصة أثر فيها وجهة ما . . .

لكن الأمر قد يتصل بالأموال والأعراض والدماء، ولا يمكن أن تبقى الحكومات بمعزل عن خلاف الفقهاء في هذه الميادين، فلا بد أن تتبني مذهبها معيناً، وتهمل غيره.

هل تستقل المرأة بعقد زواجها ويجيء أمر الولي في المرتبة الثانية، أم يحظر مباشرة المرأة لعقد الزواج؟ هل تقبل توبة السارق قبل إقامة الحد، أم لا يجوز قبولها؟ وما النصاب الذي يجوز فيه القطع؟

هل يقام الحد في شراب لم يسكر - غير الخمر - أم لا؟

بل إن الحكومة قد تتدخل في أمور لها فيها مندوحة، كضرب النقاب على وجه المرأة مع ضعف الإسناد الفقهي له.

وبدهى أن يتنافس أتباع المذاهب المختلفة في جعل الدولة إلى جانبهم.

وقد حكى التاريخ أشياء مثيرة عن حماسة الأتباع ومسالك ذوى السلطان ربما زاغت عن النهج وخدشت قيم علماء أكابر.

وقد يحتاج علاجها الآن إلى حكمة وتويدة حتى تتحرر الحقائق العلمية وتومن المصالح العامة.

إن المذاهب المنتشرة الآن هي الأربعة المعروفة، مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل، وقد نمت وامتدت على أنقاض مذاهب أخرى ليست - من الناحية العلمية - أقل منها قيمة كمذهب الليث بن سعد، وسفيان الثورى، والأوزاعى، وابن جرير الطبرى، وأبى ثور، وداود الظاهري، وآخرين.

والواقع أن الأربعة الذين رزقوا الشهرة نماذج جليلة للتقوى والعلم، وليس

خلودهم مصادفة ارتفع بها ناس معمورون، كلاً كلاً، فإن التأمل في سير أولئك الأئمة يملاً الأفئدة مهابة وإعزازاً، ويعمل لماذا التفت الجماهير حولهم وارتضت الأخذ عنهم . . .؟

وقد تضخمت هذه المذاهب على مر الزمان وكثرت التأليف فيها. ولا نستطيع القول بأن هؤلاء الأئمة الأعلام مسؤولون عن كل ما صنعه المتأخرلون تأثراً بهم أو بناء على ما تمهّد من قواعدهم . .

كما نرفض حصر الفقه الإسلامي في اجتهاد أولئك الأربعة الكبار أو إغلاق أبوابه بعدهم .

فإن فضل الله لم يحتكره نفر من العلماء مهما علت منازلهم، ومصالح الشعوب تتجدد على اختلاف الزمان والمكان، وتحدث لها فتاوى وأقضية ينهض بها المستاخرون كما انهض بأمثالها المستقدمون .

ثم إن أحداً من الأئمة الكبار لم يزعم لنفسه العصمة فيما روى أو فيما رأى .

فإذا كشفت الأدلة المقنعة أن فيما ذهب إليه خطأ ما فإن التنبيه إلى هذا الخطأ يصبح مطلوباً .

وغمى عن الذكر أن ذلك لا يحتاج للأدعى والأغمار، وإنما يُهدى إليه الراسخون الأتقياء. الاجتهاد الفقهي إذن مطلوب إلى قيام الساعة وله رجاله ومواطنه. بيد أن رفع الخلاف لا بد منه كى تمضي الحياة في طريقها، وكذلك منع الفوضى، عندما تشترجر الآراء، وتكثر وجهات النظر، وهنا تتدخل الدولة. فإذا رأى أبو حنيفة أن المسلم يقتل في الذمى، ورأى غيره أن المسلم يعزز وحسب، فلن تبقى القضية معلقة إلى الأبد. إن حكم القاضى أو رأى الوالى يجسم الأمر. وكذلك إذا رأى ابن تيمية أن الطلاق البدعى لغو، ورأى غيره إمساوه، فإن الدولة لن تترك هذا الخلاف نظرياً إلى الأبد، فإن الأمر يتعلق ببقاء الأسرة، وصحة النسب، واستئناف العشرة، ولها أن ترفع هذا الخلاف، وأن تقر هذا الطلاق في سجلاتها أو تحوه وينتهي الأمر .

إن هذا التدخل كان الحل الممكن، ولكنه في نظرنا لم يكن الحل الأمثل .

وسير تاريخنا العلمي والتشريعى في هذا المجرى سببه الانفصال المبكر بين العلم والحكم في تاريخنا السياسي، فلم يكن الخلفاء ولا نوابهم مجتهدين ولا راسخى القدم في الثقافة الإسلامية، ونشأت عن هذا أمور تستحق التأمل .

توزعت المذاهب الشهيرة أقطار المسلمين ضربة لازب، فأصبح هذا القطر حنفياً

والآخر مالكيا . . إلخ ، وحسب الدهماء أن ذلك النسب دين ، وهذا وهم كبير . .  
هذا الارتباط بين قطر ما ، وفقه ما ، حرم المسلمين فيه من أحكام قد تكون أرقق ، أو  
أرشد مما ألفت . .

### اقتراح بتأليف لجنة للنظر في التراث الفقهي:

والواجب أن يكون الفقه - من منابعه الأولى - بين يدي الدولة ، وأن تكون المذاهب السابقة تجارة محترمة لأهل الذكر ، وللدولة أن تختار رأيا وتوخِّر غيره ، وأن ترجم تجربة على تجربة . وقرأت كلاما حسنا للشيخ محمد عيد عباس اقترح فيه تأليف لجنة علمية تدير النظر في تراثنا الفقهي كله على أساس:

- أ - تقرير الأحكام المتفق عليها بين فقهاء الإسلام ، أى التي لم يُثُر حولها الخلاف .
- ب - في المسائل المختلف عليها اختلاف نوع ، يؤخذ بجميع الآراء ما دامت ثابتة في الشريعة ، ولا معنى للاقتصار على واحد منها ، ومخاصة غيره .
- ج - في المسائل المختلف عليها اختلاف تضاد ، ينظر في دليل كل مذهب ، ويؤخذ بأقوى الآراء وأرجحها دون تعصب لمذهب .
- د - في المسائل التي يصعب ترجيح رأى من الآراء فيها ، وتساوي أدلةها في القوة ، يجوز الأخذ بأى منها ، ويحسن تقديم ما يحقق مصلحة عامة للمسلمين .
- ه - يترك من الآراء ما ظهر بطلانه أو ضعفه .  
ويسمى هذا المذهب مذهب الكتاب والسنّة وجميع الأئمة .

إن هذا الكلام في جملته حسن ، وهو يتسم بالإنصاف والإخلاص ، وكان المفترض أن يستغل بهذا مجمع البحوث الإسلامية في القاهرة ، وغيره من المجامع الدينية في العواصم الكبرى .

إلا أننا نرى - مع هذا - أن الحصيلة النهائية لا تلزم مجتهدا بينه وبين ربه ، فإن الحقائق العلمية لا تصح أو تبطل بكثرة الأصوات .  
والمصلحة قد تتغير على امتداد الزمان والمكان ، والطبيعة النفسية للمجتهد لا يمكن تغييرها .

ما الحكم إذا تزوج رجل امرأة في أثناء العدة؟ العقد باطل ، ويفرق بينهما فورا .

فإذا انتهت العدة، فما الرأى؟ الفقهاء على أنه يعود خطابا مع الخطاب. ويرى عمر أنها تحرم عليه أبدا لأنه تعجل ما لا يحل له!!

طبيعة الصرامة في نفس الرجل جعلته يحمي حدود الله بهذا التحريم !! هو رأيه . إننا مانزال نرى أن الخلاف المذهبى لا بد منه ، ولكن التعصب للمذهب والارتباط به على أنه هو الدين شيء لا معنى له ، ولا تسليم به .

وننظر الآن إلى واقع المسلمين وصلتهم بشتى المذاهب .

يعد المذهب الحنفى أقل المذاهب اتباعا في العالم الإسلامي ، ربما لم تزد نسبة معتنقيه على نصف في المائة ، وقد اعتذر شاعرهم عن ذلك بأبيات رقيقة .

يقولون لي: قد قلَّ مذهب أَحْمَد وكل قليل في الأئمَّة ضئيل

فقلت لهم: مهلاً غلطتم بزعمكم ألم تعلموا أنَّ الْكَرَامَ قَلِيل؟!

وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز، وجار الأكثرين ذليل

وأغلب الحنابلة الآن في نجد والمحجاز ، وقد كانوا في القرن الرابع يكترون في بغداد . قال ابن الأثير : «استفحلا أمرهم بها سنة ٣٢٣ وقويت شوكتهم ، وصاروا يكسبون دور القواد وال العامة ، وإن وجدوا نبيذا أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلات الغناء ، واعتراضوا - ما لا يقرؤن - من أنواع البيع والشراء كما اعترضوا مشى الرجال مع النساء والصبيان . وإذا رأبهم شيء من أحد سأله عن الذي معه : ما هو؟ فأخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة ».

قال ابن الأثير : «... . وزاد شرهم وفتنتهم ، واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأولون إلى المساجد ، فكان إذا مربهم شافعى المذهب أغرروا به أولئك العميان فيضربونه بعصيهم حتى كاد يموت ». قال أَحْمَدْ تِيمُورْ باشا - وعنه هذا النقل - : ولا ريب أن إثارة هذه الفتنة لم تكن إلا من عصبية عامتهم وغوغائهم .

وهذا صحيح، فإن أَحْمَدْ رضى الله عنه كان تلميذا للشافعى رضى الله عنه، وعندما علم أَحْمَدْ بوفاة أستاده حزن أشد الحزن وقال عنه: كان كالشمس للدنيا والعافية للبدن.

وتنتشر المذاهب الثلاثة الباقيه بنسب متقاربة بين جماهير المسلمين ، ويغلب المذهب المالكي على شمالي إفريقيا وغربيها ووسطها ، ويغلب المذهب الشافعى على جنوبى آسيا من إندونيسيا حتى اليمن ، ويغلب المذهب الحنفى على أقطار آسيا الوسطى حتى تركيا ، وللمذاهب الثلاثة أتباع كثري في مصر والشام وغيرهما .

## السياسة والمذاهب الفقهية:

وقد احتكر الأحناف أعصاراً طويلاً القضاة في ظل الدولتين العباسية والعثمانية.

وحدث أن القادر بالله أحد الخلفاء العباسيين نقل القضاة إلى فقيه شافعى فوقعت الفتنة في بغداد، واضطربت فيها الأمور، واستغرب الناس عدول أمير المؤمنين عما كان عليه أسلافه من إثارة الحنفية وتقليلهم - أى المناصب - واستعمالهم - أى إسناد الأعمال إليهم - واضطرب الخليفة إلى جمع الأشراف والقضاة، وأعلن عزل القاضى الشافعى. وأعاد الأمر إلى حقه وأجرأه على قديم رسمه - هكذا يقول المقرىزى - وحمل الحنفية على ما كانوا عليه من العناية والكرامة والحرمة والإعزاز.

والغريب في هذه القصة أن الحنفية عاملوا من تسبب في نقل القضاة عنهم معاملة شاذة، لم يقضوا له حقه ولم يردوا عليه سلاماً.

وهذا عمل محقوق وخلق منكور! ترى هل الحنفية بهذا الحرص على القضاة يتأنسون بإمامهم الذى مات في السجن كارها أن يتولى القضاة لنظام سياسى ينحرف عنه ويضيق برجاله؟!

أم هي الدنيا وزخرفتها؟ أم هو التعصب لنوع من الفكر أو نهج من الحياة يراد تغليبه على أية حال؟

إن الأحزاب السياسية قد تفرح لتوليتها الحكم، وفرض مبادئها على المجتمع، غير أن ذلك لا يعني إحراج المعارضة وانتقاد حقها، وكف السلام عنها.

في كثير من الأحيان لاحظ أن التعصب يوحى بتصرفات عشوائية، وقد رأيت عشاق الأندية الرياضية يتلهجون أو يكتئبون لنتائج مبارياتهم، فأبحث عن علة عقلية وراء هذه المشاعر فلا أجد.

هل تنتقل البلاهة من عالم كرة القدم إلى عالم الفقه والتشريع؟  
الذى أراه أن التعصب المذهبى مرض نفسي أو أنانية خاصة أكثر مما هو حماسة دينية ومصلحة عامة.

في القرن الخامس تولى إمارة المؤمنين بالمغرب والأندلس على بن يوسف بن تاشفين، وكان الرجل تقى متھمساً، اشتد إثارة لأهل الفقه والتقوى، فكان لا يقطع دونهم أمراً، وبسط نفوذهم في دولته، فجعل مشاورة الفقهاء طابعاً عاماً.

وألزم القضاة ألا يبتوا حكمماً في صغير الأمور وكبيرها إلا بمحضر أربعة من الفقهاء.

ولم يكن يقرب منه ويحظى عنده إلا من علم مذهب مالك، فنفت في زمانه كتب المذهب، وعمل بمقتضاه، ونبذ ما سواها. قال المراكشي في كتابه المعجب: «كثر ذلك حتى نسى النظر في كتاب الله وسنة رسوله فلم يكن أحد يعتنی بهما كل الاعتناء».

وهذا أيضا من المناكير البالغة! وأول ما نسأل عنه: هل يتبع أولئك مالكارضي الله عنه الذي أبى حمل الناس على كتابه الموطأ، احتراما لما قد يكون بين يديهم من علم عن أصحاب رسول الله صلوات الله عليه وسلم لم يبلغه في المدينة.

ما معنى نسيان النظر في الكتاب والسنة وإدمان النظر في آراء الرجال؟ إن تاريخنا العلمي كان في القاع عندما وصل إلى هذه المرحلة.

شرف الفقه هو في انتمامه إلى كلام الله ورسوله. وإذا وهت صلة الفقه بالكتاب والسنة فإن أحکامه ستكون سوادا في بياض. إنها ستكون كورق النقد الذي لا رصيد له.

والواقع أن عددا كبيرا من الفقهاء المتأخرین حشو مؤلفاتهم بنظرات غير سديدة وأقوال غير مفيدة بل تصور بعضهم أمورا مستحيلة ووضع لها باسم الله أحکاما، وهي لا تزيد في قيمتها المعنوية عن خيالات ألف ليلة وليلة.

ومن المستيقن أن أئمة المذاهب أبرياء من هذا اللغو، بل إن الرجال المعذبون في كل المذاهب يستعلون على هذه الهنات.

ومهما تجاوزنا ما ورد في بعض المؤلفات المتأخرة فسيبقى البوء واضحا بين الفقهاء الأوائل والمتأخرین. ولما كانت هناك حركة لإحياء الفقه الإسلامي، وجب استلفات الأنظار إلى أن الاستمداد والتأسی يكونان من رجالنا الأولين لا من أصحاب المدون والشرح أيام الجمود والاضمحلال.

أخشى أن يكون ما ألمعت إليه من صور التعصب الكريه سببا في أن يقول قائل: هذه ثمرات الاجتهاد الفقهي والتشعب المذهبی. فلنلتف هذه المذاهب كلها، ولنستريح من الانتماء إليها.

## الاجتهاد ضرورة إسلامية وإنسانية:

إن اختلاف وجهات النظر في التشريعات الفرعية حقيقة إنسانية وإسلامية لا محيد عنها، ونشوء مدارس كبرى وصغرى على محاور قانونية مختلفة أمر لا غضاضة فيه ولا شر منه.

ولو أن القرآن نزل أمس وبعث الرسول ﷺ به منذ البارحة لما كان هناك بد من تفاوت الأنظار في أحكام الوضوء والصلاحة لأن ذلك أمر طبيعي كما شرحتنا.

إن المخوف هو التعصب البليد، والتحزب السيئ، وتحول الحرية الفكرية إلى فوضى واسعة، وذاك ما حدث للأسف، وما جعل العلماء يتوجهون إلى إغلاق أبواب الاجتهاد، وضييق الأفهام الكثيرة في مذاهب أربعة. وعلاج الحرية الواسعة يكون بتنظيمها لا بمصادرتها.

وقد كنت - أول أمري - لا أرى حرجا من إغلاق باب الاجتهاد في فقه العبادات وحده، وقلت: تكفى بعض صور ما استراح إليه الأئمة، ولا حاجة إلى ما وراءها ولو كان مقبولاً. إذا كان للأئم عشرون اسماء فما جدوى معرفتها كلها؟ تكفينى عدة أسماء!

وإذا كانت وجوه القراءة للكتاب العزيز سبعاً أو عشرة فلم أجهد نفسي في استيعابها؟ تكفينى قراءة واحدة.

إن التوسيع في هذا المجال ربما كان شغل الإخصائيين، أما الجماهير فينبغى أن تزداد عنه وأن تساق إلى ميادين الكدح وسباق الحياة المدنية العارم، فإن تخلفنا في هذا المجال أزرى بنا - هكذا كنت أحدث نفسي - ورأيت في تركات الأئمة من الأقوال ما يكفى ويشفى، دون التعصب لمذهب معين.

أما فقه المعاملات الذي جمد - وهذه مصيبة - من عشرة قرون، فإن تجميده عجز في دنيا الناس وقصور في دين الله على سواء.

والضرورات صارخة بأن الإسلام يحتاج اليوم إلى جهود ذكية دءوب في الفقه الدولي والفقه الدستوري والفقه الإداري، وإلى ملاحقة ما تجدد في عالم المال والتجارة وشئون العمل والعمال. . الخ.

وقد تغيبت لأن بعض المنسبين إلى العلم الديني حاول الاجتهاد، فذهب إلى دورات المياه ودور العبادة، يستعرض عضلاته العلمية هناك . . مسكينة أمتنا.

إن الاجتهاد في بعض الأحكام العبادية ممكن. وقد صررت إلى هذا الرأى بعدما قرأت رسالة للفقيه المعاصر الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود عنوانها «جواز الإحرام من جدة لركاب الطائرات والسفن البحرية»، والعنوان يشير إلى الموضوع، فإن مواقف الحج حدتها السنة، وقد جد في عالم المواصلات ما لا معنى للتغابي عنه.

وال المسلمين يعمرون قارتين كبيرتين ويتشارون في بقية القارات، وبينهم وبين البيت

العتيق أقطار فيح، ومساحات هائلة، فماذا يصنع حجيجهم الوافدون من المشارق والمغارب على متون الطائرات، وظهور السفن، وهم لا يرون بهذه المواقف؟

يقول الشيخ الجليل :

والحكم يدور مع علته، ولكل حادث حديث، ولن يعجز الفقه الإسلامي الصحيح الواسع الأفق عن إخراج حكم صحيح، في تعين ميقات يعترف به لحج هؤلاء القادمين على متون الطائرات لكون شريعة الإسلام كفيلة بحل مشاكل العالم ما وقع في هذا الزمان، وما سيقع بعد أعوام.

وتحاجة تعين ميقات في جدة للقادمين على الطائرات، أكد من هذا كله. ولو كان رسول الله ﷺ حياً ويرى كثرة النازلين من أجواء السماء إلى ساحة جدة، يؤمنون هذا البيت لحج والعمرة لبادر إلى تعين ميقات لهم من جدة نفسها، لكون ذلك من مقتضى أصوله ونصوصه.

والحكمة في وضع المواقف موضعها، أنها جعلت بمسالك الناس إلى مكة، فهي كالأبواب إلى أم القرى وفيها ي عمل الحاج عمله في تنظيم دخوله في إحرامه، وما يتبع ذلك من التنظيف والاغتسال وتقليم الأظافر، والطيب، ثم التخلى عن المخيط، ولبس الإحرام المشبه بالأكفان إزاراً أو رداءً ثم تعليم العوام كيفية الدخول في النسك.

وهذه الأعمال تتطلب وقتاً ومكاناً، فشرع تعين المواقف لها. أما علمتم أن النبي ﷺ في حجة الوداع نزل بذى الحليفة ميقات أهل المدينة، ضحى، فأقام بها يومه وليلته وبعض اليوم الثانى، بحيث صلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم رقد تلك الليلة حتى صلى الصبح، فلما أضحم من اليوم الثانى اغتسل وتطيب.

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - في كتابه «إعلام الموقعين» : «فصل في تغير الفتوى واختلافها، بحسب تغير الأزمنة والأمكنة، والأحوال والنيات، والعوائد»، قال : «وهذا فصل عظيم النفع جداً وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة، وتکلیف ما لا يطاق، مما يعلم أن الشريعة الباهرة لا تأتى به، لأن الشريعة مبناتها على الحكمة والمصلحة للعباد في المعاش والمعاد، وهي عدل ورحمة ومصالح، وكل ما خرج عن العدل والرحمة والمصلحة فليس من الشريعة وإن نسب إليها» انتهى .

وقد يظن بعض من يسمع هذا الكلام أن العلامة ابن القيم يقول بجواز تغير نصوص الدين وأصوله كما سبق إليه بعض الناس . . . كلا .

إنما يعني به: تغير الفتوى في فروع الفقه، مما وقع فيه التسهيل والتسهيل في الشريعة نفسها، مما جعل عليكم في الدين من حرج، وذلك ما وقع من النبي ﷺ في بعض الصور.

من ذلك: ما روى الإمام أحمد وأبو داود، والدارقطني، عن عمرو بن العاص، أنه احتلم في ليلة باردة شديدة البرد في غزوة ذات السلاسل، قال فأشفقت إن اغسلت أن أهلك، فتيممت، وصلت بأصحابي صلاة الصبح، فلما قدمنا على رسوله ﷺ ذكر له أصحابي ما صنعت، فقال لي: يا عمرو أصلت بأصحابك وأنت جنب؟ قلت: نعم يا رسول الله، ذكرت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾<sup>(1)</sup> فتيممت وصلت. فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً، مما يدل على إقراره بهذه السنة بمقتضى سكوته عنها، وهي حقيقة في تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والأحوال، إن الأصل: وجوب الغسل لواجد الماء.

ومثله ما روى النسائي، وأبي ماجة، أن سعد بن عبدة ذكر لرسول الله ﷺ روايلاً ضعيفاً في أبياتهم زنا بامرأة، فقال رسول الله ﷺ: «اضربوه حده». فقال سعد: إنه أضعف من ذلك. فقال: خذوا عشكلاً فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة واحدة»، ففعلوا.

فقد عرف كيف تغيرت فتوى رسول الله ﷺ في هذا من حالة الشدة إلى حالة التيسير، إذ الأصل في جلد الخد، تفريق الضربات حتى تأخذ كل ضربة مكانها من جسده.

ونظراً لضعف حاله، جعلها رسول الله ﷺ جلدة واحدة بعشكلاً فيه مائة شمراخ.

وله نظائر كثيرة. وقد أفتى الصحابة بجواز فطر الحامل والمرضع متى خافت على أنفسهما، أو على ولديهما، وليس كل حامل أو مرضع تُفتى بهذا.

وهذا هو عين الفقه، لو حكم بموجبه قاض لرموه بالتشنيع والزراية ونفيه إلى عدم الرواية والدراءة. والشيخ عبدالله بن زيد آل محمود رجل ثاقب الفكر يبحث عن الحق بإخلاص، ويستعين على معرفته بثروة طائلة من الخبرة بكتب الأولين، فإذا اهتدى إلى حكم ينفع الأمة جهر به دون وجح وجادل عنه بأصالة. وقد قرأت له جملة من الرسائل التي تعرض الفقه الإسلامي عرضاً يناسب العصر، لا استرضاء للمعاصرين، ولكنها رحابة أفق في فهم الدين...!

(1) سورة النساء: ٢٩.

أما الاجتهداد في آفاق المعاملات، فكما أسلفنا القول هو ضرورة إسلامية وإنسانية. ولن نملك زمام الحياة العامة، ولن ثبت صلاحيتنا للقيادة وصلاحية ديننا لنفع العالم إلا إذا أجدنا في هذه المجالات، وبهمنا العيون في النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ومن قبل ذلك وبعده في النواحي العبادية.. .

ومع الاجتهداد الفقهي لا بد من المواقف والمخالفات بين المجتهددين، فإذا توافقنا فيها ونعمت، وإذا تختلفنا فيما اتفقنا عليه وعذر بعضنا ببعض فيما اختلفنا فيه.. .

إن الخلاف لا يفسد للود قضية، ولا يقطع وشيعة، وجعل ما رأيت من شقاق يعود إلى أمراض نفسية كامنة، وسنرى أن الشهوات الأدبية أخطر وأعنف من الشهوات المادية.. .

إن التقوى تقوم على أمرين: عدم الطغيان وإيثار الآخرة من ناحية، وخشية الله ومجاهدة النفس من ناحية أخرى... وهذا معنى قوله تعالى: «فَإِمَّا مَنْ طَغَىٰ وَأَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا۝ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى۝ وَإِمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىَ النَّفْسَ عَنِ الْهُوَى۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى۝»<sup>(١)</sup>.

وقد رأيت ناساً يشتغلون بالتعليم والدعوة - وأعوذ بالله أن أكون منهم - يمضون في ميدان التدين فاقدين هاتين الناحيتين، وهم على استعداد لإشعال نار الخلاف والفرقة على نحو يأكل الأمة الإسلامية أكلاً وي يكن أعداءها من خنائقها. وما السبب في هذا؟

قضايا فرعية يعلو فيها الصياح، وعلاجها الطبيعي يتم بالهمس والتراث !

وذلك طبعاً إلى جوار المعرفة القاصرة، وحفظ شيء ونسيان أشياء، والاغترار بالقليل الموجود والاستخفاف بالكثير المفقود.

ويستحيل أن تدخل هذه الخلل في جو فقهى إلا أفسدته، ثم ارتدت التائج على أمتنا بلاء وضياعاً... .

---

(١) النازعات: ٤١ - ٣٧.

## الخلافات الموروثة .. قيمتها وأثرها

تسللت إلى ميدان العقيدة والعبادة قضايا طفيلية ما أنزل الله بها من سلطان ، ومع خفة وزنها العلمي فقد انشغل بها العقل الإسلامي طويلا ، وتركت ذيولا أطول في تفريق الكلمة وتباعد القلوب ..

إن تصور فكرة ما على أنها من جملة العقائد شيء خطير .. لماذا؟ لأن جحد العقيدة الحقة جريمة أفح من جريمة الخيانة العظمى ، فالذى ينكر الألوهية لا يقوم له عمل ، ولا تثبت له وجاهة ! مثل - بل أشد - من يخون وطنه وقومه ..

إننا نرفض الاعتراف بأى فضل لمن يقترف جريمة الخيانة الوطنية ، وتطوى صفحته طيا حافلا بالإذراء والمهانة ..

كذلك نظر - نحن المؤمنين - إلى المحمد الذى ينكر ربه ..

إن إنكاره هذا يطيش بميزانه فى الحياة والموت ، فما نرفع له قدرًا ولا نثبت له أجرا ، مهما عمل .. (إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)<sup>(١)</sup> ، (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منشوراً)<sup>(٢)</sup> .

وقد نقدم على القائد الذى خان ، جنديا صغيراً أمينا ونعرف له شرفه ووفائه .

من هنا تجيء خطورة القضايا المتطفلة التى حشرت نفسها فى مجال العقيدة ، وما هي من العقيدة فى قليل ولا كثير .

فإن اعتناق هذه القضايا على أنها عقائد مكينة يرفع خسيسة أناس صغار ، ويرجح كفتهم مع فراغها من الصالحات .

تصور أن إنسانا ما يدرس فى كتب العقائد أن الحرام رزق وأن الجنة والنار مخلوقتان الآن ، فيظن ذلك من عناصر الإيمان ومبانى العقيدة ، فيطوى فؤاده على هذه الحقائق ،

(١) النساء : ٤٨ .

(٢) الفرقان : ٢٣ .

ويحسب بذلك أنه استكمل دينه . . ثم . . يفرط في كثير من الصالحات ويستهين بكثير من الفضائل لأنها - في الوزن - دون ما اعتقده، ولأن إهمالها لا يضره ضررا بالغا بعد ما جمع معاقد الإيمان من هذه القضايا الطفيلية وأضرابها . .

رأيت ناسا يعتقدون أنه لا مجاز في اللغة العربية كلها، ويررون ذلك من «السلفية»! وأخرين ينكرون دوران الأرض ويررون ذلك من التقوى والتحفظ! ورأيتهم بهذه المعتقدات السخيفة يفضلون أنفسهم على طوائف من المجاهدين والمتقين . .

وبديه أن أصل الإيمان وفرعه بريئان من هذا الشرود، وأن القضايا الطفيلية التي تقرأ في كتب العقائد - أو يختلفها الآن بعض السخفاء - لا يجوز الاعتداد بها أو جعلها مناط تقديم وتأخير .

قرأت رسالة لأستاذ كبير في الجامعية الإسلامية بالمدينة المنورة . .

وموضوع الرسالة أن أبا الحسن الأشعري رجع إلى مذهب السلف في قضايا العقيدة، وترك منهج التأويل . .

والارتباط بالسلف هدف المصلحين في عصرنا، لأن آباءنا الكبار امتلكوا زمام العالم بجدارة، وكان ارتقاوهم العقلى والأدبى والتشريعى والسياسى هو الذى منحهم الصدار، فكيف يجدد الأبناء مسيرة الآباء؟ إنه بداعه بالعودة إلى منهاج السلف .

### **السلفية في إطارها الصحيح:**

لكن ما يسمى الآن سلفية ويقترح سبيلا للعودة شيء غريب حقا، لأنه يتضمن جملة ضخمة من القضايا الطفيلية التي كان ينبغي أن تموت مكانتها، ولا تكلف الأجيال بدراستها..

وإذا جاز تناولها بالشرح فبين بعض الإخصائين، أو عند شرح طائفة من الأحاديث المروية، أو عند ذكر الأقوال في تفسير آية من الآيات.

أما إيهام الجماهير بأن هذه القضايا عقائد من صلب الإيمان، وأن تجاوزها خروج على الدين، فذلك باطل.

ولو مات المسلم وهو لم يدر من هذه القضايا حرفا ما حاسبه الله على شيء.

ما الذى فعله أبو الحسن الأشعري حتى تاب من عوجه وصار سلفيا؟ قال مؤلف الرسالة: إنه آمن بأن الدعاء لموته المسلمين والصدقة عنهم - بعد موتهم - تصalan إليهم .

وأن الساحر كافر كما قال الله تعالى (!) وأن السحر كائن موجود في الدنيا .  
ويり الصلاة على كل من مات من أهل القبلة برههم وفاجرهم ، وتنقل المواريث  
بينهم .

وأن من مات مات بأجله ، وكذلك من قتل قتل بأجله .  
وأن الأرزاق من قبل الله تعالى ، حراماً كانت أم حلالاً .

وأن الشيطان يوسم للإنسان ويشككه ويتخبطه .

وأن الصالحين قد يجوز أن يخصهم الله بآيات تظهر عليهم .

وأن السنة لا تنسخ بالقرآن «كذا». ثم قال في الهاشم: يعني أن القرآن لا ينسخ  
السنة إلا مع سنة !

وأن الأطفال الموتى أمرهم إلى الله ، إن شاء عذبهم وإن شاء فعل بهم ما أراد . . .  
الخ .

إن الأشعري كان زائغاً حتى اعتنق هذه الأفكار . .

وقد تدبّرت هذه الكلمات ثم حكمت بأنها بعيدة عن ميدان العقيدة . ربما تضمن  
بعضها أحكاماً فرعية كثُر فيها القيل والقال ، وربما كان بعضها خطأً محضاً ، وربما  
تساوى السلب والإيجاب في أغلبها . .

ونحن نعرف أن القرآن الكريم نسخ بعض السنن كما حدث في عهد الحديبية ، إذ  
تنزل الوحي بعدم رد النساء المهاجرات . بل إن الاتجاه إلى الكعبة المشرفة تم بقرآن نسخ  
السنة العملية .

ومع ذلك فإن العبارات المقلولة توهّم أن القرآن وحده أعجز من أن ينسخ سنة ،  
وهذا شيء عجيب . .

والموضوع كله من مباحث علم أصول الفقه ، فكيف ينقل رأى أصولى مرجوح أو  
مرفوض إلى شعب الإيمان وأصول الدين ؟ ! . .

إن السلفية عودة إلى الإيمان السهل السائغ بعيد عن التقدّر ، البريء من المماحكات ،  
وليس السلفية قنطرة لترويج بعض الآراء أو حبالة ينصبها البه في المجتمع لاصطياد  
الأغراط .

\* \* \*

## فرق ضاللة:

في الأمة الإسلامية الآن فرق تذكرنا بمذاهب الباطنية وفلسفاتها الدخيلة التي نجحت قبل ألف عام. هناك النصيرية، والدروز، والإسماعيلية - الأغاخانية - وأمثال أولئك جميعاً من يتّمون إلى الإسلام انتماء غامضاً.

وقد يزعمون أنهم سلمون شيعة! بيد أن جماهير الشيعة ترفضهم وتسنكر لهم . . . إنهم سلالات باطنية تلبس الإسلام على خليط من الأفكار التي لا سند لها، وهم في نظرى ضحايا الإهمال الغريب من الدولة والأمة معاً . .

لماذا تمر القرون الطوال وهم لا يرون دار الإسلام على هذا النحو المتواتر؟

أكثر من ألف عام والحكم الإسلامي غير مكترث بالتجميد الأدبي لآلوف مؤلفة من الناس تعيش في صميمه لا هم منه ولا هم من عدوه . . . !!

إن هذا الخطأ لابد أن يوضع له حد، ولا بد من التعفية على آثاره . !

ولدت الباطنية ونمّت في الفراغ الحقيقي الذي كان موجوداً بين الحكام والشعوب. أغلب الحكام كان جائراً جاهلاً، وإن لم يبرد الخلافة أو لا ذنب يلبس هذا البرد . . .

وتعلقت القلوب بمنقذ، من آل البيت، ينسخ الجور ويؤنس المستوحشين .

وحوّل هذا الأمل الحبيب تكونت في الظلام عصابات، لم تجد لها في وضح النهار مكاناً .

وحوّل قليل من الحق تكونت مذاهب مستوردة من الهندوكية والمجوسية واليونانية وغيرها، فكان التفكير الباطني وكانت شعبه العديدة.

نصوص من القرآن يتم تفريغها من محتواها الصحيح لتحل محله أوهام المستغلين وخيالات ما أنزل الله بها من سلطان . . .

وأتسعت دائرة المخدوعين المستغلين وخصوصاً في القرنين الثالث والرابع . وبلغ من سطوة الباطنية أن إحدى فرقهم انتزعت الحجر الأسود من مكانه في الكعبة المشرفة، فلم يعد إلا بعد نيف وعشرين سنة بشفاعة فرقة أخرى . . .

وإذا كان ذلك عجيباً فإن رد الفعل أ عجب لدى الحاكمين والمحكومين على سواء .

ولقد استيقنت - وأنا أقرأ هذه الصحف السود - أن نظام الحكم من قديم كان القشرة العفنة في كياننا كله .

ولقد نهض عدد كبير من العلماء بحضور الفكر الباطني وفضح خرافاته حتى انصرف عنه جمهور العقلاء، وانكسرت حدته السياسية انكساراً تاماً.

لكن حكام المسلمين - في غياب وعيهم الفكري - لم يكملوا ما بدأه العلماء المجاهدون، بل لقد خيل إلى أنهم جمدوا - عن عمد - بقايا الباطنية، مع أن قضيائهما أمست بلا موضوع.

ووجه جمهور المتسبين إلى هذه الفرق انقطاع عن الماء الذي كانت تتدفق في القديم، وبقيت نسبة إلى الإسلام أبرز في وعيه من النسبة إلى أفكار أخرى . . .

والخطوة التالية والواجبة أن يستلحق الكيان الإسلامي الكبير هذه الطوائف التي اقتطعت منه لظروف مؤسفة، يستطيع بالتعليم الموصول والإعلام الدائم أن يجعل رأية الكتاب والسنّة ترفرف عليها وعلى جميع المسلمين . . .

نعم، فليس لهذه الطوائف دين تنتسب إليه إلا الإسلام - كما يقولون - وليس لها فلسفات عقلية أو اجتماعية تمثل مذهبها مستقلاً في الحياة، وربما كانت الروابط التي تمسك أبناءها روابط قبلية، أو عصابات جنسية . . .

وخطأ الجماعة الإسلامية في الحفاظ على كيانها الكبير لا يجوز أن يستمر بعد اليوم . . .

لقد دخل الصليبيون الأندلس فلم يبقوا فيه إلا مذهب واحد هو «الكثلكة» . . .

وسيطر الإسلام على ما يسمى الآن «الشرق الأوسط» وبقى فيه أربعة عشر قرناً، ومع ذلك فإن الطوائف الكثيرة لاتزال تكون فيه عصبة أمة . . ! !

ربما كان ذلك شاهداً على ما انفرد به الإسلام من سماحة مستغربة في التاريخ البشري الحافل بفنون التعصب . . .

ولكن هذه السماحة لا يسوغ أن تتحول إلى فتوق تأتي عليه من القواعد، وتأذن للخيانات والمخادعات أن تناول منه .

وعلى الجماعة الإسلامية أن تدافع عن وجودها بالوسائل العادية التي فاتتها من قديم، أى أن عليها تذويب هذه الفرق كلها في الكيان العام .

## الشيعة وأهل السنة:

من الخلافات الموروثة، ما بين الشيعة وأهل السنة من فجوات، ملأتها الدماء في بحر الأكشار!! وزادها البهت والافتراء بين الحين والحين.. ! وما أنكر أن أسباباً علمية وساطنية تخفي أو تظهر وراء هذا الخلاف.. بيد أن لسياسة ومطالب الحكام أسباباً أخرى وأخرى.

وقد تحدثت في كتب أخرى عن حقيقة ما بين الفريقين من الناحية العلمية، ولا مجال هنا لتفصيل أو زيادة..

وأعترف بأن لي أصدقاء من الشيعة أعزهم وأحبهم.

ومن أجل ذلك أعرض هذه المبادئ لدفع الأمور إلى طريق التصالح والإخاء:

أ - يتفق الفريقان في مؤتمر جامع على أن القرآن الكريم هو كتاب الإسلام المصنون الخالد، والمصدر الأول للتشريع، وأن الله حفظه من الزيادة والنقص وكل أنواع التحرير، وأن ما يتلى الآن هو ما كان يتلوه النبي ﷺ على أصحابه، وأنه ليس هناك في تاريخ الإسلام كله غير هذا المصحف الشريف.

ب - السنة هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم، والرسول أسوة حسنة لأتباعه إلى قيام الساعة، والاختلاف في ثبوت سنة ما أو عدم ثبوتها مسألة فرعية.

ج - ما وقع من خلاف بين القرن الأول يدرس في إطار البحث العلمي والعبرة التاريخية، ولا يسمح بامتداده إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم، بل يحمد من الناحية العملية تجميداً تماماً، ويترك حسابه إلى الله وفق الآية الكريمة: «تَلَكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ»<sup>(11)</sup>.

د - يواجه المسلمون جميعاً مستقبلهم على أساس من دعم الأصول المشتركة - وهي كثيرة جداً - وعلى مرونة وتسامح في شتى الفروع الفقهية ووجهات النظر المذهبية الأخرى.

إنني لا أستطيع خلال سطور، أن أحل مشكلة تراخت عليها العصور، لكنني أستلتفت النظر إلى أن أوهاماً وأهواءً تملأ الجو بين الشيعة وجماعة المسلمين لا يسieux العقلاء بقاءها.

(11) البقرة: 134، 141.

ولو وضع كل شيء في حجمه الطبيعي، وأغلقت الأفواه التي تستمرى الوقوعة والإفك لتلاشت أنواع من الفرقة لا مساغ لوجودها.

وإنى إذ أرسل هذه الكلمات إلى إخوانى في كل قطر، أستشعر الخطر الذى يكتشف المسلمين هنا وهناك، وكثافة القوى التي تجتمع في هذه الأيام للإجهاز عليهم واستئصال شأفتهم.

لقد اتفقت أحزاب أهل الكتاب وأحزاب الوثنية، وأحزاب الماديين، جمیعا على استئصال شأفتنا فإلى متى نتفرق؟

لماذا يتبع أتباع المذاهب الفرعية؟

لماذا تجتر خلافات بين السلف وتمنح القدرة على الحياة والأذى؟

في سبيل وحدة الأمة على الحق لا على الهوى، ودفعا على الصراط المستقيم.

قال الإمام الشهيد<sup>(1)</sup>: «كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا الموصوم بِكُلِّ شَيْءٍ. وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقا للكتاب والسنّة قبلناه. وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع. ولكننا لا نعرض للأشخاص فيما اختلفوا فيه بطبعه أو تجريح، ونكلهم إلى نياتهم، وقد أفضوا إلى ما قدموا».

وقال: «لكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماما من أئمة الدين، ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلة إمامه، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صدق من أرشه وكتابته، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر»..

وقال: «الخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سببا في التفرق في الدين، ولا يؤدى إلى خصومة أو بغضاء، ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله، والتعاون على الوصول إلى الحقيقة، من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم أو التعصب».

وقال: «كل مسألة لا يبني عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعا. ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام التي لم تقع، والخوض في معانى الآيات القرآنية التي لم

---

(1) من الأصل السادس إلى الأصل العاشر من الأصول العشرين للإمام البنا رحمه الله.

يصل إليها العلم بعد، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم، وما جرى بينهم من خلاف، ولكل منهم فضل صحيته، وجزاء نيته، وفي التأويل مندوحة».

وقال، «معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام. وأيات الصفات وأحاديثها الصحيحة، وما يلحق بذلك من المتشابه، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء، ويسعننا ما وسع رسول الله وأصحابه **والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا**»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) آل عمران: ٧.

## معنى الابداع وأنواعه

الابداع في الدين نزعة تسيطر على نفر من المتدينين ، وتنزين لهم أن يخترعوا من عند أنفسهم أفعالا وأحوالا ثم يجعلوها ضمية أو جزءا من الدين الإلهي ويطلبون إلى الناس الأخذ بها ، كما يأخذون ما جاء من عند الله سواء بسواء .

وقد رفض الإسلام «الابداع» رفضا قاطعا للأسباب الآتية:

١ - إذا أقررنا هذه الضمية الجديدة إلى الدين ، ورأينا الدين الأصيل محتاجا إليها حقا ، فمعنى ذلك أن الله أنزل الدين ناقصا ، وهذا باطل . قال تعالى : «الْيَوْمَ أَكَمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمُ الْإِسْلَامُ دِيْنَكُمْ»<sup>(١)</sup> .

وقال رسول الله «إياكم ومحديث الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلاله»<sup>(٢)</sup> .

٢ - إقرار هذه الإضافات التي صنعها الناس يعني إعطاء البشر حق التشريع في العقائد والعبادات وما إليها . وهذا الحق انفرد به رب العالمين : «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءٌ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذِنْ بِهِ اللَّهُ»<sup>(٣)</sup> ؟ وفي القرآن الكريم حملات شداد على من يحلون ويحرمون وينسبون إلى الله ما لم يأذن به : «وَلَا تَقُولُوا مَا تَصْنَعُونَ إِنَّ اللَّهَ الْكَذَّابَ هَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذَّابَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذَّابَ لَا يَفْلُحُونَ مَتَّعْ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»<sup>(٤)</sup> .

والزيادات المخترعة مرفوضة سواء ابتدعها أفراد أو مجتمع ، إذ لا حق لأحد ابتداء أن ينشئ شريعة من عنده ، فإن ما ينشئه هو الهوى والضلال .

٣ - انشغال العقل الديني بالتحوير في الدين أضر إضراراً بالغاً بثئون الدنيا ، إذ إن

(١) المائدة: ٣.

(٢) مسلم.

(٣) الشورى: ٢١.

(٤) النحل: ١١٦، ١١٧.

المتدينين بددوا طاقتهم العقلية في اختراع ما لا قيمة له ولا خير فيه، والأصل في شئون الدين الاتباع وفي شئون الدنيا الابداع - لحديث أنتم أعلم بشئون دنياكم<sup>(١)</sup> - ولكن هؤلاء المخربين قلبو الآية فطوروا تعاليم الدين وجمدوا شئون الدنيا، وكان ذلك سببا في تخلف الأمم وضياع رشدتها .

٤ - التعليق بالبدع الحديثة يتم على حساب السنن الأصيلة نفسها، والذين يخترعون أشياء ليعبدوا الله بها يتحمسون لها وتكون أقرب إلى هواهم من التعاليم الثابتة عن الله ورسوله ، والجهد الذي يبذل في أداء هذه المبتدعات قلما تبقى معه طاقة للقيام بما أمر الله ورسوله ، فما تنهض ببدعة إلا على أنقاض ستة .

٥ - طبيعة الدين العموم، فقد وضع الدين كى يتنظم البشر كلهم، والأثر النفسي الخاص لتألف ما لا ينهض حجة لتعديمه، وأذكر أن أحد المتأدبين أراني صلوات على رسول الله كتبها واستجادها ورأى نشرها بين الجماهير ، فلما قرأتها رأيت فيها عاطفة حارة ، فقلت : عاطفة مقدورة ، ورأيت فيها جمالاً غامضةً ومتكلفةً فلم أقف عندها طويلاً ، وإنما قلت للمؤلف استيق ذلك كله لنفسك ولا تشغل به الناس . قال : كيف ؟ قلت : إن رسول الله ﷺ علم الناس كيف يصلون عليه في أحاديث صحيحة ، ونفذ المسلمون ذلك بعد تحييتم الله في كل قعود أخير من الصلوات الخمس ، فلا مكان بعد ذلك لما ألفت ! قال : إنه يترك أثراً حسناً في النفس . قلت : في نفسك أنت ، وليس من حرقك أن تكلف الناس بما استحسنت ووقتهم ملك الله أولاً ، وملكتهم هم أخيراً ، وليس لك أن تستغله في أمر من عند نفسك .

إن الصلاة الواردة لا تستغرق نصف دقيقة ينصرف الناس بعدها إلى معاشهم ومعادهم ، وإذا كان ما ألفته يعجبك فاقرأه وحدك ، ولكن لا تجعل قراءته فريضة ولا نافلة ، فإن الفرائض والنوافل وضع إلهي ولا مجال لبشر هنا أن يلزم أو يستحب ، فليس لأحد من خلق الله أن يقول لعباد الله : شرعت لكم كذا وكذا ، ضموه إلى صلواتكم وزكواتكم ليكون إلى الله قربى .

وما الفارق بين شخص يضع حدثاً وينسبه إلى رسول الله ، وآخر يضع مسلكاً أو تقليداً أو عملاً ما ثم يزعم أنه دين مستقيم وطريق إلى الآخرة ؟ كلاهما قد اقترف أقبح الكذب .

---

(١) مسلم .

## أخطاء نستلتفت النظر إليها ونحذر منها:

إن المتدينين عندما يهون إيمانهم ويذهب رشدهم يرتكبون واحداً من ثلاثة:

الأمر الأول: أن يعطوا النصوص ويميتوا أمر الله، وهذا عصيان جرىء.

الأمر الثاني: أن ينقلب ترتيب التكاليف في أذهانهم فيقدموا الصغير ويؤخرنما الكبير وتضطرب أوزان الأمور، فتراهم يتتجاهلون العظام ويتقعرون في التوافه، كهذا الذي سأله الحسن البصري عن الصلاة في قميص به دم البعض! فقال له الحسن: من أنت؟ قال: من العراق! قال: تسألون عن دم البعض، وتسألون دم ابن بنت رسول الله؟!

وقد صور أبو الطيب المتنبي هذا الواقع النفسي في فهم الدين بقوله:

أغية الدين أن تحفوا شواربكم! يا أمّةً ضحكت من جهلها الأمم!

وذلك في قوم يحسبون قمة الدين إزالة شعر واستبقاء شعر.

والأمر الثالث: أن يستحسنوا ويستقبحوا من عند أنفسهم لا من عند الله، ويختلقوا بدعى كثيرة في شؤون الدين وأصوله وفروعه، تعمل في الدين عمل السرطان في الجسم، ما تزال تنمو حتى تجهز عليه..

والابداع، وإن كان مرفوضاً جملة وتفصيلاً، إلا أنه متفاوت الخطير والضرر، إذ هو كالعصيان لا يقبل شيء منه أصلاً ولكن منه صغائر وكبائر، وللصغراء حكمها وللكبائر حكمها..

ومن هنا فالحرب التي توجه ضد البدع الصغيرة دون الحرب التي تعلن على البدع الكبيرة، والفرز من مرض كالزكام لا يبلغ.. الفزع من إحدى الحميات التي يغلى منها الدماغ.

وقد رأيت بعض المعينين بالسنة يسوى بين الأمرين، ويعامل المبتدع الصغير بنفس الشراسة التي يعامل بها المبتدع الكبير، متعللاً بالحديث «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»<sup>(١)</sup>.

قلت له: أرأيت قوله تعالى: «ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً»<sup>(٢)</sup>. إنني لا أستطيع تطبيق الآية على مترفى الصغار، وإن كانت لوناً من العصيان.

(١) مسلم.

(٢) الجن: ٢٣.

وإذا كانت البدع متفاوتة الشر فلنعرف أقسامها كما ذكرها العلماء حتى نحسن الخلاص منها بالتي هي أحسن ..

ونكتفى هنا بما تعم فيه البلوى . من البدع ما هو حقيقى ومنها ما هو إضافى :  
الأول مثل الطواف ببعض الأضرة على نحو ما يفعل الحجيج بالكعبة المشرفة .  
وظاهر أن جوهر هذه البدعة لا صلة له بالدين .

### **البدعة الإضافية:**

أما البدع الإضافية ، فهى أشياء دينية الأصل أتى بها على هيئة لم يقل بها الدين .  
قراءة آيات من سورة الكهف مثلاً حسن يوم الجمعة ، لكن جعل هذه القراءة من  
شعائر صلاة الجمعة ، وجمع الناس على سماع السورة أو بعضها قبل الصلاة لم يقع  
قط على عهد الرسول والسلف الأول .

ومثل تأليف أوراد خاصة لتلاؤتها فى أوقات معينة وبأعداد معينة .. بحجة أنها ذكر  
لله مثلاً أو صلاة على رسوله ..

### **البدع التركية:**

ومن البدع ما هو فعلى وتركي ، والقاعدة الكاشفة لذلك أن ما تركه النبي ﷺ مع  
وجود الداعى وانتفاء المانع ، فتركه سنة وفعله بيعة !!

كان الناس يموتون ، ولم يتجاوز الأمر عند موتهم الدفن بعد صلاة الجنازة ثم قبول  
العزاء على نحو عابر لا افتعال فيه .

وربما كلف جيران الميت بإعداد الطعام لأهله ، فإن مصابهم شغلهم عن إعداده  
لأنفسهم .

لكن مسلمى اليوم رأوا أن يجتمعوا عقب الوفاة فى أندية أو سرادقات يستمعون  
فيها إلى القرآن ، ويستقبلون فيها الوفود ، وتوزع فيها السجائر والأشربة ، ويتكلف فيها  
أهل الميت ما يبهظهم .

والجماهير ترى أن قراءة القرآن فى حشد يضم المعزين لا بد منه .

ولكن العلماء مجتمعون على أن الرسول وصحابته لم يفعلوا هذا مع وجود الداعى  
له وهو الموت وطلب الثواب وانتفاء المانع ، فالآمن مستقر والتجمع سهل . . .

وما دام الأمر كذلك فالترك سنة والفعل بدعة . وكم من أشياء لم يفعلها السلف الأول حرص المسلمون اليوم على إقامتها وإدامتها وكأنها دين ، بل قد تكون عندهم أهم وألزم من الدين الثابت الصحيح !!

والأستاذ حسن البنا رأى - فرارا من الاصطدام بحراس البدع الإضافية والتركية - أن يدخل الموضوع في دائرة الخلاف الفقهى : والخلاف الفقهى يتحمل وجهات النظر المتباعدة .

ومن ثم لم ير حرجا من ترك مؤذن يضم الصلاة على رسول الله إلى ألفاظ الأذان ! ولم ير حرجا من ترك الأسر الكبيرة والصغيرة تتكلف فوق طاقتها لأداء مراسيم التعزية المخترعة ..

والواقع أن صنيعه رضى الله عنه كان سياسة موقوتة لتجميع الأمة على أمهات الدين وقواعده المهددة ، فقبل المكروه اتقاء للحرام ، من باب ارتكاب أخف الضررين ..

والحق أن البدع صغراها وكبراها لا يمكن إقرارها . قال رسول الله ﷺ : «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد عليه»<sup>(1)</sup> ، وإن كان العلاج يحتاج إلى بصرة وأناء ..

إن شر هذه المحدثات بعيد المدى في المجتمع الإسلامي ، وأذكر أن موظفا في دائرة عملى كان يغله النوم أحيانا كثيرة ، وعرفت أنه ينتمي إلى إحدى الطرق الصوفية ، فطلبت منه أن يطلعنى على الورد المقرر ، فلما استبنته وجدته يفرض ترديد عدد من أسماء الله الحسنى ، وبعض الكلمات والأيات بما يبلغ مليون كلمة كل ليلة ، فعرفت سر نوم المسكين وأشفقت أن يفقد يوما ما عقله ..

وهذا الصنف من الناس يوشك أن يختفى لغلبة الحياة العصرية بصبغتها المعروفة ..

ولكن الذين يريدون الأوبة إلى الدين يجدون في طريقهم هذه الأوراد فينتقلون من ضلال إلى خيال ..

وفي ذلك يقول الإمام الشهيد:

« وكل بدعة في دين الله لا أصل لها: استحسنها الناس بأهوائهم - سواء بالزيادة فيه أو

(1) متفق عليه .

النفع منه - ضلاله تجحب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شر منها».

«والبدعة الإضافية والتركية والالتزام في العبادات المطلقة، خلاف فقهي لكل فيه رأيه، ولا يأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) الأصلان الحادى عشر والثانى عشر من الأصول العشرين للإمام الشهيد رحمه الله .

## الحب والبغض في الله ومعنى الولادة والسنّة في زيارة القبور وبساد المأجد

احترام العظماء واجب، ولا أعنى بالعظماء أصحاب الثروة ولا أصحاب السلطة، فهؤلاء فيهم من يوقدون فيهم من يحتقر! وإنما أعنى بالعظماء أصحاب العلم الغزير، والشمائل السنّية، واليقين الحى، والجهاد المخلص!

إنما أعنى الطلعان الإنسانية المعاجنة التي تلمح في صفوفها الأئمة والشهداء والمصلحين في صمت، والفنانين في طاعة الله، وقد يكونون أغنياء أو فقراء، مرضى أو أصحاب عسكريين أو مدنيين، حكام أو محكومين!

قد تكون فيهم الأم الحانية في سكينة الزوجة الوفية على استحياء..

إن الموهوب الربانية كثيرة بين العباد، واحترام هذه الموهوب وإجلال أصحابها دين.. والتنكر للسفالة ورفض مسالكهم والإذراء على أصحابهم واجب، ومهما كانت الظروف التي تحيط بهم، ود الواقع الرغبة والرهبة التي تبعث من قبلهم، فإن الانسياق معهم جرم، وإحسان الحديث عنهم زور..!

من طبائع الأشياء إذا ذقت ثمرة ناضجة أن تقول: هذه حلوة! وإذا ذقت حنطة قبيحة أن تقول: هذه مُرة..!!

وإذا حكم أمرؤ على الحلو بأنه مر ودعا إلى نبذه، أو بالعكس حكم على المر بأنه حلو ودعا إلى إساغته فهو مدلس مخرف!

يجب - باسم الله - أن يأخذ كل شيء قدره ووضعه! فالحب في الله والبغض في الله من الإيمان، «وليس منا من لم يوقد كيبرنا، ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه»<sup>(١)</sup>

وقد أثني رب العزة على الصالحين من خلقه، ونوه بأخلاقهم ومسالكهم: «واذكر

(١) الترمذى وأحمد وأبو داود.

في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ..<sup>(١)</sup> - (وذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً \* وكان يأمر أهله بالصلاحة والزكاة)<sup>(٢)</sup> ..

والثناء على الصالحين قانون مطرد توارثه الأجيال جيلاً بعد جيل ، وتخلد به تقوى العابدين ، وشجاعة الأبطال . قال الله تعالى عن «نوح» (وتركنا عليه في الآخرين) \* سلام على نوح في العالمين \* إنما كذلك نجوى المحسنين \* إنه من عبادنا المؤمنين<sup>(٣)</sup> .

والحقيقة أن نجاح الرسالات الكبرى يقوم على أمرتين متعادلتين: التفوق في زعيم، والحب والإخلاص في أتباع !!

وفي ظني أن القارئ الوعي المستجيد أخ للمؤلف المبتكر . . . وأن الجندي المطوع المتفانى أخ للقائد الفاتح ، وهذا يفسر لنا الحديث الصحيح «المرء مع من أحب»<sup>(٤)</sup> .

في صدر تاريخنا الإسلامي ، كان المؤمن يدخل على الخليفة ليوقره احتساباً - أو ليذكره إذا نسي - وكان المجاهدون في الجبهات البعيدة يتظرون دعوات المؤمنين في صلواتهم الجامعة .

كان التحابُ في الله هو الرباط الوثيق بين الجماهير ، وهو الذي استبقى قافلة الإسلام على مر الأيام . . !!

ثم انحلت عروة الحكم على عهد مبكر ، وسارت الجماهير وراء من تشق فيهم ، منحthem ولاها العميق !

رأينا البخاري يضيق به حاكم بلده فيخرج منه لينشر علمه في بلد آخر . . سبحان الله ، حاكم تافه يطارد قمة القمم في علوم السنة !!

وكان الجزاء الإلهي أن أبا عبد الله البخاري كرمته الأمسكار والأعصار منذ ظهر إلى بقية الدهر (هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب)<sup>(٥)</sup> .

ومات ابن حنبل فخر جت بغداد كلها وراء جنازته ، ترى كم من مُعز مشى وراء جثمان الخليفة الذي جلده؟ إنهم مرتزقة القصر وحدهم !

وقد التفت الجماهير حول رجالات الإسلام من فقهاء أناروا الطريق بالمعرفة ومن

(١) مريم ٤١.

(٢) مريم: ٥٤، ٥٥.

(٣) الصافات: ٧٨ - ٨١.

(٤) متفق عليه.

(٥) ص: ٤٩.

عبد حببوا الله إلى الناس، وشرحوا صدورهم بذكره.. ولا شك في أن أئمة التعليم والتربية ظفروا بحفاوات شعبية باللغة، أغتثتهم عن تقدير السلطة ومقانع الحكم..

وما سعى واحد منهم إلى شيء من هذه المكانة - وإنما هي عواطف الحب في الله بين العاملين لله في كل ميدان . .

\* \* \*

## تصحيح للمفاهيم:

وعواطف العامة قد يشوبها من التصورات ما يحتاج إلى التعليق أو النقد. فالبطولة عندهم قلما تخلو من خوارق العادات . . . هم يقولون: إن مريم كان يأتيها رزقها من السماء، وكان كافلها يدهش، وهو يرى أنه لا عمل له بعدهما قامت الملائكة بعمله . . .

وَهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزَلُتْ لِقْرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي بَيْتِ أَسِيدِ بْنِ حَضِيرٍ . وَلَوْ مَضِيَ الْأَنْصَارُ إِلَيْهِ فِي تَلَاقِهِ لَنَكَاثَرَتْ فِي دُرُّوبِ الْمَدِينَةِ حَتَّى يَرَاهَا النَّاسُ . .

ولهم نقول كثيرة في هذا المجال تطوع لهم أن ينسبوا إلى العلماء والأولياء حشدا من  
الخوارق لا آخر له . . . !!

وقد كثرا الحديث عن كرامات الأولياء وضرورة الإيمان بها إلى حد مستغرب، ويقاد الدهماء يبطشون بمن ينكر خارقاً نسبوه إلى أحد رجالهم، بل إن أغلب كتب العقائد جعلت «الإيمان» بهذه الخوارق من معالم الصراط المستقيم ..

وهذا الكلام كله يحتاج كما قلنا إلى نقد يكشف مافيه. فتصور أن الولاية لا تم إلا مع الخوارق الملغية لقانون السبيبة باطل !! إذ الولاية هي الإيمان والتقوى فحسب.

قال تعالى: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» \* الذين آمنوا و كانوا يتقونَ<sup>(١)</sup>. فمن جمع بين الإيمان والتقوى فهو ولٰي، رجلاً كان أو امرأة..

إن زوجة ترعى بيتها وتربي أولادها وتسعد زوجها ناشدة بهذا كله وجه ربها هي من الأولياء، وإن رجلاً في ديوانه الرسمي يحرس مصالح الناس ويعجل قضاءها ويهش لأصحابها مع وفائه بحقوق الله من صلاة وزكاة هو من الأولياء ..

وليس من الضروري بتة أن يقع له أى خارق من خوارق العادات !! إن اشتراط

(۱) یونس : ۶۲، ۶۳.

الكرامة لا كتمال الولاية أو لصحتها ضرب من الهزل، وليس لهذا التفكير أى أصل ديني ..

ربما تقع الخوارق - التي يعجب بها العامة - لأناس فقدوا أصل الإيمان والاستقامة.

وقد قرأت عن أناس لا يمتنون إلى الإسلام بصلة أخباراً مثيرة من رؤى جاءت كفلك الصبح، ومن إخبار بمعيقات صدقتها الأيام، إلى غير ذلك، فكان تعليقى الأوحد: لا كرامة لمن انقطعت بالله علاقته واضطربت في الحياة مسيرته! فالكرامة قبل كل شيء وبعده عقل مؤمن وخلق قوي!

ولا وزن لمن فقد ذلك ولو مشى على الماء أو امتنع عن الطعام الشهور الطوال ..

ويحزنني أن الفكر الديني عند العامة وأشباههم من أنصاف المتعلمين كاد يجن بالكرامات المادية، وأولع بإحصاء المئات منها لعارف ونكرات حتى سقط قانون السبيبة أو كاد، وكان لذلك أوثق الآثار على الحضارة الإسلامية.

بل إن ذلك أفسد القيم الأخلاقية عند الكثيرين . واسمع إلى هذه النادرة :

ارتكب أحدهم جريمة مزرية، وشعر الجمهر فطارده ليقبض عليه، وكان واثقاً من الظفر به لأنّه يقترب من شاطئ النهر، ولكن المطاردين فوجئوا ب أصحابهم يتتجاوزون اليابسة ويمشي بقدميه على الماء، فوقفوا مشدوهين ، ونظر إليهم المجرم الولى يقول: هذا عطاوه، وذاك قضاوه. يعني هذا المشى الخارق عطاوه، وذاك الجرم السابق قضاوه !!

ودلالة القصة ظاهرة وأثرها خطير .

ورأيت وأنا شاب رجلاً على كوم من التراب في ريفنا المصري، كان رث الهيبة مرقوع الملابس ظاهر البطالة! وقال لى أحد الناس: هذا الشيخ فلان من أولياء الله! فتجاوزته دون اكتراث، فقال لى الرجل لائماً: ألم يقل رسول الله عليه السلام: «رب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره»؟<sup>(1)</sup>.

فقلت له: ويحك، ما دخل هذا الحديث في صاحبك القدّر؟

إن الحديث يستلتفت النظر إلى أن المواهب العظيمة لا يزري بها الفقر، فرب كادح مغرب الجبين أشرف من متصرف الملابس، لأن هذا الكادح - كما رواه عن الإمام الشافعى :

(1) مسلم.

عليه ثياب لو تباع جميعها  
بفلس لكان الفلس منهن أكثرا  
وفيهن نفس لو تقاس بمثلها  
نفوس الورى كانت أعز وأكيرا  
لو كان صاحبك ولها لاحترف بدل أن يتبطل ، ولنلتفت جسده بدل أن يتفسخ ، أى  
ولاية هذه؟!

ولا أنكر أنه قد يأدي وحديثا وجد ناس بلغوا شأوا في اليقين والتقي ، وأن خوارق  
العادات وقعت لهم ، أنعم الله عليهم بها فأحسوا فضله الأعلى وسط أنواء عصبية  
كادت تعصف بهم .

لكن ما علاقة الآخرين بذلك؟ وما يفيدون منه؟ إن الأنبياء أنفسهم لا يملكون ضرا  
أو نفعا لأحد ، فكيف بمن دونهم؟ «قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا» قل إني لن  
يجيرني من الله أحد ولن أجده من دونه مُلْتَحِدا»<sup>(١)</sup>.

بيد أن السلبية والذنبية صفات تغلب على بعض الناس ، فهم يحبون أن يحيوا على  
حساب الآخرين ، ويكتفون بمجرد الانتساب دون معاناة سبب من الأسباب ..

قالوا: عندما احتل الإنجليز القاهرة في القرن الماضي ، ذهب حشاش إلى قبر الإمام  
الشافعى يلومه كيف عجز عن رد هؤلاء المغيرين؟ فقال له حشاش آخر معتذرا: إذا كان  
الأكبر منه ، الإمام الحسين نفسه عجز عن رد هم فما يفعل هو؟!

الغريب أن هذا الكلام أو قريبا منه تردد على ألسنة الدهماء في القرن السابع يوم  
استولى التتر على بغداد...! «أتواصوا به بل هم قوم طاغون»<sup>(٢)</sup>.

إن الإسلام بعيد بعيد عن هذا الهراء . ويتأدى بنا البحث إلى الكلام عن القبور  
وساكنيها من عامة وخاصة ، من أبرار وفجار ..

### صلة المسلم بالمقابر:

إن هذه المقابر لا تضم إلا الرفات الفانى من كيان الإنسان ، أما الأرواح فإنها ذهبت إلى  
مستقرها بعيداً عن هذه الدار... ومع ذلك فإننا نرتبط عاطفيا ببقايا من نحب مطمورة تحت  
هذه الأحجار...!

(١) الجن: ٢١ ، ٢٢.

(٢) الذاريات: ٥٣.

نعم في هذه القبور أحباً وآقرباً ومن عشنا معهم أمداً طالت أو قصرت، وكما قال المعرى:

وَقَبِحَ بَنَا وَإِنْ بَعْدَ الْعَهْدِ  
لَدَ هُوَانَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ!

إننا بزيارة القبور نسترجع ذكريات ، وقد نسكب العبرات ، وندرك أين المصير مهما حینا ..

وقد كلفنا بزيارة القبور لترق الأئمة، وندعو من سبقنا بالغفرة. وقد نزور قبرا معينا لستحيى بزيارته معانى البطولة، ونعلن وفاءنا وتقديرنا لصاحبى على نحو ما قال الشاعر لسحابة حافلة تعبر الأفق:

أَمْ<sup>(١)</sup> الضرِيحَ الَّذِي أَسْمَى ثُمَّ اسْتَهْلَى عَلَى الضرِيحِ ..!

ليس من العدل أن تشحّى على فتى ليس بالشّحيح!

زيارة القبور بداهة ليست عبادة لها... وأعرف أن بعض الناس تربطهم بسكان القبور بعض مشاعر الرجاء.. وأعرف أن هذه المشاعر نفسها - أو آخر منها - موجودة عند رواد القصور، وأذناب الحاكمين، وهي مشاعر مرفوضة جملة وتفصيلاً ما دامت توهن أمل الإنسان في الله، وترده إلى غيره من الأحياء أو الأموات.

نَحْنُ نَعْلَمُ عَلَى عِقِيدَةِ التَّوْحِيدِ، وَلَا نُسْيِغُ شَرِكًا وَنَقْبِلُ أَخْرًا، وَكُمْ يَحْزُنُنَا أَنْ يَكُونَ قَلْبُ امْرِئٍ مَا فَارَغَهُ مِنَ اللَّهِ مَلْوَءًا بِغَيْرِهِ مَنْ بَقُوا أَوْ هَلَكُوا.

والاستعانة على قضاء الحاجات تكون بالله تبارك اسمه، ولا يجوز أن يتوجه مسلم إلى قبر ليطلب من صاحبه عونا، فلماذا ترك الملك الأعلى ونتعلق بعبد من عباده؟ وماذا يملك هذا المقبور لأمثاله من الناس؟

إنه لأمر مؤسف أن يشيع بناء القبور على المساجد مع ما ورد من تحريم ذلك، حتى وهم الناس في بلادنا أن المسجد ما يكون إلا على قبر لأحد الأولياء، يعتقد العوام أنه مهوى القلوب وملتقى السائلين !!

ومعرفتى بالمسجد تجعلنى أندد بأمور رأيتها.. زرت أحد المساجد بمحافظة البحيرة، فرأيت القبر يتوسط المسجد توسطاً منكراً، بحيث تكون صفوف المصلين أماماه وخلفه عند امتلاء المسجد! قلت: إن المساجد لله، وهذا المسجد للقبر! فرض القبر نفسه على مساحته بهذا الوضع الغريب..

۱) اقصدی.

وقد تكون القبور في حجر خاصة متصلة بالمسجد اتصالاً مباشراً أو داخلة فيه! وهنا نرى انقساماً بين المصلين في الصلوات الجامعة! فالبعض يصل إلى المقبرة، والبعض الآخر يصل إلى ساحة المسجد!

وقد تتعدد الجماعات في الوقت الواحد، وتشابك تكبيرات الانتقال، ولا يفصل بين انتهاء الصلاتين إلا دقيقة أو دقيقتان!!

وحاولنا منع هذا التعدد، لكن الرعاع أثاروا ضجة كبيرة جعلت وزارة الأوقاف تراجع ابقاء الفتنة!!

وأذكر أن الجمعية الشرعية عندما بنت مسجدها الكبير بالعاصمة، طلبت مني إزالة ضريح ولّي الله «المدبولي» وضم أرضه إلى المسجد ليتسع وليمكن إقامة متذنة تواجه بعض المعابد...!

ولبيت الطلب على عجل، ونقلت ما يُسمى رفاتاً على المجاز - إلى مجمع الأولياء بالمقابر...

وهنا حدث ضدّي شغب بعيد المدى لم يطفئه إلا وزير الأوقاف الذي كان حسن الظن بيديني!

إن تشييد الأضرحة وكسوتها وتزيينها بالمعادن النفيسة واستقدام الزوار إليها أمر شائع في أمتنا، ولا أصل له.

وأعرف بقايا في العاصمة بني مسجداً، وبعد إتمامه استصدر رخصة أن يدفن فيه، وتم له ما أراد! وأصبح من الأولياء لله!

إن علاج ذلك الانحراف يحتاج إلى حكمة، وإلى خطة طويلة المدى...

وي يمكن من الآن منع تعدد الجماعات في الوقت الواحد، وصرف المصلين إلى الجماعة الكبرى في المسجد نفسه، كما يمكن عمل أبواب خاصة للمقابر الملحقة بالمسجد تيسراً للزوار الوصول إليها دون حرج...

وفي القضية كلها يقول الأستاذ حسن البنا: «محبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب عملهم قربة إلى الله تبارك وتعالى. والأولياء هم المذكورون في قوله سبحانه **﴿الذين آمنوا و كانوا يتقون﴾**، والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، في حياتهم أو بعد مماتهم فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم».

ثم يقول الإمام الشهيد: «زيارة القبور أيا كانت سنة، وهي مشروعة بالكيفية المأثورة. ولكن الاستعانة بالمقبورين - أيا كانوا - ونداءهم لذلك، وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد، والسندر لهم، وتشييد القبور، وسترها، وإضاءتها، والتمسح بها، والخلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات. كبائر تجنب محاربتها، ولا تأول لهذه الأعمال، سدا للذرية..»<sup>(١)</sup>.

ييد أن هناك أنسا يتاؤلون ويتسامحون ويرون ترك الأمور تجري في أعتنّتها، وهذا خطأ، ولا أتهم نياتهم فالقلوب إلى الله، ولكنني أناشدكم الله أن يحفظوا حقائق الإسلام عقيدة وشريعة على سواء، وأن يتزموا ما صح من تعاليمه، وأن ينبذوا الخرافات والبدع التي أزرت بجوهره، وعرقلت مسيرته . .

وهناك آخرون يحسنون الهدم أكثر مما يحسنون البناء. لقيني أحدهم وقال لي مغاضبا: بلغنا أنك صليت في مسجد الصنم! فقلت دهشا: أى صنم؟! قال: في مسجد الحسين!!

لو قدرت على جلد هذا السفيه بجلدته.. إنني نظرت إليه في تغيظ ثم قلت: مسْعِر فتنة، أنت، ما يجد الشيطان خيرا منك في إذكاء العناد وتمزيق الأمة!

نعم صليت في المسجد مع جمهور كثيف، يوحّد الله ويرجو رضاه ويخشى بأسه! فيهم كثيرون أطيب منك قلبا، وأسرع إلى ميادين الجهاد يبذلون دمهم في ذات الله..!

ورفضت استئناف الكلام، فما جدوى الكلام مع امرئ مسحور يريد دمغ الناس بالشرك بدل أن يُحِبِّبُهُم في الحق، وما أكثر هؤلاء الدعاة الفاشلين.. !!

\*\*\*

---

(١) الأصلان الثالث عشر والرابع عشر للأصول العشرين للإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله.

## التوسل .. ما يجوز منه وما لا يجوز

الخلاف في جواز التوسل وعدم جوازه شائع بين الدهماء، وقد استفحلا أمره مع التخلف العقلي لأمتنا في القرون الأخيرة، وانشغال الكثيرين بالتواوفه، وغفلتهم عن معانق الإيمان وعظامه الأعمال ..

بل لقد كانت دولة الإسلام تنتقص من أطرافها وشرائعه تطوى من أصولها، والراغع في دار الإسلام مشدودون إلى جدال حام غضوب: هل فلان ولی أم لا؟ وهل نتوسل به أم لا؟

وظاهر من ملاحظة تلك الأحوال الغريبة أن الأمة كانت قد فقدت خصائصها العلمية والخلقية، وأمست غير صالحة لقيادة أو ريادة، والجنون فنون ..

### معانى الوسيلة في الشرع والعرف:

تبعدت معانى «الوسيلة» في الشرع والعرف، فوجدتها لا تعدو هذه الصور الخمس:

١ - التوسل إلى الله بذاته وأسمائه الحسنى: على نحو ما جاء في الحديث: «اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله الذى لا إله إلا هو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد».

ومثل ما ورد في حديث حفظ القرآن الكريم: «أسألك بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني».

ومثل: «أعوذ برضاك من سخطك، ويعافاتك من عقوتك».

وقرأت لأحد الصالحين دعاء بدأه بهذه الجمل: «اللهم إنى جئت منك إليك، ولا شيء أعز منك عليك، فكن شفيعي لدىك .. إلخ».

وهذا النوع من التوسل لا شيء فيه يقينا، بل هو قمة التوحيد!

٢ - التوسل إلى الله بطاعته، وما قدمنا من عمل صالح نرجو به وجهه الكريم. وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاحدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾<sup>(١)</sup>.

وفي السنة حديث طويل عن ثلاثة انسد عليهم غار كانوا قد لجأوا إليه ، ولم ينجهم منه إلا توسل كل منهم بأحسن ما قدم من عمل .

وذلك مصداق قوله ﷺ : «تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»!<sup>(٢)</sup>.

٣ - التوسل بدعاء الصالحين، ومن نوسم فيهم درجة الإحسان! ودعاء المؤمنين بعضهم البعض ثابت من عهد نوح الذي قال لربه : «رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيته مؤمنا وللمؤمنات والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا»<sup>(٣)</sup>.

وسواء كان الدعاء عن حضور أو عن ظهر الغيب ، وسواء كان من الأعلى للأدنى أو الأدنى للأعلى فهو مأثور مأجور لماله من دلالة حسنة . إن الملائكة حملة العرش تقول في ورد دائم : «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم»<sup>(٤)</sup>.

والذين يعرفون العظيم يتوجهون له بالثناء والاعتذار إذا رأوا سفيهاً يسىء إليه ، فلا جرم تهتف الملائكة برب العالمين داعية راجية كلما أخطأ البشر وشردوا عن الطريق ، ثم ثابوا إلى رشدهم . . . !

والخلف يدعون للسلف إشارة إلى وحدة المؤمنين في مجال العبودية وإن اختلف الزمان والمكان : «والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا وليخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا»<sup>(٥)</sup>.

والأمة الإسلامية تدعو لنبيها في كل أذان وصلاة مترجمة بهذا الدعاء أو بهذه الصلاة عن حبها له وشعورها بما أسدى حين علم وجاهد وهدى . .

وكان السلف من الأصحاب رضوان الله عليهم إذا تخلف المطر وخيف القحط

(١) المائدة: ٣٥.

(٢) رواه أحمد.

(٣) نوح: ٢٨.

(٤) غافر: ٧.

(٥) الحشر: ١٠.

يتسلون برسول الله ﷺ ، فيرفع ذراعيه إلى السماء ويناشد الله رحمته فيجيء  
الغيث ..

وقد توسل الصحابة بعد وفاة الرسول بعمه العباس - كأن فيه رائحة النبوة - فأقبل  
العم الصالح يدعو وهو خجل حتى نزل المطر ..

إنه لا حرج أن تقول مؤمن تحسن به الظن: ادع الله لي ، أو ادع الله معي . إن هذا  
النوع من التوسل لا حرج فيه كما رأيت .

\* \* \*

### توسل مختلف عليه:

٤ - التوسل بذات الرسول وما له عند الله من مكانة، وقد وجدت رأين في ذلك:  
أولهما: أنه لم يرد، وأن نماذج الدعاء في الكتاب والسنة وهي كثيرة لم تتضمن شيئاً  
من ذلك بل تضمنت دعاء مباشر الله جل شأنه، والاتباع في هذا الميدان أولى ..

الثاني: أنه ورد توسل بشخص الرسول ﷺ في حديث الرجل الذي أصيب بالعمى،  
واستشفع بالنبي إلى ربه في دعاء تعلمته منه - أو من غيره - فلما دعا الرجل ربه بهذه  
الصيغة رجع إليه بصره .. قالوا: وهذا اللون من التوسل وإن لم يروه الصحيحان فقد  
جاء من طرق تزيد على العشرة مما يشهد له !

كلا الرأين له ملحوظ محترم عند من يقول بهما، ومن الممكن اعتبار هذا الخلاف في شكل  
الأداء لا في حقيقة الوجهة ..

إلا أن خصاماً شديداً وقع بين الفريقين كاد يتحول إلى قطيعة مزمنة !

والسبب عندي يحمل وزره الفريقان معاً. الفريق الأول وصف الثاني بالشرك،  
والثاني وصف الأول بكراهية الرسول . وترافقوا جميعاً بالتهم ، فلم يكسب الإسلام  
إلا فرقاً سيئة بين بنية .

وزاد الطين بلة أن الفريق الثاني قاس على ذات الرسول من يراهم أهل صلاح  
وولاية ، فاتسعت الدائرة لتشمل المعارف والنكرات ، ثم رأيناهم يتتجاهل أو يتتجاوز ما لا  
شك فيه من صيغ الدعاء ، ويقصر سؤاله لله على الصيغ التي فيها قولان ، وهذا جهل  
منكور !!

وكان يجب على هؤلاء ألا يقيسوا على رسول الله شخصا آخر، فلا قياس في العبادات، وكان يجب أن يتقربوا إلى الله أولاً بما صح في كتابه وسنة رسوله، وإذا صحت لديهم صيغة فلتكن بعض ما يقال أو آخر ما يقال . . .

وبقى أن ننصح هواة الاتهام بالشرك أن ينظفوا سرائرهم وألستهم من سوء الظن، وألا يبنوا أحكاما على أوهام . . .

\* \* \*

### تسلل مرفوض باتفاق العلماء:

٥ - التسلل إلى الله بدعاء المقربين. وهذا مرفوض باتفاق العلماء، فإن مناجاة النبي أو ولی في قبره، وعرض الحوائج عليه رجاء قصائها شرك.

ما يمنع أولئك الحمقى من سؤال الله وهو أقرب إليهم، وأقدر على إجابتهم؟ إن الانصراف عنه إلى غيره عمى وزور . . .

والغريب أن ناسا عندنا يرسلون شكاوى مكتوبة إلى ضريح الإمام الشافعى، وآخرين يفزعون إلى قبور بعض الأولياء متذللين يطلبون منها ما لا يقدر عليه إلا رب العالمين . . .

حکى بعض الظرفاء أنه كان جالسا في مزار مشهور، فجاء رجل يطلب من الولي الميت النجدة! لأن امرأته تلد والولادة متعرجة! وانصرف، وإذا رجل يجيء بعده ليطلب مساعدة ابنه الذي دخل الامتحانات العامة! وهنا قال له الظريف الجالس: إن الولي ليس هنا، فقد ذهب لتوليد حامل تعسر وضعها!!

والواقع أن دعاء المقربين أضحي مهزلة سخيفة، وأن الاعتذار عن هذا المسلك لا يسمع من أحد.

وأستلفت النظر إلى شيء قد يشتبه مع هذا الدعاء المرفوض، وهو ليس منه! وأعني به أدب المناجاة. فإن من المتأدبين من ينادى الليل، أو القمر، أو ريح الصبا، أو خليله، أو ما أشبه بذلك، وهو لا يقصد نداء وإنما يريد مناجاة ما يبته مشاعره، ويشرح لديه ذات نفسه . . .

والذى يناجى الليل أو البدر لا يعبدهما بداعه، بل الذى نادى قبر معن بن زائدة

وقال له :

وياقبر معن أنت أول حفرة من الأرض خطت للسماحة مضجعا  
لم يعبد القبر ولم يفكر في ذلك . .

وكذلك الذي ناجى الرسول الكريم بقوله :

يا خير من دفنت في القاع أعظمها فطاب من طيئهن القاع والأكم  
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه النبل والكرم  
وعندى أن قصيدة شوقي التى بدأها بقوله :

إلى عرفات الله يا خير زائر عليك سلام الله فى عرفات

تضمنت مناجاة من هذا القبيل ، وقد يكون خيال الشاعر وفيض حبه قد أضفيا على  
كلامه شيئاً من المبالغة ، ولكن ذلك في رأيي لا يجعله موضع اتهام . يقول شوقي :

إذا زرت بعد البيت قبر محمد وقبلت مثوى الأعظم النضرات  
وضاء شعاع تحت كل ثنية وضع اریج تحت كل حصاة  
وفاضت من العين الدموع مهابة لأحمد بين الستير والحجرات ..!  
فقل يا رسول الله، يا خير مرسل  
أشك ما تدرى من العبرات  
شعوبك في شرق البلاد وغربها  
كأصحاب كهف في عميق سبات  
بأيمانهم نوران: ذكر وسنة  
فما بالهم في حال الظلمات؟!

وقد سبق إلى مثل هذه المبالغات البوصيري ، فتجاوز الحد في الإطراء ، ولكن هذه  
الهناك لا تسوغ اتهام الرجلين بالشرك ، كما يفعل أناس لا خبرة لهم بأفاق الأدب  
وأساليب البيان ، وإن كنا نؤثر البعد عما يثير الريب ، ونعلن غيرتنا عن كل ما يمس  
عقيدة التوحيد ، ونرى في كلام هؤلاء الشعراء ما يستحق الضبط .

ونعود إلى التوسل بذات الرسول ﷺ حين يدعوه المسلم ربه . إن الخلاف بين  
المجيزين والمانعين ، كاد يشبه الخلاف بين دينين ، ولم أر لذلك سبباً معقولاً .

وفي المسافة بين الفعل ورد الفعل ، نَدَّتْ أحكام عن الصواب ، فرأينا ابن تيمية يكره  
زيارة قبر النبي ﷺ .

لماذا؟ إن زيارة القبور كلها سنة ، فلم يشذ هذا القبر وحده؟!

لا ريب في أن ابن تيمية فعل ذلك سداً لذرية التوسل الذي يأبه . . .  
وقد سلقته خصوصه بالسنة حداد، ونالوا منه من لا رديئا . . .  
ونظن أن هذه المعركة التافهة يجب أن تخمد نارها، وأن ينظر إليها دون تشنج ورغبة  
في التهم . . .

يقول الأستاذ الإمام:

«والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه موضع خلاف فرعى في كيفية الدعاء،  
وليس من مسائل العقيدة»<sup>(١)</sup> . أي أنه يوصف بالخطأ والصواب كالقضايا الفرعية في فقه  
العبادات . . . ولا صلة له بالكفر والإيمان أو الشرك والتوحيد.

---

(١) الأصل الخامس عشر من الأصول العشرين.

## تقالييد المسلمين غير تعاليم الإسلام

قد تكون تقالييد المجتمع صورة مطابقة أو مقاربة لتعاليم الإسلام، وذاك ما وقع إجمالاً في القرن الأول، قرن الأصحاب الذين حملوا الإسلام وبلغوه إلى المشارق والمغارب. ثم جاء بعد ذلك التابعون، وأتباع التابعين فثبتوا الدعائم وأبرزوا المعالم، واندفع بهم المد الإسلامي إلى الأمام . .

ولايزال هذا المد يشق طريقه إلى مستقبله المربوط بقِيام الساعة، وإن عرَّا التيارَ  
وَهَنْ، وَشَابَ صَفَوْهُ كَدَرُ!

وتقالييد المسلمين خلال التاريخ الطويل لا يمكن اعتبارها صورة دقيقة لتوجيهات السماء. إن هذه التقالييد قد تحرف قليلاً، وقد يذهب بها الانحراف إلى أن تكون تشويهاً للإسلام أو ميلاً شديداً عن نهجه !

ولنذكر أمثلة خفيفة أو خطيرة لبعض التقالييد الشائعة . .

قال لى رجل صالح: في مساجد ليبيا وتركيا توضع مسابع ختم الصلاة، يستعملها من ليست في أيديهم سبعة! لماذا نرى يديك عاطلتين من ذلك؟!

قلت: أوثر ختم الصلاة بيدي، وأكره أن أحمل أي شيء وأنا أتقلب في معايشي .  
وأمثل أساليب الذكر أن يكون الله في ضميري ، فإذا ترجم اللسان عن ذلك بلفظ ،  
أو لفظين ، فلا ضرورة لعدد ، وما أحسب التكرار ذكرًا له وزن ، أو له في التسامي  
النفسي والاجتماعي أثر !

وقال لى آخر: لقد جاء في السنن استحباب الصلاة في النعال ، فلماذا تتركون هذه السنن؟ قلت: قد أصلى في النعل وأنا في حقل أو في طريق ، أما في المسجد فلا! لماذا؟  
إن أسفل النعل ربما حمل وساخة أو نحاسة معفوا عنها! لكن هذه المقادير المعفو عنها إذا  
تكاثرت وتراتكمت داخل المسجد حولته إلى مزبلة كريهة الرائحة ، فكيف أبيع  
للجماهير دخول المساجد لتلوينها على هذا النحو؟!

قال: كان الصحابة يصلون في المسجد بنعالهم . قلت: لم يكن المسجد مفروشاً  
بشيء ، وكانت البيئة الرملية أغلب ، وهي تعين على النظافة . .

ومن هنا نمنع المتعلين من دخول المسجد حتى يخلعوا نعالهم فلا يوسخوا السجاد أو الحصير ، والإسلام مبني على النظافة .

وسألنى سائل : أترى هذه الملابس الفرنجية تصلح لل المسلمين؟

قلت : إن الإسلام أباح لنا أنواع الأزياء ما دمنا بعيدين عن السرف والخيلاء . قال : هذه ملابس ضيقة ، وأفضل منها ملابسنا الفضفاضة البيضاء ! قلت : ما تقول صفة ملابس الصحراء ، اللون الأبيض مستحب لأنه يرد أشعة الشمس بخلاف غيره ، والسعفة تمنع العرق في المناطق الحارة ، وامتداد غطاء الرأس على القفال لوقاية من حدة الشمس ووقدة الحر .

والرعم بأن هذا الطراز من الأزياء إسلامى وغيره كفرانى غير صحيح .

إن الله لا يكلف سكان المناطق الباردة أو المعتدلة أن يلبسو عمائم لها ذنب أو لا ذنب لها ، حسبُ اللباس أن يستر العورات ويزين صاحبه ، وليكن ما يكون في تفصيله وتقسيمه . . .

وسمعت محدثاً دينياً يوجب بغضب أن تكون زكاة الفطر تمراً أو شعيراً ، أو ما شابه ذلك ، ويرفض أن تكون نقداً كما قال أبو حنيفة ، وشمت من لهجته أنه لو لقى أبا حنيفة لتناوله بالإساءة .

قلت : هذا مفكر بدوى النزعة يوجب على لندن وباريس إذا دخلتا في الإسلام أن تستوراً قناطير من الشعير أو التمر للصدقة على الفقراء . . .

ماذا في إخراج الزكاة مالاً يصلح الفقير به شأنه؟ ويقضى حاجاته كلها؟

إن فرض تقاليد الصحراء على الناس كلهم باسم الإسلام ضرب من البلاهة!

## الإسلام كرم المرأة:

وأعرف مبعوثاً حدث بينه وبين أسرته نزاع انتهى بزواجه من امرأة نمساوية حيث يتعلم ! وسبب النزاع أن الأب عرض على ابنه الزواج من فتاة يعرف أهلها معرفة جيدة ! قال الابن : إنني لم أر هذه الفتاة من قبل ، وتقاليدنا تقيم حجاباً غليظة بين الجنسين حتى لا يرى أحدهما الآخر ، فلنرها أولاً . .

قال الأب : لكن أهلها يرفضون أن تراها ، فربما لم تعجبك ، فكيف تراها وتركتها؟ ! ثق في اختيارنا لك !

واحتد الجدل، وانتهى الأمر بأن تزوج الولد بالطالبة النمساوية.

هل هذه تقاليد إسلامية، أم عادات أنشأها الناس من عند أنفسهم، ثم جعلوها دينا؟ وباسم الحجاب، قامت تقاليد تزدرى المرأة وتؤخرها، وترفض منحها الحقوق المادية والأدبية التي أقرها لها الإسلام، فماتت إنسانيتها على مرّ القرون، وتولى كبر ذلك كله متدينون جهله يحسبون التقوى تجاهيل المرأة وإذلالها . . .

إن أى مطالع للقرآن الكريم والسنن الصحاح يرى المرأة جزءاً حياً من مجتمع حيٌّ، فهى تتعلم وتعبد وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتجاهد - إذا شاءت - في البر والبحر، وتؤخذ منها البيعة على معاقد الإيمان والأخلاق، وتعارض الحكم أو تؤيده.. إلخ.

ودخل التحرير على تعاليمنا وتقاليدنا، فإذا المرأة كَلَّ على مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يوجهه لا يأت بخير!!

وقال لي صديق: إنه عندما أمر الملك فيصل بتعليم البنات تحولت أسر عن البلد الذي أنشئت فيه أول مدرسة! وكرهت أن ترى هذه البدعة المنكرة! . .

ولا يزال نفر من علماء الدين يكرهون وجه المرأة، ويحملونها مسؤولية خروج آدم من الجنة كما زعم اليهود في كتبهم! ويرون الدين إمساك النساء في البيوت حتى يتوفاهن الموت، وحرمانهن من أى نشاط عام . .

وأعتقد أن هؤلاء العلماء القاصرين لو كانوا على عهد الرسول ﷺ لطالبوه بطرد السيدتين اللتين حضرتا بيعة العقبة الكبرى، وقالوا له: ما للنساء وهذه الشئون؟! ولو كانوا موجودين عند فتح مكة لقالوا له: حسبك بيعة الرجال، وهم يعلمون نسائهم!

أما استخراج النساء للبيعة فقد يكون سبباً في غرورهن وجرأتهن!

بل أعتقد أن هؤلاء العلماء - على المجاز لا على الحقيقة - لو كانوا مع نبي الله سليمان وهو يكتب خطابه لبلقيس «ألا تعلوا على وآتونى مسلمين»<sup>(1)</sup>، لقالوا له: عدل هذه الصيغة فإنها تعرف بتوليه منصب الملك، اكتب بعزلها أولاً ثم تفاهم مع الرجال وحدهم!

هذه العقلية المختلة فرضت نفسها طويلاً على دين الله، وبعد أن أعادت أقدار حسنة على زلزلة سلطانهم رأيناهم يستميتون في إخراج المرأة المسلمة وتعكير مستقبلها بفتاوي مكذوبة على الإسلام.

(1) النمل: ٣١.

سمعت في برنامج مذاع هذا الحوار بين صاحب البرنامج والمفتى المستضاف : ما رأيكم في اختلاط الرجال والنساء؟ وهل تجوز الخلوة؟

قال المفتى : الخلوة مرفوضة شرعاً، لحديث لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما . . والاختلاط الشائع الآن في بعض المجتمعات مرفوض لخروجه على الآداب الإسلامية . .

وسرتني الإجابة لدقتها وصدقها ، وأغراني ذلك بمتابعة السمع .

سئل المفتى : فهل تجوز الخلوة بامرأتين؟ فأجاب : إنني أحق الاثنين بالواحدة ، وأرى أن الحرج يتضمن كلما زاد العدد !

ولم أر بأسا فيما قيل ، والحفظ على الأعراض مطلوب . . !

وعاد السائل يقول للمفتى : ما معنى رفع الحرج كلما زاد العدد؟ وأجابه الرجل في هدوء : الإمام في المسجد ، والأستاذ في المدرسة ، لا يعتبر أيهما مختليا بالأعداد الكبيرة الذاهبة إلى المسجد أو المدرسة !!

وهنا انقلب السائل إلى مصحح ومرشد فقال للمفتى : لا ، ما يجوز أن يراهن هذا ولا ذاك إلا وعلى وجههن النقاب !!

قال لي صديق يسمع الحوار : هذا مذهب أحمد بن حنبل ، ويظهر أن المفتى لا يعرفه ! قلت : قرأت في المغني لابن قدامة أن أحمد رضي الله عنه قبل حديث أسماء أن المرأة إذا بلغت المحيض لا يحل أن يرى منها إلا هذا وهذان ، يعني الوجه والكفين . وقرأت في المبدع في الجزء السابع في باب النكاح أنهم - يعني الحنابلة - متفقون على أن وجه المرأة ليس بعورة (١) !!

إن مذهب أحمد مظلوم في هذه القضية ، و هو لاء المتحدثون جهله بفقه الإسلام في الموضوع كله .

والغريب أنهم صدرروا هذا الكلام إلينا ، ومعه كلام آخر أن الأرض لا تدور ، وأن علم الجغرافيا زائف ، وراج هذا اللغو للأسف بين طلابنا فكان نكبة أصابت النهضة الإسلامية إصابة فادحة .

قال : هل يعجبك الاختلاط الشائع المستورد من الغرب؟ قلت كلا ، وأنا أعلم عن

(١) عبارة المبدع : « لا خلاف في إباحة النظر إلى الوجه لأنه ليس بعورة ». يعني عند الخطبة من غير خلوة بها ، والشاهد في التعليل !

مأسى الانحلال الجنسي الكبير فى أوربا وأمريكا . إننى لا أستبدل بـ تقاليد الإسلام تقاليد الغرب ، ولكنى أستلفت النظر إلى أن الفكر الدينى الجھول لن يقدم الحل البديل ما دام يعمى عن حقائق الإسلام ، ويريد أن يفرض غباءه - باسم الله - على عباد الله . إن نتيجة هذا الخبال هى هزيمة الإسلام وانتصار الفسق الاستعمارى عليه ..

فى سيرة الرسول ﷺ رأينا عجبا يوم حنين . لقد انهزم الظفقاء ، وأسلموا سيقانهم للريح ، وثبتت مع المؤمنين الراسخين بضعة نسوة قاتلن بشرف وبسالة ، ودافعن عن نبيهن أشرف دفاع ..

ورأهن النبي ﷺ وهن كالأساد حوله . واقتربت أم سليم - بعد انتهاء المعركة - أن يقتل الرسول الفارين ، ولكن الرسول عفا .

قال المقرizi يصف قتال النساء فى معركة حنين :

«وكانت أم عمارة فى يدها سيف صارم ، وأم سليم معها خنجر قد حزمته على وسطها ، وهى يومئذ حامل بعبدالله بن أبي طلحة . وكانت أم سليم ، وأم الحارث - حين انهزم الناس - تقاتلان .

وأم عمارة تصيح بالأنصار : أية عادة هذه !! مالكم وللفرار !! وشدت على رجل من هوازن فقتلته وأخذت سيفه .

ورسول الله ﷺ قائم مُصلت السيف بيده ، وقد طرح غمده ينادى : يا أصحاب سورة البقرة ! فكر المسلمين وجعلوا يقولون : يابنى عبد الرحمن ! يابنى عبد الله ! يابنى عبيد الله ! ياخيل الله . وكان ﷺ قد سمى خيله خيل الله .

وأم سليم بنت ملحان تقول : لا يارسول الله ما رأيت هؤلاء الذين أسلموا وفروا عنك وخذلوك . لا تعرف عنهم إذا أمكنك الله منهم ، نقتلهم كما نقتل هؤلاء المشركين . فقال : يا أم سليم . قد كفى الله ، عافية الله أوسع »<sup>(١)</sup> .

ولننظر فى أدب وتوقير إلى امرأة ألبسها الله تاج الإيمان والكرامة ، حضرت معركة أحد وأبلت بلاء حسنا ، وفقدت فى هذه المعركة ابنها وزوجها وأخاها . وبقيت على فداحة مصابها راسخة الإيمان ، محبة لله ورسوله ، تقول بعد ما نجى الله رسوله من القتل بأيدي الكفار : كل مصيبة بعده جلل - تعنى تافهة .

---

(١) إمتناع الأسماع ج ١ ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

خرج زوجها عمرو بن الجموح، وكان أعرج، واتجه إلى أحد وهو يقول: اللهم لا تردني إلى أهلى خزيان، وارزقني الشهادة!

وقتل البطل المؤمن وهو يرد غارة الشرك على الموحدين، وأجاب الله دعوته!!

وكان قد قتل من قبل أخوها عبدالله بن حرام - والد الصحابي الراوية جابر بن عبدالله، فقال النبي ﷺ لهند زوجة عمرو بن الجموح: «إن منكم يا معاشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره، منهم عمرو بن الجموح، يا هند ما زالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن؟».

ثم مكث رسول الله حتى قبر الشهداء، ثم قال: يا هند قد ترافقوا في الجنة، عمرو ابن الجموح، وابنك خلاد، وأخوك عبدالله!! قالت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني معهم !!

قال المقرizi: وكانت أم عمارة نسيبة بنت كعب قد شهدت أحداً هي وزوجها وابنها، ومعها شن لتسقى الجرحى - قربة قديمة - فقاتلت وأبلت بلاه حسناً يومئذ - وهي حاجزة ثوبها على وسطها - حتى جرحت اثنى عشر جرحاً بين طعنة برمخ أو ضربة بسيف، وذلك لأنها كانت بين يدي رسول الله وابنها عبدالله وحبيب ابنا زيد ابن عاصم من زوج آخر غير زوجها غزية بن عمرو الذي حضر معها هذه المعركة. فلما انهزم المسلمون في أحد جعلت هي تبادر القتال(!) وتذب عن رسول الله بسيف، وترمى بالقوس . . .

ولما أقبل ابن قميئه عليه اللعنة يريده قتل رسول الله، كانت فيمن اعترض له (!) فضربها على عاتقها ضربة صار لها فيما بعد غور أجوف في كتفها، وضربته هي ضربات، فقال رسول الله ﷺ: «لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان، وقال: ما التفت يميناً ولا شمala إلا وأنا أراها تقاتل دوني!»

وقال لابنها عبدالله: «بارك الله عليكم من أهل بيته، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان! ومقام رببك - يعني زوج أمك - خير من مقام فلان وفلان، ومقامك خير من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل بيته!»

فقالت أم عمارة: ادع الله أن نرافقك في الجنة! قال: اللهم اجعلهم رفقاء في الجنة. قالت: ما أبالي ما أصابني من الدنيا . . .

ولست بهذا النقل أدعو إلى تجنيد النساء ليشاركن في القتال، كلا، فلدينا ألوان وألوان من ذوى اللحى والشوارب يجب أن ينهضوا بواجبهم، فإذا فنوا خلفهم النساء . . . !!

وإنما أتساءل: أين التقاليد التي مكنت النساء قديماً من إحراز هذا الشرف؟ فكن في معارك الإسلام الكبرى بطلات وأمهات وزوجات أبطال؟

لقد اختفت هذه التقاليد لتحل محلها تقاليد أخرى، أساسها أن المرأة متعة في البيت لفحل يغدو عليها ويروح.. وحسب.

ولا صلة لها بعلم ولا عبادة ولا جهاد ولا إصلاح.. !!

ومن دعا إلى شيء من هذا أسرعه الرم القديرة على الشريرة إلى اتهام دينه ومرؤته، ثم زعمت أنها تفعل ذلك باسم الإسلام.

لا تقاليد الشرق المجنحة تعجبني، ولا تقاليد الغرب المسرفة تسرني.. .

الغرب غلبه نزعات حيوانية أزرت بالرقى الثقافي للمرأة.

والشرق غلبه نزعات أنانية كادت تودي ب الإنسانية المرأة.. .

ويوم يرزق الإسلام فقهاء أحسنوا درسه وعرضه، فسوف ينبع المجتمع كله في تصحيح أوضاعه المائلة.

ولقد أنشأ الأستاذ الإمام قسماً للأخوات المسلمات، رأسه أخيراً السيدة زينب الغزالي الجبيلي، التي جاهدت جهاداً صادقاً في بناء نهضة إسلامية واعية..

ومع ذلك، فإن الكارهين للسفور مع كمال الحشمة لم ينقطع لهم لغوا! ويجب أن تمضي القافلة غير آبها لهؤلاء البليه!!

هل قاتل أولئك النساء من وراء نقاب؟

ورأيت في كتب السنة طرفة تستحق التسجيل. فقد اختير لإماماة المصلين شاب حدث فقير، ويظهر أنه كان في ثوبه قصر لم يلتفت إلى نتائجه، فكان إذا سجد ربما انكشف شيء من مؤخرته.. .

ولم يعجب إحدى المصليات هذا الوضع فقالت بصوت عال: واروا عننا سوأة إمامكم!!

والمعروف أن النساء يصلين خلف الصفوف، فهل لمحت المرأة ما لمحت من وراء نقاب<sup>(1)</sup>!!

(1) روى البخاري أن عمرو بن سلامة كان يوم قومه، قال عمرو: وكانت عنى بردة إذا سجدت تقلصت عنى! فقالت امرأة من الحى: «ألا تغطوا عننا است قارئكم؟» ولقد أفتى الحنابلة بصححة الصلاة - والحالة هذه - إذا كان ما انكشف من العورة يسيراً لا يفحش، وبالاً فالصلاحة بطلة!

إن الحجاب الذي ورد في الإسلام هو تنظيم للتردد على البيت النبوى بعد ما لوحظ أن البعض يجلس دون سبب، وبعد ما لوحظ أن أحد أجلاف البدو قال في صفاقة غريبة: لو مات محمد تزوجت فلانة من نسائه! فلم يكن بدًّ من تشريع صارم يمنع هذه الهنات، ويقمع أصحاب هذه التطلعات.

أما الاستئذان في البيوت الإسلامية كلها، فله نظام شرحته سورة النور، كما شرحت السورة ما يؤذن في رؤيتها من الزينة الظاهرة، وما يحضر وراء ذلك، ولا مكان للخاط.

\* \* \*

وفي العلاقة بين أجهزة الحكم وجماهير المسلمين، وقعت فوضى رهيبة عند تفسير أحكام الشريعة الغراء، حتى كادت الحقيقة العقلية لكلمة «الشوري» تتلاشى.

وذكر الذين ذكرت اسمها «لأهل الخل والعقد» بحثنا عن مفهومه فلم نجد إلا مع الغول والعنقاء والخل الوفى !!

وأوجد الحكم الفردي فقها ليس له أصل ديني قائم، وفقهاء لا يستحقون ذرة من ثقة . . !! وقد قرأت مشروع دستور وضعه واحد من هؤلاء، فرأيت «الخليفة» المتظر يستمتع بسلطات دونها براحت سلطات القيصر الأحمر في موسكو أو ساكن البيت الأبيض في واشنطن.

قلت : وثيقة تضم إلى غيرها من القمامات الفكرية في حياتنا السياسية الغابرة والحاضرة على سواء !!

إن القيمة الإنسانية لحكام العرب والمسلمين لا تحتاج في تقويمها إلى ذكاء، فهم - إلا من عصم الله - اغتنوا من فقر على حساب شعوب بائسة، وعلوا في الأرض بعد إشاعة الدمار العقلى والخلقى بين السواد الأعظم من الناس . . !!

ويعلم سكان المغارب والمشارق والمغارب أن الحكم عند المسلمين مغنم تتلمظ له أفواه، وأن الحاكمين - إلا من عصم - يختفون حتىما في أي انتخاب حر، كما يختفي الكابوس عند اليقظة.

ومع ذلك فقد وجد فقهاء يفسرون الشوري بأنها لا تلزم الحاكم! ويرون أن أهل الخل والعقد ينبعون من تلقاء أنفسهم كما تنبت الدّنيبة في حقول الأرز، فهم نبات شيطاني لا يزرعه أحد . . .

هؤلاء يخدمون هدفا واحدا، أن الأمة قطيع يقوده حاكم فذ، له من أسباب الرغبة والرهبة ما يطوّع له كل شيء. فهم باسم الإسلام يعطونه سيف المعز وذهبه . .

وبديه أن الإسلام براء من هؤلاء المرتزقة، وأن فتاواهم وأفكارهم ليس وراءها فقه ولا إيمان . . .

في تقرير الحق وحده، واستبعاد الملابسات التي تضليل عنه، وتجاوز الأعراف التي تسير العوام على غير هدى، يقول الإمام الشهيد:

«العرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية، بل يجب التأكد من حدود المعانى المقصود بها اللفظ والوقوف عندها، كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظى فى كل نواحى الدنيا والدين، فالعبرة بالسميات لا بالأسماء»<sup>(1)</sup>.

---

(1) الأصل السادس عشر من الأصول العشرين للإمام الشهيد حسن البنا - رحمه الله.

## الإِخْرَافَاتُ النَّفْسِيَّةُ وَالسُّرْنِيَّةُ

الإخلاص روح الدين، وأية الصدق؛ وسياج العمل، وضمان قبوله في الدنيا والآخرة.. وهو عنصر نادر بين الناس، لأننا نقصد بالإخلاص تجريد القصد لله وحده، وابتغاء وجهه الكريم.. وأغلب الناس يدورون حول أنفسهم فيما يعملون أو يتركون، وينشدون مصالحهم الخاصة، أو منافعهم العاجلة.

أساس الإخلاص ذكر الله، والتمهيد للقاء، وانتظار البشري السارّة عندما يقع هذا اللقاء! تصدقوا لقوله تبارك اسمه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مَلَاقُوهُ وَبَشَّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

ومحمد ﷺ أخلص إنسان عرف الله، ودعاه، ودعا إليه.. وقد حدد موقفه من الدنيا في هذا المبدأ: مالى وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كرجل قال تحت ظل شجرة، ثم مضى لشأنه.

وحدّد لما شارط نساءه ألا يتطلعن إلى متاع الدنيا ما دمن عنده، وإلا فليذهبن إلى أهلهن ﴿قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَ تَرْدَنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَتْهَا فَتَعَالَيْنَ أَمْتَعْكُنْ وَأَسْرَحْكُنْ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ وإن كنّت تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منك أجرًا عظيماً<sup>(٢)</sup>.

وهو - ﷺ - بهذا المسلك خالف اليهود الذين عبدوا الدنيا وحدها وجحدوا ما وراءها، وخالف الكهان الذين أكلوا أموال الناس بالباطل، ووعدوا الناس بنعيم الآخرة لينفردوا هم بنعيم الدنيا...

ومع ذلك كله، فإن الإخلاص لله والتجدد للقيم الإسلامية قد يكثران في القاعدة ولكنهما يقلان عند القمة! قد يكثران بين الكاذبين والمحترفين ولكنهما يقلان بين مدمني الحديث عن الدين وعلومه ومثله..

والفساد السياسي في العالم الإسلامي يعتمد على رجال دين باعوا ذممهم للشيطان،

(١) البقرة: ٢٢٣.

(٢) الأحزاب: ٢٩، ٢٨.

وهذا بلاء قديم حاربه الأئمة الواعون والدعاة الصادقون، فإن شهوة الملق عند شيخ منافق أو غلٌ في الفساد من شهوة الزنى عند شاب طائش . . .  
والأفات النفسية المهلكة معروفة لدى علماء التربية .

ومن الإنصاف ألا نجعلها حكرا على الكبار، فقد رأيت فقراء متكبرين وأغنياء متواضعين! ورأيت رؤساء مخلصين وعوام مداهنين! ورأيت ناسا في ساحات العمل للدنيا يستحقون الاحترام، وناسا آخرين يزحمون ساحات العمل الأخرى ويستحقون الطرد . . . !!!

إن القلب السليم هو المحور الفذ للقبول، والله وحده يعلم أين يكون . . .

وقد كنت أحسب أن التزوير أشيع في ميدان التدين، ثم رأيت أنه في ميدان السياسة بارز الآثار، فأدركت أن الأمر ليس أمر مقارنة بين ميدان وميدان وإنما هو معالجة لعلل القلوب، وتقليل لأغوار النفس الإنسانية حتى لا يهرب داء عن أيدي الأطباء . . .

كان علماؤنا الأوائل موفقين عندما قسموا المعاصي إلى معاصي قلوب ومعاصي جوارح، أو بعبير معاصر: معاصي بدنية ومعاصي نفسية . . .

إن المعاصي البدنية شهوات محدودة الخطر - على قبحها وسوء مغبتها - فالإسراف في الطعام مثلاً، يسلب المرء عفته. وربما كانت للبدن تطلعات أشد ضراوة، ومع ذلك فهي أدنى من جنون العظمة أو عبادة الذات التي تقود إلى الفرعنة وقسوة القلب وإهلاك الحمر والنسل في سبيل المجد الشخصي !! .

إن الشعوب دفعت الألوف المؤلفة من أرواح بنائها، والقناطير المقنطرة من كسبها وكدها، لتلبّي طموح زعيم مغorer أو رئيس مغامر، مُقلّ في مواهبه الرفيعة مكثراً في مطامعه السيئة!  
ومعاصي القلوب، أو الرذائل النفسية تسيطر على أصحابها فلا يعرفون منها متاباً، لأنهم لا يحسون دمامتها. وتأمل في موقف إبليس بعد ما عصى الأمر بالسجود، لقد مضى في تحديه يقول الله: أهذا آدم الذي فضلتَه علىَّ؟ «أرأيتك هذا الذي كرَّمت علىَّ لئن أخْرَتْنَ إلى يوم القيمة لأشتَكَنَ ذريته إلا قليلاً»<sup>(١)</sup>.

والاغترار بالنفس أو الدوران حول الذات لا يbedo في طلب الرئاسة بالأساليب القدرة وحسب، كلا، إنه قد يbedo في تنقصُّ رجل معروف أو اعتناق رأي شاذ، أو

(١) الإسراء: ٦٢ .

المكابرة في حوار ، أو ما شابه ذلك من مواقف لأناس يعملون في الميدان الديني أو الميدان المدني على سواء . .

وقد ورد أن هؤلاء أول من تسعّرُ بهم النار يوم القيمة : «**تَلَكَ الدَّارُ الْآخِرَةِ نَجَعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يَرِيدُونَ عَلَوًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَقِينَ**»<sup>(١)</sup> .

وفي ميدان التدين ، تعتبر الطاعات التي يقوم بها هؤلاء ستاراً للنيات مغشوшаً أو ترجمة معكوسه لما يكمن في عقولهم الباطنة . .

روى التاريخ أن أمية بن أبي الصلت كان في الجاهلية كثيراً الثناء على الله والدعاء إلى وحدانيته ، فلما ظهر محمد ﷺ كان من أول الكافرين به ! والرافضين رسالته !

لم يارجل تكفر به ؟ إنه يشنى على الله بـألفاظ أعذب مما كنت تقول ، ويودع في السرائر شعوراً غامراً بـ مجده ، فـما يصرفك عنه ؟

الواقع أن الحسد أكل ضمير أمية وكشف النقانع عن إيمانه المزعوم . لقد كان يؤمن بنفسه لا بربه ، ويذكر باسمه في الجاهلية ليذكره الناس على أنه الرائد العبرى لدعوة التوحيد . وسمع من أهل الكتاب أن نبياً سوف يبعث فتطلع إلى منصب النبوة ، ورشح نفسه لذلك بأبيات من الشعر معتقداً أنها ستعطف عليه القلوب وترغم السماء على اختياره !

فـلما ترافق إـليه أن الله اصطفـى محمدـاً غـضـبـ منـ اللهـ ؛ وـحارـبـ مـصـطـفـاهـ ، وـنـدـمـ عـلـىـ قـصـائـدـهـ التـىـ صـاغـهـ فـىـ حـمـدـهـ . . .

هـذاـ تـدـيـنـ مـدـخـولـ لـاـ قـيـمةـ لـهـ . وـالـغـرـيـبـ أـنـ نـادـجـ مـنـ أـمـيـةـ بـنـ أـبـيـ الـصـلـتـ تـزـحـمـ مـيـادـيـنـ الـعـلـمـ الـدـيـنـيـ ، وـتـلـحـقـ بـهـ أـفـدـحـ الـخـسـارـ . خـذـ مـثـلاـ<sup>(٢)</sup> هـذـاـ الـكـذـوبـ الـذـىـ قـالـ لـرـسـوـلـ اللهـ ﷺ - بـعـدـ مـاـ قـسـمـ بـعـضـ الـغـنـائـمـ عـلـىـ النـاسـ - اـعـدـلـ ، هـذـهـ قـسـمـةـ مـاـ أـرـيدـ بـهـ وـجـهـ اللهـ ! فـتـغـيـرـ وـجـهـ النـبـىـ لـهـذـاـ التـطاـولـ ، وـقـالـ لـلـرـجـلـ : وـيـحـكـ ، مـنـ يـعـدـلـ إـذـاـ لـمـ أـعـدـ ؟ خـبـتـ وـخـسـرـتـ إـنـ لـمـ أـعـدـ !

إـنـاـ لـاـ نـسـتـلـفـتـ النـظـرـ إـلـىـ سـوـءـ أـدـبـ هـذـاـ الـمـرـءـ ، فـهـوـ ظـاهـرـ ، وـإـنـاـ نـسـتـلـفـتـ إـلـىـ مـاـ وـرـاءـ هـذـاـ سـفـهـ مـنـ اـسـتـطـالـةـ وـشـمـوخـ ، فـالـذـىـ يـعـلـمـ الـزـعـمـاءـ لـابـدـ أـنـ يـكـونـ أـعـظـمـ مـنـهـ ، وـالـذـىـ يـتـهـمـ سـلـوكـهـ لـابـدـ أـنـ يـكـونـ أـنـزـهـ وـأـزـكـىـ ! وـذـلـكـ مـاـ يـرـيدـ الـمـعـتـرـضـ أـنـ يـبـرـزـ فـيـهـ وـأـنـ يـتـزـكـىـ بـهـ ، كـأـنـهـ يـقـولـ لـعـلـمـ الـقـيـمـ : أـنـتـ لـاـ تـدـرـىـ فـاسـمـعـ مـنـىـ .

(١) القصص : ٨٣ .

(٢) سبق أن ذكرنا هذا المثل في أسباب الخلاف الفقهى .

ولعله يعود بعد ذلك إلى أهله ليقول في كبراء: لقد أقيمت على محمد درسا  
يستحقه !!

وهذا الغبي لو كان طالب حق لسأل النبي ﷺ عن أسباب التفاوت في الأعطيية،  
وسيسمع الإجابة: إنى أعطى الرجل - وغيره أحب إلى - مخافة أن يكبه الله في النار.  
إنى أعطى قوماً أتالفهم وأكل آخرين إلى ما في قلوبهم من إيمان.

إن بعض الناس يقاد من بطنه فهو يلقى إليه طعاماً، والبعض الآخر يقاد من عقله  
فحسبه معه الآيات وروابط القلوب !!

ولقد عرض عمر أن يقتل هذا المنافق المتطاول، ولكن الرسول أبى، واكتفى بوصف  
دقيق لهذا الصنف من الناس كى يحذر المؤمنون ..

إنهم ناس سيطرت عليهم علل نفسية خبيثة، وبدل أن يستشفوها منها استبقوها  
وستروها بمزيد من الهممـة والركوع والسجود.

وعندما يكون المرء بخيلاً مثلاً، فعلاج شحه أن يتعلم الكرم ويتعوده فيصبح على مر  
الأيام إنساناً طبيعياً، أما أن يلتجأ إلى الصلاة الطويلة كى تخفي نقاصه فذاك لا يجديه،  
وسيقى بخيلاً ولو صلى آناء الليل وأطراف النهار ..

وهؤلاء المرضى بالشذوذ والحدق يكثرون من التلاوة وصور العبادة، ويتهزون  
الفرص التي تتنفس فيها طباعهم فيضربون ضربتهم، وقد كانوا كثراً في جيش على بن  
أبى طالب، ولكنهم شغلوا علية عن هدفه حتى انهزم، وكانت صيحتهم لا حكم إلا  
لله! وكان تعليق على: «كلمة حق أريد بها باطل» !!

إن المتدينين من هذا الصنف الغاش بلاء على الدين، وعقبة أمام امتداده.

كان ابن عمر يراهم شراراً للخلق، وقال: «إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار  
فجعلوها على المؤمنين»!

وذلك لرداة فقههم وعوج منطقهم! وفي التنبية إلى غائبهم في فهم النصوص  
وسوء تطبيقهم لأحكامها جاء الحديث عن على رضي الله عنه: سمعت رسول الله  
ﷺ يقول: «سيخرج قوم في آخر الزمان حداث الأنسان سفهاء الأحلام يقولون من  
خير قول البرية (!) لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يرقو من الدين كما يرق السهم من  
الرمية»<sup>(1)</sup>.

(1) متفق عليه.

أى لا يعلق بخلقهم وعملهم شيء من لب الدين إنما هي صور عبادة، وصوت قراءة، إلى جانب فظاظة في الأخلاق، وقساوة في الأفئدة وقبحة في الأعمال!!  
وليس هذا من الدين في قليل ولا كثير . . .

### قلوب قاسية:

قسوة القلب وعماه لعنة إلهية تهبط على رءوس الناقضين للمواثيق، المارقين من التقوى، اللاعبيين بالإيمان. قال تعالى: «فِيمَا نَقْضُهُمْ مِّيثَاقَهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً»<sup>(١)</sup> . . .

ومظهر القسوة في سلوكهم اعتداد بالشخصية لا يعرف التواضع، وميل إلى اتهام الغير لا يقبل العذر، وفرح بافتضاح المخطئين مليء بالشماتة!

وتلك كلها خلال تنافي الإيمان، فالإيمان إنكار للذات، وحب للغير، وستر على المخطئ، وسعى لإقالته من عثرته، وسرور غامر بتوبته.

الإيمان سعادة بالرخاء يشيع بين الناس، وألم للكوارث التي يقطب لها الجبين، ولو كان هذا أو ذاك خبرا ينقل لا علاقة لشخصك به . . .

لقد عنانى أمر العلل النفسية أو معااصى القلوب لأنى اكتويت بنارها، ورأيت من أدعىاء التدين ما يدعى للجزع . . .

اتهمنى أحد الناس بإنكار السنة! قلت: ويحك! ما تقول؟ قال: رفضت حديث مسلم فى تعذيب «عبدالله» والد الرسول ﷺ !

قلت: ثم ماذا؟ قال: ورفضت حديث البخارى فى المراج الذى يقول: دنا الجبار فتدلى، وقلت: الذى دنا الملك جبريل . . .

ثم ماذا؟ قال: ورفضت حديث البخارى أن الرسول أغار على بنى المصطلق وهم غارون بحجة أن إعلان الحرب لم تسبق دعوة إلى الإسلام، مع أن الحديث نص على أن الدعوة ألغيت، وأن الحرب تعلن دون دعوة . . .

ثم ماذا؟ قال: وأنكرت حديث أنس «ما من يوم يجيء إلا والذى يليه شر منه»، وهو من رواية البخارى . . .

قلت: أبقى لديك شيء؟ قال: لا وماذا بعد هذه التهم التي تكشف حقيقتك، وتسقط مكانتك؟

قلت: إن لى من ستر الله ما يحمينى إن شاء الله وعليك - أنت وأمثالك - من خذلان الله ما يطفئ ناركم، ويقى الناس أحقادكم ..

لقد ذكرت تهمة كبيرة، ولم تجئ عليها بدليل .. إن رد حديث ما لعنة فيه، أو لدليل آخر من الكتاب والسنة لا يسمى تكذيباً للسنة. إنه دفاع عن السنة وتصحيح للتراث، سبق إليه جمهور الأئمة، ولا أطيل بعرض الأمثلة، وإنما أكتفى برد ما قلته عنى!

أما حديث مسلم في تعذيب أبي النبي عليه السلام، فقد رجحنا عليه الآية ﴿وَمَا كَانَ مَعْذِبَيْنَ حَتَّى نَبَعَثْ رَسُولًا﴾<sup>(١)</sup> وقد روى مسلم أن صلاة السفر ركعتان وصلاة الخوف واحدة! وذهب الجمهور إلى غير ذلك، فرأى أن صلاة الخوف ركعتان في الرباعية والصبح، وثلاث في المغرب، مرجعاً السنن الأخرى إلى الآية ﴿وَمَا كَانَ مَعْذِبَيْنَ حَتَّى نَبَعَثْ رَسُولًا﴾<sup>(٢)</sup> ..

ولم يتهم الذين ردوا حديث الركعة الواحدة بشيء!!

أما القول بأن الذي دنا وتدلى هو الله - سبحانه - فإن ذلك خلط من الرواوى «شريك عن أنس بن مالك»، وقد تعقب العلماء البخارى في هذه الرواية وردوها ولم يتهم أحدهم بشيء ..

وأما القول بأنه لا دعوة إلى الإسلام قبل إعلان الحرب فرأى منكر، توهمه أحد الرواية وليس من قول الرسول. وقد صحت الأحاديث والتطبيقات الإسلامية بضرورة الدعوة قبل القتال. من أجل ذلك قلنا: إن حديث البخارى يجيء في المرحلة الأخيرة من المعركة، ولا يصح سوقه في وصف الدور الأول منها.

وأخيراً حديث أنس «لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه»<sup>(٣)</sup>. لقد رجحنا عليه حديث: «مثل أمتى كمثل الغيث لا يدرى أوله خير أم آخره»<sup>(٤)</sup>، وحديث: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من عاداهم حتى يأتي أمر الله»<sup>(٥)</sup>، وسنتن كثيرة ..

وأريد أن أسأل: ما غرامكم في القول بأن الأمة الإسلامية في هبوط مستمر، وأن كل يوم يجد يقربها إلى الهاوية؟ وما غرامكم في القول بأن المحاربين المسلمين قطاع طريق يغبون على الناس فيأخذونهم على غرة؟ وما غرامكم في القول بأن الله هو

(١) الإسراء.

(٢) آية صلاة الخوف في سورة النساء.

(٣) البخارى: الفتن.

(٤) أحمد والبزار والطبرانى.

(٥) متفق عليه.

الذى نزل بالوحى على نبئه لا جبريل؟ وما غرامكم فى ملء المجالس بأن والد محمد فى النار؟!

إنكم فى الفقه أصفار! لا فى العير ولا فى النفير. وهذا الجهل مقبحة محدودة، أما المقبحة التى لا تحد فهى اشتهاؤكم لذم الناس، والتماس العيب للأبراء.

إنكم تطلقون كالزنانير الهائجة تلسعون هذا وذاك باسم الحديث النبوى والدفاع عن السنة!

ونحن نعرف أن آباءكم قتلوا علينا باسم الودة الإسلامية، وقتلوا عثمان باسم الدفاع عن التزاهة الإسلامية، وقتلوا عمر باسم الدفاع عن العدالة الإسلامية، فيا أولاد الأفاغى إلى متى تتسترون بالإسلام لضرب الرجال الذين يعيشون له ويجهدون لنصرته؟! وحساب من تكون هذه الضغائن عليهم، وتسعون جاهدين للإيقاع بهم وتحريش السلطات عليهم<sup>(١)</sup>؟؟؟

فى عصرنا هذا ينبع كثير من الصحافيين والإعلاميين فى دراسة النفس البشرية والغوص وراء أسباب السلوك ووصف الإنسان عاريا عن الحجب أو التزاويق التى يستخفى وراءها.

وقل أو انعدم التعويل على المجادلات اللغظية أو أخذ الطريق على الخصوم بالصياغ المفتعل ..

إن كثيرا من الخصومات الفكرية القديمة فى علم الكلام كان مظهرا للعلل النفسية أكثر مما هو لخدمة الإسلام ..

وقد رأيت ناسا من هذا الصنف يعملون فى الميدان الدينى، نجحوا فى الهدى ولم ينجحوا فى البناء، وقطعوا الطريق على أناس صالحين، وفشلوا فى إرشاد نفس حائرة.

ذكرت هؤلاء المعلولين من الناس، وأنا أقرأ كلمة جيدة للأستاذ مصطفى أمين يقول فيها: «عرفت جبناء يخافون من أشباحهم ويرتعدون رعبا إذا رأوا فأرا يجلس على كرسى، وتسيب مفاصلهم أمام غضب عمدة أو تهديد مأمور!

---

(١) ألف شخص مخبول رسالة زعم فيها أنى أحارب السنة متاثرا بتعاليم المستشرقين وأعداء الإسلام! وبذل جهودا هائلة فى توزيعها بالمجان هنا وهناك! ترى من وراء هذه الحملة؟ لم أجد شيئا أقوله إلا ترديد الحديث الشريف: إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

وعرفت شجاعانا تطول قامتهم أمام العواصف . يثبتون في مواجهة الأعاصير .  
يذهبون إلى الموت وكأنهم يذهبون إلى حفلة شاي !

و كنت ألاحظ دائماً أن الجن لا يؤمن إلا بنفسه . إلهه في داخله . يتبعده ويصل إلى له ولا يشرك به أبداً . ولهذا فهو خائف على رزقه ، وخائف على وظيفته ، وخائف على حياته . يعيش طوال حياته خائفاً ، من كل شيء ، لا يطمئن إلى شيء ولا يثق بشيء . ولهذا فهو يرى الجن هو المخا الذي يتحصن فيه من أخطار الحياة !

ولم أر في حياتي جبانا وصل إلى المقدمة . لابد أن يتعلق بذيل صاحب سلطة ، أو صاحب جاه . وهو ليست لديه الشجاعة أن يتقدم خطوة ، فهو إذا قدم ساقاً آخر ساقاً ، ولهذا يبقى في مكانه طويلاً ، وإذا دفعته الأيام إلى الأمام عاش صغيراً في المكان الكبير ، وتصرف كما يتصرف الصغار . يدس ولا يواجه . يضرب من الخلف ولا يقاتل من أمام . يهمس ولا يرفع صوتاً . لأنه أجن من أن يعلن رأيه . وهو في أغلب الأحيان لا رأي له فهو يقبل على الشمس إذا أشرقت ويدير لها ظهره إذا غربت .

و خوفه يجعله يتضاءل . ويرى خصومه يكبرون ويتعاظمون . ولو كان شجاعاً للرأي الناس بأحجامهم الحقيقية . وهو له قامة تساوي قامة الناس ، ولكن في داخله دودة الجن التي تجعله يحس أنه دودة صغيرة ، ولهذا يتضاءل ويصغر وينكمش . . .

والشجاع لا يخاف إلا الله . إذا حارب حارب في النور ، وإذا آمن برأي أعلنه ولم يكتمه ، وإذا اعتنق عقيدة قاتل من أجلها . والذين في قلوبهم الإيمان يشعرون بقوة هائلة ، تقتحم الأهوال وتواجه الأعاصير وتحتمل المحن والخطوب . والإيمان يصنع من القزم عملاقاً ، والجن يحول العملاق إلى قزم صغير ! الإيمان يمنح الإنسان جيشاً يحارب معه . والجن يجرد الإنسان من كل سلاح ، فيستسلم قبل أن يدخل المعركة ، ويرفع الراية البيضاء عندما تطلق الرصاصات الأولى » .

إن أمراض القلوب شيء بالغ العفن ، وهي بين المستغلين بالقضايا الدينية قذى لا يطاق !!

وقد تخصص هؤلاء في الشئون الخيالية ، والنواحي الجانبيّة . أما قضايا الأمة الكبرى فلا اكتراث بها .

إن تزوير انتخابات واغتصاب إرادة الجماهير شيء لا يستحق التفكير الطويل !  
إن سرقة ثروة بلد وتبيدها في ملذات فرد شيء لا يستحق التفكير الطويل !

إذن ما الذي يستحق التفكير؟ وتحمل رأية الجهاد من أجله؟ القول بنجاسة<sup>(١)</sup> ريق الكلب وعرقه، القول بأن الكلب الأسود شيطان يقطع الصلاة، ولو كان هؤلاء الناس موجودين مع فتية أهل الكهف لاشتبكوا معهم في معركة حامية لماذا يصحبون معهم كلبا؟!

ولا يزعجنا شيء كانتقال هذه الغباوة إلى بعض المتعلمين في شتى العواصم!  
مزيج من الجهالة والكبراء أساسه الانشغال بلا شيء والذهول عن أهم شيء.  
وهؤلاء المرضى المعتوهون يفهمون في المرويات فهما ما، ثم يقولون: هذا هو النص! ما نراه نحن هو رأى الله ورسوله، أى حكم الله ورسوله!  
ومعنى ذلك أنك حين تقاومهم تقاوم الإسلام نفسه وتحارب الله ورسوله. وهذا هو البلاء المبين . .

ونقول جادين: إن الإسلام لن يحكم، ولا يجوز أن يحكم إذا كان أولئك العميان قادة قافتله والمتحدثين باسمه، فإن أمراضهم النفسية والفكرية تتحقق دين الله ودنيا الناس على سواء . .

الإسلام نور وهؤلاء ظلمة، إنه طهر وهؤلاء قذى!!  
إن المسلم الحقيقي رجل سوى التكوين الفكري والخلقى، معافي من الأدواء التي تجر التخلف والانحلال .

وفي هذا المعنى يقول الإمام الشهيد: «العقيدة أساس العمل، وعمل القلب أهم من عمل الجارحة، وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب شرعا، وإن اختلفت مرتبتا الطلب»<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

---

(١) مسائل فقهية موضع خلاف، وهي عندهم شبه عقائد.

(٢) الأصل السابع عشر من الأصول العشرين للإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله.

## المسارى التلقائى للأذمة الإسلامية

من خصائص الإسلام الأولى أنه دين يقوم على العقل، ويحترم منطقه، ويبينى الإيمان على التفكير الصائب والنظر العميق . . .

والتواافق بين صريح المعقول وصحيح المنقول أمر مقرر في ثقافتنا التقليدية على اختلاف مدارسها. وكما يقول العقاد: التفكير فريضة إسلامية . . .

ودعوة القرآن الكريم إلى النظر مطلقة لا يحدوها حد ما دام ذلك النظر ممكنا، وما دام يؤدى إلى نتيجة صحيحة: «أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلْكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ»<sup>(١)</sup>. إن دائرة النظر رحبة تستوعب كل شيء ولا قيد عليها إلا ما ينفي الخطأ ويضمن اليقين . . .

كان يستلطفنى - وأنا أتدبر القرآن - هذا التمازن بين الفكر والشعور أو بين العقل والعاطفة أو بين الإيمان والسلوك !

خذ مثلا هذه الآية الكريمة: «أَلَمْ ترَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيَرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَاتٍ لِكُلِّ صَبَارٍ شَكُورٍ»<sup>(٢)</sup>. هذه سفن تشق عباب الموج حاملة أثقالا من السلع والمعادن والمؤن يتضررها الناس من شاطئ لشاطئ، ألا يحتفى بهذا الفضل؟ ألا يشكر سائق هذه النعماء؟ ألا يورث ذلك إيمانا حسنا يلقى السراء بالشكر والضراء بالصبر؟

إن سير السفن في الماء، أو في الهواء، حافلة بالقناطير المعنطرة من الخيرات التي كرم الله بها بني آدم، شيء يدل على القدرة العليا أولا، وعلى الفضل الأعلى أخيرا، فلم لا يكتثر الناس لذلك ويعرفون صاحبه ويستكينون لحكمه ويحسنون الإيمان به؟

وقد أحصيت في القرآن الكريم «أولى الألباب» فوجدتها تكررت خمس عشرة مرة. وأولو الألباب هم أصحاب العقول، لأن العقل هو لب المراء وما عداه قشر . .

(١) الأعراف: ١٨٥.

(٢) لقمان: ٣١.

ولسنا هنا بصد شرح الكلمة في المواطن التي جاءت فيها، ولكننا ننبه إلى أمر خطير: أن العقل مناط التكليف، وأن الذكاء أساس الوعي، وأن الدين لا يكمل مع القصور في العقل والقلة في الذكاء، وأنه لابد من ملكات إنسانية رفيعة لكي تعرف الله وهديه، وتفقه توجيهه ووحيه.

وأن الهمم قد يسقطون دون مستوى الخطاب، وأن الشعوب البلياء قد تشد الدين نفسه إلى أسفل، بدل أن يصعد بها إلى أعلى! وهذا الطامة..!

العقل أثمن ما وبه الله لعباده وهو لا يولد تماماً ناضجاً، وإنما يتم وينضج بوسائل شتى تعالج بها معادن الرجال والنساء، فإذا لم تتوافر تلك الوسائل كان التخلف والقصور، واحتقني أو ندر أولو الألباب الذين يقدرون على الإفادة من الدين..!!

نعم، إن الإزراء على الدين كثيراً ما يقع لسوء الحكم - أعني الاستنتاج - أو لعوج الفهم، وذاك ما جعل أبا العلاء يتشاءم ويغرق عندما يقول:

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له!!

ويحزنني أن أذكر هنا أن أعداداً كثيفة من المتممرين إلى الدين فقيرة إلى سعة الإدراك والنفذ إلى الأعمق، وعمل هؤلاء في ميادين الدعوة يضر أكثر مما ينفع..

وقد أجمعت الأم على أن تصحيح العقل وترشيد حكمه لابد فيه من مراحل تعليمية ابتدائية ومتوسطة وعالية قد تستغرق بضعة عشر عاماً..

ثم إن المعرف المستفادة صنوف شتى، فهناك علوم الكون والحياة، وأسرة العلوم الرياضية، وأسرة العلوم الإنسانية..

وال المسلم إنسان يضم إلى معرفة كل نافع من شئون الدنيا معرفة أخرى جليلة القدر غزيرة الأجر: كتاب ربه وهدى نبيه..

وهذا النوع من الثقافة الدينية يصور فلسفته في الحياة ومنهجه الفذ بين المناهج التي اختطتها جماهير الناس..

وعندى أن علماء الإسلام يجب أن تكون لهم أقدام راسخة في كل مجالات المعرفة، وأن تكون إحاطتهم بالذاهب الجائرة أكثر من إحاطة أهلها..

ومنزلة علوم الكون والحياة في إنجاح الجهاد الإسلامي لا ريب فيها، ومن أجل ذلك فإن التفوق فيها أولى من معرفة فروع شتى في فقه العبادات والمعاملات! إن صيانة الأصل أرجح وأهم..

وهناك أنواع من العلم ليس أحد أولى بها من أحد، لماذا نتركها لغيرنا ولا نجود نحن فيها  
أو نقلها إلى ربوعنا؟

إنه لا حرج على المسلمين لو ساحوا في أرجاء القارات، واطلعوا على أحوال  
الخلائق وراقبوا أحوال الشعوب والحكومات، ثم انتقوا مما يرون الأساليب الإدارية  
والنظم الحضارية التي تخدم مثلهم وتحقق أهدافهم . . .

وأرى أن ذلك أوجب بعدما تعفنت الأوضاع السياسية والاقتصادية لدينا في عصور  
الجمود والتخلف .

تلك العصور التي غلت على تاريخنا وأوهنت كياننا ثم أسقطت خلافتنا ومزقتنا  
كل ممزق .

### مصارحة:

وأجدني قد بلغت في الحديث مرحلة توجب المصارحة، فإن النفاق في محاسبة  
النفس لا يحدث توبة للفرد ولا نهضة للجماعة!

لقد سلخ الإسلام من عمره المديد أربعة عشر قرنا، وبلغ مرحلة في يومه هذا  
توجب على أولى الألباب أن يتوقفوا ويتساءلوا: ماذا عرانا؟ وكيف الخلاص؟  
أجل، ما الأحوال داخل دار الإسلام، ووراء حدودها المترامية بعد هذه الرحلة  
الشاقة؟

إننا نؤمن أننا على الحق! الله واحد لا شريك له! أين هذا الشريك إن وجد؟  
محمد حق! إنه على قمم البشرية طيبة نفس، وإشراق عبادة، وسناء خلق، ونزاهة  
جهاد!

وإذا لم يكن محمد رسولا يجيد تعريف الناس بربهم واقتiadهم إليه بالأسوة الحسنة  
فمن - من الأولين والآخرين - يصلح لاصطفاء السماء وإمامنة الخلائق؟!

إن المغفلين الذين خدعتمهم أجهزة الزور يحسبون أننا نتبع محمدا عن تقليد ساذج!  
إن بقاءنا على الإسلام هو تقديرنا للحقيقة مهما أحاط بها من ملابسات رديئة . . .  
والأذن بعد هذا التوكيد لصلتنا بديننا أسأل نفسى وقومى: أكنا أوفياء لهذا الدين  
خلال الأعصار الماضية؟ أكنا عند أمره ونهيه عندما جاءت القرون الأخيرة فإذا قوى  
الشر تجتاح الحدود وتستبيح البيضة وتقتحم عقر الدار . . .؟

لقد كان النظام الإسلامي أشبه بسكران يترنح ذات اليمين وذات اليسار، يسقط حيناً ثم يقوم من المohl معفراً بالأقدار فلا يتقدم خطوة إلا تراجع خطوات، مثيراً للضحك حيناً ولللامتناز أحياناً . . .

ما عَمِلْنَا بِدِينِنَا فِي الدَّاخِلِ، وَلَا شَرْفَنَا سَمِعْتَهُ أَوْ دَعْوَنَا إِلَيْهِ فِي الْخَارِجِ!

ويجيء سؤال آخر: ماذا كانت عليه أحوال غيرنا؟

لقد انطلق وراء عقله يشق الطريق ببساطة شديدة، ويحطم الخرافات الدينية التي آدته دهراً، وثابر على أعباء الرقى حتى بلغ في خمسة قرون مكانة غزا فيها الفضاء بعدما كاد يملك ناصية الأرض!

وجاءته النصرانية معتذرة عن موقفها منه وعرضت عليه خدماتها، فقبل العذر، وصالحتها على خدمة هواه.

وواجهنا نحن موقفاً شديداً التعقيد، كنا في السفح وهو في القمة، كانت طاعتنا لله تمثل في عبادات مبتدعة ما أنزل الله بها من سلطان، أو في عبادات تافهة كبرّناها ألف مرة عن حجمها الحقيقي لتتملاً الفراغ النفسي والاجتماعي الناشئ عن غيبة الدين الحق . . . !! فلما تلاقى الجمعان صرنا هباء وصرنا سدى !!

إننا - نحن المسلمين والعرب - خُنا ديننا خيانة فاحشة، فلم نحسن النظر في شيء مع صرخة الوحي حولنا «أولم ينظروا في ملوك السموات والأرض وما خلق الله من شيءٍ<sup>(1)</sup>؟

وكان التسليحة أن جاء من وراء الحدود - حدود دار الإسلام - من استخراج النفط من أرضنا، ومن إقامة الجسور على أنهارنا، ومن صنع لنا حتى الإبرة التي نخيط بها ملابسنا . . .

ما كنا نحسن من شئون الدنيا شيئاً نسديه لأنفسنا أو ندعم به إيماننا!

ولترك ذلك، فإن أحداً لا يكابر في هذا التخلف، ولا في ضرورة الإفادة العملية من سبقونا في آفاق الحضارة المتصررة.

ولنتنقل إلى ميدان آخر . . لقد جَأَرْت بالشكوى في هذا الكتاب وفي كتب أخرى من تخلفنا الفقهي والعملي في الشئون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ومن انحسار الفقه الإسلامي داخل حدود ضيقية إن تجاوزت بيوت الماء، فإلى ساحة المسجد، وقد تتدخل في شئون الحارة أو القرية . . أما دواعين السلطة، ومشكلات المال، ومفاصل الحياة الحقيقية للمجتمع والدولة، فإن الفقه لا علاقة له بها . .

(1) الأعراف: ١٨٥.

ونتج عن ذلك أن الاستبداد السياسي عَرَبَ دون حذر ، وأن الخلل الاقتصادي شاع دون علاج .

وأن الأعصاب التي تشدُّ الكيان الإسلامي استرخت ثم انقطعت ، ورثاه المسلمون بعضهم عن بعض .

وأن الشخصية المعنوية للأمة الإسلامية ولرسالتها الكبرى تلاشت في طول الدنيا وعرضها .

### **الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها:**

ثم ازداد قتام المأساة الهائلة بوجود فقهاء - أعني ناساً منسوبين إلى الفقه - يذرفون الدمع لأن التصوير الشمسي انتشر ، أو لأن التلفزيون دخل كل بيت ، وتقاسموا بالله لا يظهرون أبداً في هذا الجهاز !

فإذا حدثت هؤلاء أو حدثت من هو أنظف فكراً عن الدساتير التي تقييد الحاكمين والقوانين التي تطمئن العاملين ، نظر إليك بغباؤه هائلة ، وأشعرك أنك تتحدث معه في غير الإسلام .

وتسمع بعاماً بين هذه القطعان المنسوبة إلى الإسلام ، أن الموسيقا حرام ، وأن صوت المرأة عورة ، وأن هذه القضايا هي مشكلات الساعة ، بل هي - مع سدل اليدين أو قبضهما في الصلاة - مشكلات الأزل والأبد !!

وقد تجاوزنا هذا الهراء كله لنضع أمتنا على طريق النهوض الصحيح ، واحتاج ذلك بداعه إلى دعم مؤسسات الشورى ونزع أنياب الاستبداد ، وفرض رقابة صارمة على تداول المال بين الأيدي . .

ولم يكن بد من الانتفاع من تجارب غيرنا لأن فقهاً المحمد من قرون لا يلبى الحاجات الطارئة . .

وهنا وجد من يقول : لا أخذ فكراً من أحد !

قلت : لا نستورد العقائد ولا الأخلاق ، ولكن الخطط التي تخدم أهدافاً مشتركة لا معنى لنبذها إذا كانت تفيدنا . .

قالوا : ما تعنى ؟ قلت : الظلم قبيح عند الناس كلهم ، فإذا تحصنت أمة منه بطريقة حسنة فإن دينى لا يمنع نقل هذه الطريقة !!

قالوا: ووضح مقصودك فهو غامض . قلت<sup>(١)</sup>:

لقد رأيت في أوروبا وأمريكا دولاً شتى تشرع قوانين دقيقة لضبط سياسة المال والحكم ، وذلك لأنها تعرضت لنزوات الجور والأثرة والطغيان وكما قال الشاعر :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

إذا وجدنا مجتمعات بشرية حصنت نفسها من هذه المأسى ، فلماذا لا نقتدي بها أو نقتبس منها؟ في تلك الطرائق المجرية خير نحن بحاجة إليه . . . !!

قال لى البعض : هذا ما تخافه منك ، إنك تستورد الإصلاح من منابع بعيدة عن ديننا وتراثنا ، ونحن أغنياء عن مقتراحاتك تلك . . . !

قلت : تمنيت لو كانت غيرتك هذه في موضعها . إنني معتز بديني ولله الحمد ، ولكن ليس من الاعتزاز بالدين أن أرفض الجهاد بالصواريخ والأقمار الصناعية لأنها بدعة . إن التفتح العقلى ضرورة ملحة لكل من يتحدث في الفقه الإسلامي .

إننا في صمت نقلنا تسجيل كل مولود في دفاتر خاصة ، واستعينا بذلك على تحصينه من الأمراض ، وإلهاقه بمراحل التعليم ، واقتياده للجيش لكي يتم تدريبه وإعداده للقتال ، وذاك إجراء نقلناه عن دول أخرى دون حرج ، فلماذا يمنع الفقيه المسلم من قبول كل وسيلة أصيلة أو مستوردة لتحقيق الغايات التي قررها دينه؟

إن النقل والاقتباس في شئون الدنيا ، وفي المصالح المرسلة ، وفي الوسائل الحسنة ، ليس مباحاً فقط ، بل قد يرتفع الآن إلى مستوى الواجب ..

لقد رحبت بالصيحات التي تعلو بالإسلام وحده فما لنا غيره من دين ، وانضمت بفؤادي وجوارحي إلى الذين يعادون الغزو الثقافي ويعترضون مساربه الجلية والخفية . ولعلى من أوائل الذين تصدوا لهذا الاستعمار الخبيث ، وفضحوا خبایاہ .

بيد أنى شعرت بجزع عندما رأيت بعض الناس يصف «الديمقراطية» بالكفر ، فلما بحثت عما معه لكتابة الجماهير وكبح الاستبداد الفردي وجدت عبارات رجراحة يمكن إلقاءها من منبر للوعظ !

ورفضت هذه التهويات ، فقال لى أحد الأذكياء : لقد وضع الشيخ النبهانى دستوراً على النحو الذى تريده ! فقلت له على عجل : لقد قرأته ، والفرق بينه وبين الدستور المدنى الذى حكم مصر من سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٥٣ بعيد بعید .

(١) من محاضرة عنوانها «ضوء على تفكيرنا الدينى فى مطلع القرن الخامس عشر» ، قدمت إلى «ملتقى الفكر الإسلامي المعتقد» فى الجزائر العاصمة سنة ١٤٠٠ هـ .

إن هذا الدستور الموصوف بالإسلام يحقق من مبادئ الشورى وإحقاق الحق وإبطال الباطل وضمان الحريات والمصالح العامة ١٠ في المائة . . أما الدستور المستورد المبادئ فهو يحقق ٩٠ في المائة من الأهداف الإسلامية .

إنه لما يشير الآلام أن عددا من المتدينين لم يزل يستقى ثقافته من كتابات ظهرت وشاعت أيام الأضمحلال الفكري في تاريخنا، أو أيام الموالاة للظلمة، أو على أحسن وصف أيام بعد عنهم والخروج بالصمت عن لا ونعم . . !! .

إنى عندما أدفع عن الحق لا أفضل العصا الوطنية على المدفع الأجنبي ، فإن التعصب للجهل والقصور بلاهة وسخف !!

وأعلن أن هواي أبدا مع كتاب الله وسنته رسوله . أما فكر الرجال بعد ذلك فلا قداسة لأحد .

من أجل ذلك ، شعرت بشيء من التوقف لما قال الأستاذ محمد قطب في الجزء الثاني من كتاب التربية الإسلامية : « وكل الدعوات الزائفة التي تلتهم الناس في الجاهلية - والشباب بصفة خاصة - لا اعتبار لها ولا وزن عند المسلم الذي يتربى على منهج التربية الإسلامية ، لأنه يزنها بميزان الله - أعني الإسلام - فلا يجد لها ذات وزن !

وحتى حين تتلبس هذه الدعوات بالإسلام فإنها لا تخدع المسلم الحق - أو لا ينبغي أن تخدعه - لأن كتاب الله يحمل إليه توعية كاملة في هذا الشأن . . شأنه في كل أمر من أمور الحياة الأساسية :

﴿وَأَنْ أَحْكِمْ بِيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبَعَ أَهْوَاءِهِمْ وَاحذِرُهُمْ أَنْ يُفْتَنُوكُ عنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تُولِوا فَاعْلَمُ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصَيِّبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أَفَحُكُمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقَنُونَ ﴿١﴾ !

والذين يقولون في دعاواهم : نأخذ من الإسلام كذا ، ومن الديمقراطية كذا ، ومن الاشتراكية كذا . . وننظر مسلمين ، يقول الله في أمثالهم :

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفِرُونَ بِبَعْضِ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خَزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْدُونَ إِلَى أَشَدِ العَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢﴾ .

وهكذا تنضبط مشاعر المسلم وعواطفه ، وتنضبط حركته كذلك في خضم التيارات » .

(١) المائدة : ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) البقرة : ٨٥ .

إنني مع احترامي الكبير للأخ الداعية المخلص محمد قطب، أرى أن هذا الكلام يحتاج إلى ضوابط. الديمقراطية مثلاً ليست ديناً يوضع في صف الإسلام. إنها تنظيم للعلاقة بين الحاكم والمحكوم نظر إليه لنطالع كيف توافرت الكرامة الفردية للمؤيد والمعارض على سواء، وكيف شيدت أسواراً قانونية لمنع الفرد أن يطغى، ولتشجيع المخالف أن يقول بملء فمه: لا.. لا يخشى سجناً ولا اعتقالاً..

إنها تنظيم سياسي لا يجعل إعلان الحرب مسلة حاكم متفر عن يطلب المجد لشخصه، أو إنفاق المال العام هوادة متلاط يطيع هواء، ولا يخشى حساباً..

إن ديننا يقول: «لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق، ولا يأخذ الضعيف فيها حقه من القوى غير متعتع»، فكيف يتحول هذا الكلام النبيل إلى نصوص قانونية ملزمة تجعل رجل الشارع يقاضى ساكن البيت الأبيض؟

إن الاستبداد كان الغول الذي أكل ديننا ودنيانا، فهل يحرم على ناشدى الخير للمسلمين أن يقتبسوا بعض الإجراءات التي فعلتها الأمم الأخرى لما بليت به مثل ما ابتلينا به!

إن الوسائل التي نخدم بها عقائدها وفضائلنا هي جزء من الفكر الإنساني العام لا علاقة له بالغاية المنشودة، وقد رأينا أصحاب الفلسفات المتناقضة يتناقلون الكثير في هذا المجال دون حرج..

الخرج كله أن ندع ديننا، وأن نزهد في أصوله وقيمه، إيثاراً للوجهة أخرى مجذوبة من الشرق أو الغرب، ولذلك قلت في كتابي «حصاد الغرور» ناعياً على المفتون بالماهاب الأخرى:

هب أن ثورة قامت في جنوب اليمن تجعل الحياة الصينية أو الروسية مثلها الأعلى، أ تكون هذه الثورة نهضة إسلامية؟ أم تكون نجاحاً للفكر الشيوعي العالمي؟! إنها انسلخت عن الإسلام وارتدت غيره يقيناً، ووجودها نصر للشيوعية وهزيمة للإسلام. إن الشعوب الإسلامية لا تبدأ نهضة صحيحة، تكون امتداداً للتاريخها، وإبرازاً لشخصيتها أو نماءً لأصولها وتبنيتها ملامحها. إلا إذا جعلت الإسلام هدفها وسياجها..

ومن الغلط تصور أنى أحرم الاستفادة من تجارب الآخرين ومعارفهم!! كيف وهؤلاء الآخرون ما تقدموا إلا بما نقلوه عن أسلافنا من فكر وخلق ووعى وتجربة..؟!

إن دولة الخلافة الراشدة اقتبست في بناء النظام الإسلامي من مواريث الروم والفرس دون غضاضة..

وعندما أكل أطعمة أجنبية أنا بحاجة إليها فالجسم الذي نما هو جسمى ، والقوى  
التي انسابت في أوصاله هي قوائى !!

المهم عندي أن أبقى أنا بمشخصاتي ومقوماتي !!

المهم أن أبقى وتبقى في كيانى جميع المبادئ التي أ مثلها والتي ترتبط بي وأرتبط بها ،  
لأنها رسالتى في الحياة ، ووظيفتى في الأرض . هذا هو مقياس النهضة ، وآية صدقها  
أو زيفها ، فهل في العالم الإسلامي نهضات جادة تجعل الإسلام الحنيف وجهتها  
والرسول الكريم أسوتها؟ نعم ، توجد جماعات تسعى لذلك ، ندعمها بكل ما أوتينا  
من قوة .

إننا هنا شديدو الحرص على جعل البناء الجديد ينهض على هاتيك الدعائم . . .  
وإذا كنا نستورد من الخارج ثمرات التقدم الصناعي ، ونتفع من خبرات غيرنا في  
آفاق الحياة العامة ، فليكن ذلك في إطار صلب من شرائنا وشعائرنا . . .

### العقل ومكانته:

والعقل المستنير هو وحده الذي يصر أدوات النجاح ويقربها ، ويسفني أنه عنصر  
نادر بين نفر من المستغلين بالقضايا الإسلامية . . .

إنه ليس من العقل أن نغمض العين على مفاسد الحكم الفردي عندنا وننظر بازدراء  
إلى الضمانات التي توافرت لصلاح الحكم في بلاد أخرى .

إنه ليس من العقل أن نحمد الجهاز الفقهي عندنا قرونًا طويلاً ، ثم نتعى على الذين  
اجتهدوا وتصبب عرقهم وهم يضبطون سياسة الحكم والمال في بلادهم . . .

إننا مكلفون أمام الله أن نخترع الوسائل التي نعلى بها شعائرنا ، سواء هدى إليها غيرنا أم  
لم يهتد ، فإذا فرطنا ، وتقى غيرنا فمن العجز أن ندع هذه الوسائل لأننا وصلنا إليها  
مبقوين !!

وهذه الوسائل المجلوبة - قلت أو كثرت - لا تخدم إلا مجموعة محدودة من شعب  
الإيمان السبعين ، فلننصرف عن ساعد الجد ونخدم بقية الشعب بحماس مضاعف !!

بيد أننا لا نحسن هذه الخدمة بالقصور العقلى ولا بالضحلة العلمية . . إن الإيمان  
بالله - وهو أصل الأصول - يقوم على يقظة الفكر لا خموله ، وعلى رحابة الأفق لا  
ضيقه . .

والرجال والنساء في أقطارنا مازالوا أكثر العالم الثالث . . . !!

في قيمة العقل وأثره، يقول الإمام الشهيد: «الإسلام يحرر العقل، ويبحث على النظر في الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح والنافع من كل شيء «والحكمة ضالة المؤمن أئن وجد لها فهو أحق الناس بها»<sup>(١)</sup>.

درست القرآن الكريم فعرفت ربى معرفة حسنة وأحببته وأعزته، ثم نظرت إلى الحياة والأحياء - بعد هذه الدراسة - نظرة تصل المخلوق بالخالق، والعالم أجمع بمدبره الواحد، حتى لأتخيل الطاقة التي تدير الآلات وترفع الطائرات بعض آثار القدرة التي تدير الكون كله من عرشه إلى فرشه.

وماذا يرجو الناس من كتاب دين أكثر من ذلك؟

حسب القرآن أن عرفني بالله الواحد، وأعدني للقاءه، وأفهمني أنه بالصلاح والاستقامة - وحدها - أصنع مستقبلي عنده!!

بيد أن لفيفا من الباحثين استلقته من إعجاز القرآن شيء آخر.

إن كلمات القرآن في وصف الكون دققة مثيرة، فهي تؤمئ بلياقة إلى أسرار علمية وسفن فطرية لم يعرفها الناس إلا في هذا العصر . .

وتبين بالموازنة المنصفة أن حديث القرآن عن بناء الكون وقوانينه ووظائفه ينسجم مع الحقائق العلمية انسجاما لم يعرف له شبيه في كتاب آخر . .

## الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

وبدأت أكثر للاعجاز العلمي في القرآن الكريم، فنقلت عن العلامة الدكتور محمد أحمد الغمراوى فصلا عن عجائب الورى في وصف السحب والأمطار والرعد والبرق<sup>(٢)</sup> . .

وشعرت وأنا أقرأ كلام الأستاذ الكبير أن البحث لا غلو فيه ولا افتعال، وأن العقل المؤمن يطل من وراء العبارات الرصينة.

ثم جاء العلامة الدكتور «موريس بيكمى»، فأبرز جوانب من الإعجاز العلمي تفرد

(١) الأصل الثامن عشر من الأصول العشرين للإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله.

(٢) في كتابي «نظرات في القرآن».

بها القرآن العربي لم تعرف في كتاب ينتمي إلى السماء، بل إن كتاباً آخر لآباء الأديان تطرق إلى كلامها عن خلق العالم قدر كبير من العوج والوهم.

وكتاب الدكتور «موريس بيكيه» - وهو طبيب مستشرق - ترجم من الفرنسية ويشيع الآن بين القراء.

ثم قرأت كتاباً عن «خلق الإنسان بين الطب، والقرآن» للدكتور الذكي التقى العالمة محمد على البار<sup>(١)</sup>، فبهرني ما وجدت من تطابق بين حقائق العلم التي قررها بالصور الدقيقة وبين آيات الكتاب العزيز، وزدت إيماناً على إيمانه. والحق أن الكتاب يترك في نفس القارئ إعجاباً عميقاً بالقرآن، وتصديقاً مطلقاً للنبي الخاتم صلوات الله وسلامه عليه.

وقد دعا ذلك صديقنا الأستاذ عبدالمجيد الزنداني إلى إعداد ندوات «تليفزيونية» لإبراز ما في الكتاب من كشف وحقائق.

والأستاذ الزنداني من المشغولين أو المشغوفين بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم! وهو يكافح لنصرة الإسلام وإنجاح دعوته في جنوب الجزيرة العربية، ولا أدرى أيغلب العقبات الهائلة التي تعرّضه أم تغلبه؟!

وقد كتب ثمانى صفحات من الأسئلة<sup>(٢)</sup> التي أجاب عنها الدكتور محمد على البار في مؤلفه القيم أذكر قليلاً منها..

١ - لقد أوضح الطب الحديث أن «المني» الماء الدافق الذي يخرج من الإنسان إنما تفرزه الخصية. . ومع أن الخصية بعد الولادة تكون خارج الجسم إلا أن تكونها في الجنين في منطقة بين الصلب والترائب. . كما أن تغذيتها بالدماء والأعصاب واللمف في «الأوعية البلغمية» يستمر حتى عند البالغين من بين الصلب والترائب! وكذلك فإن عملية تدفق هذا الماء إنما تتم بواسطة أعصاب تأتي من بين الصلب والترائب وبالذات من الأعصاب السمبتوائية!

وهذه الاكتشافات العلمية قد تمت في القرن العشرين للميلاد.. فهل هناك في كتاب الله ما يشير إلى ذلك؟

٢ - عرف الطب الحديث مكونات المنى، وعرف أن الإنسان لا يخلق من المنى كله

(١) طبيب من مكة المكرمة يعمل في جدة وكتابه أفضل ما قرأت في الموضوع.

(٢) كان ذلك إعداداً لعرض علمي في الإذاعة لما يتم.

بل يخلق من الحيوانات المنوية فقط «من حيوان منوى واحد فقط بعد التقائه ببويضة المرأة»، فهل ترى ذكر هذه الحقيقة في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة؟

٣ - لقد اكتشف الطب في القرن العشرين أن الحيوانات المنوية زوجان، فمنها ما يحمل شارة الذكورة ومنها ما يحمل شارة الأنوثة.. وأنه إذا لقح حيوان منوى يحمل شارة الذكورة ببويضة المرأة كان الجنين ذكرا بإذن الله.. وإذا لقح البويضة حيوان منوى يحمل شارة الأنوثة كان الجنين أنثى بإذن الله.. وعليه فإن تحديد الذكورة والأنوثة إنما هو من الرجل وليس للمرأة دخل في ذلك.

فهل هناك نص في كتاب الله أو في سنة رسوله ذكر هذه الحقيقة قبل أن تعرف بألف وأربعين عام؟

٤ - كان الأطباء إلى القرن السابع عشر الميلادي يعتقدون أن المرأة ليس لها دور مطلقا في تكوين الجنين ما عدا التغذية والتدفئة، وشبهوها بالأرض، وأما البذرة فمن الرجل.. وما بذرها ينمو في هذا المهد.

ثم ظهرت بعد ذلك نظرية أخرى مناقضة للأولى تقول إنه ليس لمنى الرجل من دور في تكوين الجنين سوى تنشيط ما هو موجود في رحم المرأة.

ثم في القرن التاسع عشر وبداية العشرين تأكيد بما لا يقبل الشك... أن الجنين الإنساني يتكون مناصفة بين الأب والأم.. وإن كان للأم... دور آخر في التغذية والرعاية والتدفئة والتنمية؟

فهل يا ترى سبق القرآن الكريم والسنة المطهرة إلى هذه الحقيقة؟

نرجو توضيح ذلك.

٥ - ظل العلماء والأطباء إلى أوائل القرن التاسع يظنون أن الجنين الإنساني يكون مصغرا في المنى وأنه لا يتقلب في أدوار وأطوار مختلفة وإنما ينمو فقط في الرحم.. ثم قدم «دولن» نظريته بأن البويضة الملقة تتکاثر وتنقسم لتكون الجنين الإنساني طورا بعد طور ومرحلة بعد مرحلة.. ولكن هذه النظرية أهملت حتى قام شيلدن وشوال باكتشاف الخلية الحية وأنها أساس بناء الكائن الحي..

ومنذ ذلك الحين تقدمت الأبحاث وأكيدت بما لا يدع مجالا للشك أن النطفة الأمشاج «وهي خلية واحدة من اجتماع نطفة الذكر ونطفة المرأة» تنقسم انقسامات عديدة وتمر بمراحل مختلفة وأطوار متباعدة حتى تصبح في شكل إنسان.

فهل هناك ذكر في القرآن الكريم والسنّة المطهرة لهذه الحقائق العلمية التي لم تكتشف إلا في القرن التاسع عشر، ولم تتأكد إلا في أوائل القرن العشرين؟

٦ - كشفت العلوم الطبية الاختلاف الهائل والبون الشاسع ما بين كل خلية من خلايا الرجل وكل خلية من خلايا المرأة «ويبلغ عدد الخلايا ٥٠ مليونا في جسم الإنسان».

فالبويضة مثلاً مستديرة كالقمر وعليها هالة أو تاج مشع، بينما الحيوان المنوي مثل الصاروخ وله رأس مدبب وقلنسوة غليظة وله ذيل يستطيع به الحركة السريعة.. وبينما البويضة ساكنة لا تكاد تتحرك... إذا بالحيوان المنوي ينطلق كالصاروخ دون غايته أو يهلك.

حتى الحيوانات المنوية التي تحمل شارة الذكورة أكثر إقداماً وعزمًا وأشد عرامة وحركة من أخواتها الحيوانات المنوية التي تحمل شارة الأنوثة.

فهل هناك في كتاب الله شيء يشير إلى ذلك؟.. ويشير إلى دور المرأة ودور الرجل كما تتمثل البويضة والحيوان المنوي؟

هذا أسئلة تتعلق بالنطفة وحدها.. وهناك عشرات الأسئلة التي تتعلق بأطوار الجنين حتى يولد... وكلها أجاب عنها الدكتور محمد على البار بأسلوبه العلمي الإسلامي.

ولى كلام أحب أن أؤكده هنا بإزاء الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ..

أحياناً أجد مع الجهاز الذي اشتريه كتيباً يصف طريقة استخدامه وصيانته، ويشرح لى أنواع القوى والمفاتيح التي تعيننى على الانتفاع بهذا الجهاز على خير وجه..

إننى لا أشك في أن الذى أشرف على كتابة هذه السطور هو الذى أشرف على صنع الجهاز نفسه..

هذا الشعور يتملknى وأنا أقرأ القرآن الكريم، وأستمع إلى حديثه عن الأرض والسماء وما بينهما، إننى أستيقن أنَّ صانع هذا العالم هو منزل ذلك الوحى.

إن القرابة قائمة بين الحياة، وبين الكتاب الذى يوجهها ويشرف على مبتداها ومتتها، نعم ربهما واحد، الذى خلق هو الذى قال.. !

هل أسدى العلم الحديث يدًا في هذا المجال؟ نعم! كنت أقرأ الآية الكريمة «وأنه

خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى<sup>(١)</sup>، فأظن التعبير على المجاز، وأن علاقته الرجل بزوجته هي التي سوّغت الإسناد، وأن الأنثى مسؤولة أو شريكة في تحديد نوع المولود..

ثم تبين أن الإسناد حقيقى ، وأن الأم لا صلة لها بولادة البنات أو البنين ، وأن نطفة الرجل وحدها هي التي تقوم بذلك ، فإن الحيوانات المنوية هي التي تحدث التذكير أو التأنيث !!

إن سبق القرآن في إثبات ذلك إعجاز لا يسوغ جحده ولا تهوي نتائجه.

ومع ذلك فإنني أحب التصریح بأن القرآن ليس كتاب كيمياء ولا فيزیاء ولا طب ولا فلك، وأن بعض الذين اشتغلوا بالإعجاز العلمی أساءوا إلى القرآن بأوهام تبعوها وتکلفات قرروها ومبالغات أقرب إلى الجهل منها إلى العلم.

والقرآن كتاب عقائد وأخلاق وعبادات ومعاملات ، وحديثه عن الأحياء وتاريخهم هو قبل كل شيء لايقاظ والهداية ، وحديثه عن الكون وأياته هو لدعم الإيمان وأخذ العبرة وترشيد السلوك : «طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين \* هدى وبشرى للمؤمنين \* الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالأخرة هم يوقنون»<sup>(٢)</sup> .

ويكن القول: إنه يستحيل وقوع تفاوت بين الإسلام والعلم، أى أن الحقائق المقطوع بها في ميدان الدين يستحيل أن يوجد ما يكذبها في ميدان العلم.

و كذلك يستحيل أن توجد حقيقة علمية يقال إن في الإسلام ما ينافيها.

وإذا بدا شيء من ذلك للنظر السطحي فلا بد أن يكون هناك تزوير فيما نسب للدين أو فيما نسب للعلم . إن الدين الحق والعلم الحق يتصادقان ولا يتکاذبان !!

إن الخلاف قد يقع بين ظن علميٌّ وظن دينيٌّ، أو بتعبير آخر بين نظرية دينية ونظرية علمية.

و قبل أن نضرب الأمثل لذلك نوضح هذه<sup>(٣)</sup> المصطلحات التي سقناها.

يقصد بالظن الديني المعنى الذى يحتمله نص قد يحتمل أيضاً معنى آخر، وللناظر أن يرجح بالقرائن ما يتبادر له.

(١) النجم: ٤٥، ٦٤.

٢) النساء : ١ - ٣

(٣) لم تلتزم الألفاظ الفنية هنا، وإن تقدمنا بالمراد.

ووقوع الخلاف هنا ممكن، وهو في حقيقته بين أفهم البشرين . . .

لنفرض أن فرويد يرى الغريزة الجنسية أساس السلوك، فإن غيره يرى الأكل هو الباعث الأول على الحركة، وغريزة الأكل أهم عنده من غريزة الجنس .

وهناك من يرى الشعور الإيجابي بالنفس أعمى من الغريزتين السابقتين !

ما الذي يلزمنا - دينا أو علما - بواحد من الآراء؟

توجد شائعات علمية تدرس على أنها حقائق مسلمة . . .

قصة أن المادة لا تفني ولا تستحدث باتت قصة سخيفة، وإن ظلت تدرس لطلابنا حتى اليوم !

ولو فرضنا جدلاً أن الفناء الظاهري هو تحول المادة إلى طاقة، فإن هذا التحول لون من العدم يكفي في تفسير الآية ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٌ﴾<sup>(١)</sup> ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾<sup>(٢)</sup> .

ومن الذي قطع بأن الطاقة لا تلاشى؟ أو قطع بأن البشر يقدرون على إعادتها سيرتها الأولى، مادة محسوسة؟

لكي يقال: هذه حقيقة علمية لا بد من أمرتين: إقامة دليل دامغ على صحتها، ثم إقامة دليل آخر على استحالة غيرها . . . وأين هذه الأدلة؟

ومن الشائعات العلمية نظرية دارون في أصل الأحياء، ومع أن جمهوراً من العلماء عدّ كلام «دارون» مقتراحات مرفوضة في تفسير بدء الخلق، فإن الكتب الدراسية عندنا لا تزال تقدم النظرية للطلاب على أنها حقيقة علمية لا ريب فيها . . .

\* \* \*

إن علماء الكون والحياة يحترمون أنفسهم، وقلما يوجد بينهم من يغالى بوجهة نظره ليجعل منها نظرية مسلمة .

بيد أن المأرب الصغيرة قد تتدخل لنشر الفوضى الفكرية باسم العلم والعلم براء .

ويحدث مثل ذلك في ميدان الدين! سمع أحد المتعالين طالباً يقرأ في كتابه أن المطر ينزل من السحب؛ فهاج وماج، واعتراض ما سمع. وأراد اغتصاب الكتاب !!

قال له رجل قريب: ما أغضبك؟ قال: القرآن يقول: إن المطر من السماء !!

(١) الرحمن: ٢٦.

(٢) القصص: ٨٨.

قال له : هاك ثلاٽ آيات من القرآن الكريم تخطئك : ﴿أَلَمْ ترَ أَنَّ اللَّهَ يُرْجِي سَحَابَةً ثُمَّ يُؤْلِفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ﴾<sup>(١)</sup> - ﴿أَفَرَأَيْتَمْ.. الْمَاءَ الَّذِي شَرَبْتُونَ؟ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنَ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> - ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمَعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجَةً﴾<sup>(٣)</sup>.

دع الكتاب للطالب ! وتبوا أنتم من هذا الجهل !!

وألف أحدهم كتاباً زعم أن فيه أربعين دليلاً من الدين على أن الأرض لا تدور ، ولو كانت في كتابه أربعون شبهة لساغ الرد عليها ، ولكن ما قيل ليس شبهات عاقل بل خيالات حشاش !

وقصة عدم دوران الأرض دفعتها قوة مالية حتى وصلت إلى عواصمها في طباعة أنقنة !

واعتقادي أن هناك أصابع تبشيرية وراء هذا النشاط الجهول ..

إن ديننا - نحن المسلمين - صلب القواعد ، دقيق التعاليم .. وقد قام علم أصول الفقه ليكون ضابطاً قانونياً صارماً في تبيان حكم الله ..

ويرى مفكرون كثيرون من بينهم الشيخ مصطفى عبد الرزاق أن هذا العلم مفخرة الحضارة الإسلامية التشريعية ..

وقد قرر علماؤنا أن الحكم القاطع لابد فيه من أمرين : أن يكون السند متواتراً ، وأن يكون المتن نصاً .. فالآية الكريمة : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾<sup>(٤)</sup> تفيد حكماً قطعياً ، لأنها رويت بطريق التواتر - فهى قرآن - ولأن المعنى لا يحتمل إلا ووجهها واحداً ، هو وحدانية الله سبحانه ..

وهو تألف المؤذن «الله أكبر» حكم قاطع لأن المعنى واحد لا غير ، وأن حديث الأذان متواتر ..

وفي السنة الشريفة أحكام تواترت معنوياً ، وإن لم تتوافر لفظياً ، لها صفة القطع إذا كانت نصاً لا يتطرق إليه الاحتمال ..

(١) النور : ٤٣ ..

(٢) الواقعة : ٦٨ ، ٦٩ ..

(٣) النبأ : ١٤ ..

(٤) الإخلاص : ١ ..

وقد يكون الكلام متواترا لا شك في ثبوته، ولكنه لا يفيد القطع لأنه يتحمل معانٍ عدّة فقوله تعالى: «وامسحوا برعوسكم»<sup>(١)</sup> من قبيل الدلالات الظنية وإن كان قطعى الثبوت ..

وأحاديث الآحاد في جملتها ظنية الثبوت حتى يعزّزها التواتر اللغظى أو المعنوى ..

وهذا مبحث فنى له مراجعه التي يسهل الاطلاع عليها .. والمهم هو أن نعرف موقفنا إذا تعارض نظرى في الدين مع نظرى في العلم، أعنى إذا تعارض ظنى هنا وهناك ..

والجواب أن ولاءنا لما لدينا من كتاب وسنة، أى أننا نرجح ما عندنا حتى يبت الزمان في النظرية العلمية: فاما ثبت بطلانها، وإما تحولت إلى حقيقة راسخة وعندئذ قدمناها على الظنى الذي لدينا ولا حرج بتة من هذا التقديم ..

قال الإمام الشهيد: «وقد يتناول كل من النظر الشرعى والنظر العقلى ما يدخل فى دائرة الآخر، ولكنهما لن يختلفا فى القطعى، فلن تصطدم حقيقة صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة، ويؤول الظنى منهما ليتفق مع القطعى، فإن كانا ظنين فالنظر الشرعى أولى بالاتّباع حتى يثبت العقلى أو ينهاه»<sup>(٢)</sup> ..

\* \* \*

---

(١) المائدة: ٦ .

(٢) الأصل التاسع عشر من الأصول العشرين للإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله .

## الدّائرة الإِسْلَامِيَّة

يقول المناطقة: لكي يكون التعريف صحيحًا يجب أن يكون جامعاً مانعاً. ومعنى أنه جامع أن يشمل جميع أفراد المعرف فلا يترك واحداً، ومعنى أنه مانع ألاً يسمح بدخول نوع آخر لا علاقه له بالمعرف.

ونحن نريد أن نحدد الدائرة التي تعنيها كلمة «مسلم» فلا يخرج منها أحد له ذرة من دين، ولا يدخل فيها أحد مبتوت الصلة بهذا الدين.

تعنى حقيقة الإسلام عدة أمور:

أ - معرفة الله على وجه صحيح فهو سبحانه لا شريك له، وليس كمثله شيء، متره عن كل نقص، منعوت بكل كمال.

ب - الاعتراف بحقوقه على خلقه، فهو رب العبود، الذي يطاع أمره وينفذ حكمه! والعلاقة بيننا وبينه بعد معرفته هي الخضوع له والسمع والطاعة لما يجيء منه!

ج - مظاهر هذا الخضوع هو اتباع النبي الخاتم الذي أتم به كل الرسالات، وأظهر على لسانه مراده من عباده إلى آخر الدهر..

ولنستطرد قليلاً في شرح الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام، فإن هذا الرسول الكريم هو الذي عرّفنا بحقيقة الدين منذ الأزل بعدهما عفرها الأولون بالتراب حتى محو معالمها.

وهو الذي كرم إخوانه السابقين، وكشف عنهم تهمًا شائنة تتصل بأخلاقهم وأعراضهم ..

وهو الذي شق بسيرته الماجدة طريق الكمال الإنساني، فإذا هو خلال الستين عاماً التي قضاها في الدنيا نور يضيء الظلمة، وطهر يمحو الجاهلية، ورحمة تنشر البر والنماء، وقدرة ترفض الضعف وتدعم الحق وتقهر الجبروت..!!

ما عرفت هدياً للعقل ولا صدى للفطرة ولا نداء للإنسانية إلا رأيت معنى ذلك ومبناه في دين محمد وسيرة محمد، ولذلك آمنت به..

ثم أدركت لماذا تكون الإسلام من كلمتين «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله».

المسلم الحق إنسان يؤمن بالله ويعمل الصالحات . يزكي بذلك نفسه ويهدى للقائه بربه .

وهو يتعاون مع إخوانه المؤمنين على بناء مجتمع مؤمن صالح ينقل هذه الحقائق من السلف إلى الخلف ، ويوسع نطاقها في الحياة بالدعوة والأسوة .

وهو متلهي في أى وقت لافتداء دينه بدمه إذا أبى الفتنون إلا إحراجه واجتياح دينه ومجتمعه ، فالمسلم يحيا لربه قبل أن يحيا لنفسه .

على أن الإسلام - في النفس أو في المجتمع - يصح ويقال ، ويقوى ويضعف ، بل يحيا ويموت !

والمجتمع الراسى على عقائده قد يصمد للأهواء والفتنة أبداً طويلاً ، وقد تهتز الدعائم فينفرط عقده ويسقط علمه ..

وكذلك النفس الإنسانية ، إن المرء قد يكون صلب الإيمان متين الخلق فيخرج ناصع الجبين من شتى العواصف ، وهناك من يصبح مؤمناً ويمسي كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا ..

ونريد هنا أن نرسم الخط الأخير الذي يفصل بين الحق والباطل ، والذى يرتد عن الإسلام من اجتازه ..

والحق أن العلماء تريشاً كثيراً وهم يرسمون .. هذا الخط ، واتأدوا في إصدار حكمهم بالتكفير لأن الأمر جدٌ خطير .. !

وهم عندما يحكمون بارتداد مسلم لا يفعلون ذلك إلا بعد ما يأسون من كل تأويل أو اعتذار .

ونستطيع على ضوء ما شرحتنا من حقيقة الدين أن نعرف متى يقع الانسلال منه .. فإذا كان الإسلام معرفة حسنة بالله ، فإنه يخرج منه من زعم أن الله أبنا ، أو ندا . أو زعم أن له خصائص البشر أو حل في جسد .

وإذا كان الإسلام التزاماً بمبدأ السمع والطاعة لله رب العالمين ، فإنه يخرج منه من جحد أى واجب كالصلوة والصيام مثلاً ، أو استباح أى محرم كالربا والزنا والخمر .

وإذا كان الإسلام اتباعاً لصاحب الرسالة الخاتمة وتصديقاً لما جاء به ، فإنه يخرج منه

من استهان بالرسول ، أو حقر كتابه ، أو أنكر ما هو معروف من دينه بالضرورة ، أو زعم أنه رسول خاص بالعرب ، أو أن أمدرسالته انتهى ..

والأمثلة التي ضربناها نماذج يحتاج الأمر بعدها إلى تفصيل ..

إن المسلمين متفقون على أن أصل الإيمان بالله الواحد لابد منه للبقاء على الإسلام ، وزيادة الإيمان أو نقصانه لا أثر لها بعد ذلك .

وكذلك التصديق بنبوة محمد ﷺ ، فإن الريبة في الرسول كفر صراح يخرج من الملة .

أما فعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه - وهو عنوان الخصوع ومبدأ السمع والطاعة لله - فإن للعلماء الراسخين تفصيلات عاقلة عادة في هذا الموضوع .

اتفقوا على أن رفض التشريع ارتداد ، كأن يرفض أحد جلد الزانى أو قطع السارق استنكارا للعقوبة واستبعادا لها . . أو كأن يرفض أحد إقام الصلاة وصيام رمضان ، لأن هذه الأركان تعطل الإنتاج كما يزعم بعض الرعاع .

ولم يقل أحد من المقدمين أو المتأخرین : إن رفض النصوص القطعية يبقى صاحبه في الإسلام .

أما ترك فرض أو فعل كبيرة مع الشعور بالإثم ، فإن صاحب هذا المسلك يُعد مسلما عاصيا ولا يوصف بالكفر .

وأساس ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾<sup>(1)</sup> ونرى أن هذه الآية تحتاج إلى بعض التدبر لنفقه فحوها ..

ولنسأل أولاً عما دون الشرك الذي يمكن أن تتناوله المغفرة . .

هل جحود الألوهية - كما يرى الماديون - دون الشرك؟ كلا إنه أسوأ حالا وشر مقاولا ، فالمشرك يرى أن الله موجود ، ولكنه يضيف إليها ثانيا أو ثالثا ، أما المعطلة فلا يقولون بإله أصلا ولا تنتظر لهم مغفرة أبدا ..

هل الاعتراف بالألوهية مع إعلان الحرب عليها دون الشرك؟ كلا ، إن إبليس يوقن بوجود الله ، ولكنه مع إصرار سابق ولاحق يقول الله : لا طاعة لك عندي ، فهل ذلك دون الشرك؟! إنه مثله أو أقبح منه!

(1) النساء : ٤٨ .

إن ما دون الشرك هو عصيان الموحدين الذين يغلبهم الهوى، ويصيّبهم العمى فلا يلزمون الصراط المستقيم. وربط مستقبلهم بالمشيئة العليا يرجع إلى أن الله وحده هو الذي يعلم ملابسات انحرافهم، ومبلغ نشاطهم أو كسلهم في جهاد أنفسهم.

وطالما أكدنا أن المشيئة لا تعنى الفوضى، وإنما تعنى هيمنة رب العباد على العباد فهو بهم خبير، ولظفروفهم مقدر: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذَا أَنْشَأْتُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذَا أَنْتُمْ أَجِنَّةٍ فِي بَطْوَنِ أَمْهَاتِكُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

وأرى أن تحديد معنى الجحود والإصرار والإدمان لا بد أن يشترك فيه لفيف من علماء الفقه والنفس والاجتماع، فالامر أكبر من أن يطرح على بساط البحث النظري أو الجدل الكلامي..

وفي تاريخنا القديم حاول البعض أن يدخل في هذه القضية بغباء، فأساء إلى نفسه وإلى الحقيقة.. نعم حاول الخوارج بنزق أن يرسموا خط الخروج عن الإسلام، فكفروا مسلمين صالحين، ومالوا بقواهم على خيرة الناس فأحرجوهم وأوهنوا قواهم..

وكان رد الفعل تطرفاً غبياً، فظهر المرجئة يدخلون في دائرة الإسلام أصحاب الشهوات الجامحة والأفكار الضالة.

والغريب أنى وجدت في هذا العصر الصنفين معاً وأصحاب المنطقين الشاردين !!

إننا نشكو إلى الله حكامًا يخذلون الإسلام ويمالئون الشيوعية أو الصليبية العالمية، وقبل ذلك نشكو إلى الله متدينين كذبة قست قلوبهم على عباد الله، وذهبوا بأنفسهم مذهبًا مستعلياً فهم يرمون بالكفر والفسق من شاءوا، لا سند لهم إلا فقهاً قليلاً وترتيلًا كثيراً..

قشور من العبادة على باطن خرب، وأثرة مفرطة، وتطاول غريب لا يحترم علماً ولا سابقة..

المسلم الحق طيب يأسو الجراح، ويرحم الضعاف، ويرشد الحيارى، ويتلطف مع الضالين حتى يثوب بهم إلى طريق الله.

وهو لاء جعلوا ما عرروا من الدين تكأة للنيل من غيرهم والارتفاع على أنقاضهم.. كان رسول الله يأسى لعناد الكافرين ويحزن لإصرار الضالين، ويتمنى من أقصى فواده لو اهتدوا إلى الحق..

(١) النجم: ٣٢.

وهو لاء يجعلون من خطأ غيرهم مددا للغرور وسببا إلى احتقار الجاهلية والجهال ..

الرسول يقول من بلغ عن معصية عاص : هلا سترته بثوبك .

وهو لاء يجدون في المعصية فرصة للتشفي وضرب الجانى ويشعرون بفرح خبيث لسقوطه ..

ذكرت في أمراض القلوب نموذجا لأولئك المتكبرين ، وكيف عاب بعضهم على رسول الله قسمته مال جاءه ، تألف به بعض الناس لمصلحة الدعوة الإسلامية ، ثم قرأت في مسلك أحدهم ما جعلني أقول : ما أشبه الليلة بالبارحة ..

جاء في الحديث : «فقال رجل : كنا نحن أحق بهذا المال من هو لاء ! فبلغ النبي ﷺ - قوله - فقال : ألا تؤمنون وأنا أمين من في السماء ؟ يأتينى خبر السماء صباحا ومساء ! فقام رجل غائر العينين ، مُشرف الوجنتين ناشر الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الإزار<sup>(١)</sup> ، فقال : يارسول الله اتق الله .. !! فقال : ويلك ، أو لست أحق أهل الأرض أن أتقى الله ؟ !

ثم ولى الرجل فقال خالد بن الوليد : يارسول الله ألا أضرب عنقه ؟ فقال : لا ، لعله أن يكون يصلي .

قال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه . فقال رسول الله ، إنني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ، ولا أشق بطونهم . ثم نظر إليه وهو مُقف<sup>(٢)</sup> فقال : إنه يخرج من ضئضي<sup>(٣)</sup> هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية<sup>(٤)</sup> .

إن الإسراع في اتهام الناس وتلوث سمعتهم ليس دينا ، والحكمة في معالجة الأخطاء مطلوبة ، وفي الحديث : «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»<sup>(٥)</sup> .

ولا يعني هذا أبدا ترك الجرائم تسرح في المجتمع ، كما لا يعني إطفاء مشاعر الغضب لله والغيرة على حدوده ، ذاك شأن غير ما نحن بصدده ..

---

(١) عالي الوجنات والجبهة ، نامي اللحية حليق الرأس قصير الإزار .

(٢) منصرف يرى قفاه .

(٣) من جنسه .

(٤) متافق عليه .

(٥) البخاري أدب ٣٥ .

قلت يوماً للرجل تعودَ السكر: ألا تَتوبُ إلى الله؟ فنظرَ إلىَ بِإِنْكَارِ وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ،  
وقالَ: ادعَ اللهَ لِي . . !

تأملتْ فِي حالِ الرَّجُلِ وَرَقَّ لَهُ قَلْبِي . إنْ بَكَاءَهُ شَعُورٌ بِمَدْيٍ تَفْرِيْطِهِ فِي جَنْبِ اللهِ،  
وَحَزْنَهُ عَلَى مَخَالِفَتِهِ، وَرَغْبَتِهِ فِي الْاَصْطِلَاحِ مَعَهُ .

إِنَّهُ مُؤْمِنٌ يَقِيْنَا، وَلَكِنَّهُ مُبْتَلٍ! وَهُوَ يَنْشَدُ الْعَافِيَةَ وَيَسْتَعِينُ بِي عَلَى تَقْرِيْبِهَا . .

قلتْ لِنَفْسِي: قَدْ يَكُونُ حَالِي مِثْلُ هَذَا الرَّجُلِ أَوْ أَسْوَأَ . صَحِيْحٌ أَنِّي لَمْ أَذْقَ الْخَمْرَ  
قُطُّ، فَإِنَّ الْبَيْئَةَ الَّتِي عَشَتْ فِيهَا لَا تَعْرِفُهَا، لَكِنِّي رَبِّا تَعَاطِيَتِ مِنْ خَمْرِ الْغَفْلَةِ مَا جَعَلَنِي  
أَذْهَلَ عَنْ رَبِّي كَثِيرًا، وَأَنْسَى حَقْوَقَهِ .

إِنَّهُ يَبْكِي لِتَقْصِيرِهِ، وَأَنَا وَأَمْثَالِي لَا نَبْكِي عَلَى تَقْصِيرِنَا، قَدْ نَكُونُ بِأَنفُسِنَا  
مَخْدُوْعِينَ . .

وَأَقْبَلَتْ عَلَى الرَّجُلِ الَّذِي يَطْلُبُ مِنِّي الدُّعَاءَ لِيَتَرَكَ الْخَمْرَ، قَلْتُ لَهُ: تَعَالَ نَدْعُ  
لِأَنفُسِنَا مَعَا . . «رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسِنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنْكُونَنَا مِنَ الْخَاسِرِينَ»<sup>(١)</sup>.

إِنِّي أَطْلُبُ مِنَ الْمُشْتَغَلِينَ بِالدُّعَوَةِ أَنْ يَتَقَوَّلُوا اللَّهَ فِي النَّاسِ، وَأَنْ يَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ فَإِنْ مِنْ يَرِدُ  
اللَّهَ بِهِ شَرًا يَحْرِمُهُ الْفَقْهُ فِي الدِّينِ، وَلَوْ كَانَ ثَرَاثًا يَخْطُبُ فِي كُلِّ نَادٍ.

\* \* \*

أَلْفُ الأَسْتَاذِ الشِّيْخِ يُوسُفِ الْقَرْضَاوِيِّ رَسَالَةً جَيْدَةً عَنْ «ظَاهِرَةُ الْغَلُوْفِ فِي التَّكْفِيرِ»  
نَوَصَى بِقِرَاءَتِهَا، وَقَدْ أَرَاهَا مِنَ الْكِتَابَةِ فِي الْمَوْضِعِ، وَنَقْتَطَفُ هَذِهِ النَّقْوَلَ عَنْهُ نَفْعًا لِمَنْ  
يَطَالِعُونَ كِتَابَنَا هَذَا . قَالَ أَرْشَدَهُ اللَّهُ وَأَيَّدَهُ:

## وجوب التفرقة بين النوع والشخص المعين:

وَهُنَا أَمْرٌ يَجِبُ أَنْ نَسْتَلْفِتَ النَّظَرَ إِلَيْهِ، وَهُوَ مَا قَرَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْ وجوبِ  
الْتَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْشَّخْصِ وَالنَّوْعِ فِي قَضِيَّةِ التَّكْفِيرِ .

وَمَعْنَى هَذَا أَنْ نَقُولَ مَثَلًا: الشَّيْوَعِيُّونَ كُفَّارٌ . أَوْ الْحَكَامُ الْعَلَمَانِيُّونَ الرَّافِضُونَ لِحُكْمِ  
الشَّرْعِ كُفَّارٌ، أَوْ مَنْ قَالَ كَذَّا أَوْ دَعَا إِلَى كَذَّا فَهُوَ كُفَّارٌ، فَهَذَا وَذَاكَ حُكْمٌ عَلَى النَّوْعِ .  
فَإِذَا تَعْلَقَ الْأَمْرُ بِشَخْصٍ مَعِينٍ، يَنْتَسِبُ إِلَى هَؤُلَاءِ أَوْ أُولَئِكَ، وَجَبَ التَّوْقُفُ لِلتَّحْقِيقِ

(١) الأعراف: ٢٣ .

والتبث من حقيقة موقفه ، بسؤاله ومناقشته ، حتى تقوم عليه الحجة . وتنفني الشبهة ، وتنقطع المعاذير .

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :

«إن القول قد يكون كفرا، فيطلق القول بتکفير صاحبه ويقال: من قال هذا هو كافر. لكن الشخص المعين الذى قاله لا يحکم بکفره، حتى تقوم عليه الحجة التي يکفر تارکها».

وهذا كما في نصوص الوعيد، فإن الله تعالى يقول :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظَلَمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بَطْوَنِهِمْ نَارًاٰ وَسِيَّرُهُمْ سَعِيرًاٰ﴾<sup>(١)</sup>.

«فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق، لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد. فلا يشهد على معين من أهل القبلة بالنار، لجواز ألا يلحقه الوعيد، لفوات شرط، أو ثبوت مانع. فقد لا يكون التحرير بلغه، وقد يتوب من فعل المحرم . . وقد تكون له حسنات عظيمة تمحو عقوبة المحرم . وقد يتلى بمصائب تکفر عنه ، وقد يشفع فيه شفيع مطاع» . .

قال : «وهكذا الأقوال التي يکفر قائلها: قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق» .

قال «وقد تكون بلغته ولم تثبت عنده أو لم يتمكن من فهمها» .

«وقد تكون عرضت له شبهات يعذر الله بها» .

قال : «ومذاهب الأئمة مبنية على هذا التفصيل بين النوع والمعين<sup>(٢)</sup>» .

فإذا كان كل هذا الاحتياط واجبا في شأن المcrحين بالکفر ، فكيف يجترئ مسلم على تکفير الجماهير التي تشهد أن «لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله» وإن خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا؟

إن الإيمان قد يجامع شعبة أو أكثر للکفر أو الجاهلية أو النفاق .

وهذه الحقيقة قد خفية على كثيرين في القديم والحديث ، فحسبوا أن المرء إما أن يكون مؤمنا خالصا أو كافرا خالصا ، ولا واسطة بينهما ، إما مخلصا محضا أو منافقا محضا . وقريب منه من يقول : إما مسلم محض أو جاهلي محض . ولا ثالث لهذين الصنفين .

(١) النساء : ١٠ .

(٢) من الرسائل المردانية لشيخ الإسلام

وهذه طريقة كثیر من الناس . حيث يركزون النظر على الأطراف المتقابلة دون الالتفات إلى الأوساط . فالشيء عندهم إما أبيض فقط أو أسود فقط ، ناسين أن هناك من الألوان ما ليس بأبيض خالص ولا بأسود خالص ، بل بين بين .

ولا عجب أن نجد فئة من الناس ، إذا وجدت فرداً أو مجتمعاً لا يتحقق بصفات الإيمان الكامل ، بل توجد فيه خصائص النفاق ، أو شعب الكفر ، أو أخلاق الجاهلية ، سارعـت إلى الحكم عليه بالكفر المطلق ، أو النفاق الأكبر ، أو الجاهلية المكفرة ، لاعتقادـهم أن الإيمان لا يجامع شيئاً من الكفر أو النفاق بحال . وأن الإسلام والجاهلية ضدان لا يجتمعان .

وهذا صحيح إذا نظرنا إلى الإيمان المطلق «أى الكامل» والكفر المطلق ، وكذلك الإسلام والجاهلية والنفاق .

أما مطلق إيمان وكفر ، أو مطلق إيمان ونفاق ، أو مطلق إسلام وجاهلية ، فقد يجتمعـان . كما دلت على ذلك «النصوص» وأقوال السلف رضي الله عنـهم .

ففي الصحيح أن النبي ﷺ قال لأبي ذر رضي الله عنه : إنك امرؤ فيك جاهلية !<sup>(١)</sup> هذا وهو أبو ذر في سابقته وصدقـه وجهـادـه .

وفيه : «من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبـة من النفاق»<sup>(٢)</sup> .

وروى أبو داود عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : «القلوب أربعة : قلب أغلف ، فذلك قلب الكافر ، وقلب مصفح وذلك قلب المنافق ، وقلب أجرد ، فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب فيه إيمان ونفاق ، فمثـل الإيمان فيه كـمثل شجرة يـدهـا ماء طـيـب ، وـمـثـل النـفـاق مـثـل قـرـحة يـدـهـا قـيـح وـدـم ، فـأـيـهـما غـلـبـ عـلـيـهـ غـلـبـ» .

وقد روى مرفوعاً ، وهو في مسند أحمد مرفوع .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وهذا الذي قاله حذيفة يدل عليه قوله تعالى : «هـم لـلـكـفـر يـوـمـئـذ أـقـرـبـ مـنـهـم لـلـإـيمـان»<sup>(٣)</sup> . فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب ، فلما كان يوم أحد ، غالبـ نـفـاقـهـا ، فـصـارـوا إـلـىـ الـكـفـرـ أـقـرـبـ .

«وروى عبد الله بن المبارك - بـسـنـهـ - عنـ أـبـيـ طـالـبـ قالـ :

(١) البخاري - الإيمان .

(٢) مسلم : إمارة ١٥٨ .

(٣) آل عمران : ١٦٧ .

إن الإيمان يبدو لحظة بيضاء في القلب ، فكلما ازداد العبد إيماناً ازداد القلب بياضاً ، حتى إذا استكمل الإيمان أبيض القلب كله .

وإن النفاق يبدو لحظة سوداء في القلب ، فكلما ازداد العبد نفاقاً ازداد القلب سوداً ، حتى إذا استكمل العبد النفاق أسود القلب . وaim الله ، لو شفقت عن قلب المؤمن لوجدته أبيض ، ولو شفقت عن قلب الكافر لوجدته أسود» .

وقال ابن مسعود: الغناء ينبع النفاق في القلب كما ينبع الماء البقل .

قال شيخ الإسلام: وهذا كثير من كلام السلف: يبينون أن القلب قد يكون فيه إيمان ونفاق .

والكتاب والسنة يدلان على ذلك . قال النبي ﷺ ذكر شعب الإيمان - وذكر شعب النفاق ، وقال من كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها ، وتلك الشعبة قد يكون معها كثير من شعب الإيمان .

وقال الإمام الشهيد:

لا نكفر مسلماً أقر بالشهادتين، وعمل بمقتضاهما، وأدى الفرائض برأى أو بمعصية إلا إن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة؛ أو كذب صريح القرآن، أو فسره على وجه لا تتحمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر .<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

---

(١) الأصل العشرون من الأصول العشرين للإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله .

## الْكُفَّارُ

الرغبة في تكفير الناس، وانتقاد أقدارهم، وترويج التهم حولهم، مرض نفسي بالغ الخطأ، وأصحابه يتناولهم بلا ريب الوعيد الإلهي : «إِنَّ الَّذِينَ يَحْبُّونَ أَنْ تَشْيَعَ الْفَاحِشَةَ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»<sup>(١)</sup> ..

والتصاق هؤلاء المرضى بالإسلام، أو تصدرهم في ميدانه لا يغنى عنهم شيئاً، فإنهم في الحقيقة غرباء عليه، أو عقبات أمامه، أو غبش في مرآته . !

محمد - صلوات الله عليه - رفيق رحيم، وهؤلاء غلاظ قساة ..

محمد يحضر على ستر العيوب، ويأخذ بأيدي العاشرين لينهضوا من كبوتهم، وهؤلاء يكشفون العيوب، أو يختلقونها إن لم توجد، ثم يتتصبون - باسم الله - قضاة يقطعون الرقاب، ويستبيحون الحقوق ! وليس لله فيما يفعلون نصيب، ولا لدینه مكان !

لقد آذاني أن أجده في مجال الدعوة فتائين من هذا النوع الهاابط، اتخذوا الإسلام ستاراً للشهوات هائلة، ولو وقعت أزمة الأمور بأيديهم لأهلكوا الحرم والنساء !

كنت أقرأ للأستاذ عبدالرحمن أبي الحير كتابه «ذكرياتي مع جماعة المسلمين» «التكفير والهجرة» ، فامتلأت نفسي بمشاعر شتى من الحزن والغضب والألم ، وأدركت أن النجاح الذي يلقاه أعداء الإسلام في تطويق حركاته لا يعود لذكائهم قدر ما يعود لغبائنا ..

كان أولئك الذين سُمُّوا بـ«جماعة المسلمين» شديدي الرغبة في إهانة رجال الإسلام وافتراه الإفك عليهم . ألف أحدهم كتاباً عن الإخوان المسلمين ، وزعم فيه أن حسن البناء ماسوني !!!

قال الشيخ عبدالرحمن : «استلقيت هذه العبارة نظري ، فاستوقفت قارئها - وهو المؤلف - فأصر عليها . وذكر مبرراتها ، ولم تكن سوى عبارات قالها الأستاذ الإمام

(١) النور : ١٩ .

للسحفيين الأجانب - في أحد لقاءاته بهم - لا دلالة فيها على شيء، ونصحته بالعدول عما كتبه.

قال الشيخ عبد الرحمن :

وكم جلب على هذا النص ! لقد بت ليلتها غير آمن على نفسي ، إذ نهرنى الشيخ شكرى - زعيم الجماعة - رغم كبر سنى ورغم ما يكتن لى في نفسه من تقدير . . . لقد نهرنى قائلا : تنصحه ؟ لا تقل ذلك ! كيف تنصحه . . . ؟

قال الشيخ عبد الرحمن : فساحت نصيحتى على الفور ، وآثرت الصمت والاستماع دون مناقشة إلى أن انتهى المتحدث من اتهام الإمام الشهيد بأنه كان ماسونيا<sup>(١)</sup> .

أهذا جو إسلامى أم جو عصابات ؟ أهذا ميدان دعوة إلى الله أم ميدان للصد عن سيله ؟

وفي موضع آخر من الكتاب الذى يحكى الذكريات الأسفية ، يقول المؤلف : نشرت الجمهورية نبأ تنفيذ حكم الإعدام فى الأستاذ صالح سرية ، وكارم الأناضولى المتهمين فى قضية اقتحام الكلية الفنية العسكرية ، فسألت «أبا مصعب» أن نصلى عليهما صلاة الغائب على اعتبارهما شهيدين من شهداء الحركة الإسلامية ! فرفض «أبو مصعب» ، وصرح بأنه لا يصلى عليهما . و كنت مندهشاً لذلك فلست أعلم لهما موقفاً عدائياً منا ، بل لقد بهرنى فهمهما الواقعى للإسلام وما يلقى من مؤامرات . وكم هزنى شمول النظرة لدى كارم الأناضولى ، وإحساسه بطبيعة الحرب المسعورة التى شنتها الجahلية ضد الحركة الإسلامية ! وقلت : أى أبا مصعب بارك الله فيك ، لماذا لا نصلى عليهما ؟ قال : لأننا قد بلغناهم الحق فرفضوه ! متى بلغتموهم ؟ في سجن مزرعة طرة وغيره ! علام اتفقتم وفيما اختلفتم ؟

قال العالمة أبو مصعب : اختلفنا في مسألة أقوال الصحابة وأقوال الفقهاء ، فهم يأخذون بهذه الأقوال ونحن لا نعول عليها !!

ثم ماذا ؟ لقد رفضا أن يبايعا الجماعة ! ونحن جماعة الحق ، ومن عدانا فليس بمسلم<sup>(٢) !!</sup>

نقول : إن قضية العمل بقول الصحابى ، أو اتباع إمام مجتهد ، من القضايا الثانية فى الفقه الإسلامي ، ولم يقل أحد طوال أربعة عشر قرنا إن ذلك من أصول العقيدة أو

(١) تصرفنا في العبارات بما يمنع التطويل مع إيراد الكلمات الحساسة بنصها.

(٢) والمهندس شكرى يعتبر المشتبه عليه مرتدين ، وجذاء المرتد القتل ، وعلى الأتباع إقامة هذا الحد . . !!

من فروعها . . ولا عده أحد من شعب الإيمان السبعين . . فكيف يكون الرأى في هذه القضية - سلباً أو إيجاباً - مخرجاً من الملة أو مدخلاً فيها؟!

ماذا نقول؟ وكيف ينسلخ عن الإسلام من خالفنا في رأى؟ أو في أسلوب عمل، فنعلن عليه الحرب حياً، وننبع عن الصلاة عليه ميتاً؟

لكن هكذا علم المهندس شكري أتباعه !!

يقول الشيخ عبد الرحمن أبو الحير: لقد اتفقنا في الأصول، ثم اختلفنا منذ اليوم الأول في الفرعيات.

ما هذه الفرعيات التي اختلف الشيخ عبد الرحمن فيها مع زعيم الجماعة؟ هي:

١ - سحب الكفر على عصور التاريخ الإسلامي منذ القرن الرابع للهجرة.

٢ - كون جماعتنا هي الجماعة المسلمة الوحيدة في العالم.

٣ - تكفير الإخوان المسلمين كشخصية معنوية في ميدان الحركة الإسلامية . .

نقول: العجب من تسمية هذه القضايا الخطيرة فرعيات، وهي تدور على محور مشترك من تمزيق الأمة وتاريخها وإكنان البغضاء لعباد الله الصالحين، من سابقين ولا حقين . .

لقد وصف القرآن نماذج الإيمان الرفيع بأنهم «أشداء على الكفار رحماء بينهم»<sup>(١)</sup>.  
وهو لاء الناس على العكس أشداء على المؤمنين رحماء بالكافرين !!

إنه لم يقبل هدنة في مهاجمة حسن البناء، على حين كان متلطفاً في الحكم على قادة السياسة العربية المعاصرة في مصر ولibia، ويستطيع القارئ مراجعة ذلك في الكتاب المذكور !!

وأى دارس للنفس البشرية يلمح عقدة «النقص والطموح» في نفس هذا الداعية البائس، غفر الله له، وتقيل دمه في التائبين !! .

\* \* \*

في بحث سابق تحدثنا عن القلوب وأمراضها، وأرى أن هذا البحث يجب أن يمتدّ ويطول، فإن العوج النفسي منتشر بين البشر انتشاراً ذريعاً.

(١) الفتح: ٢٩.

واكتشاف جراثيمه قد يحتاج إلى البصر الدقيق المترس ، ولكن يسهل بين العوام  
ويصعب بين المتدلين ، فإن الشعائر الرتيبة قد تنسج حجابا سميكا على طبائع الناس ،  
ولكنها لا تمحو رذائلهم إلا إذا جاهدوا أنفسهم جهادا شديدا .

وكيف يجاهد نفسه معجب بها راض عنها !

وفقر الثقافة الإسلامية من دعاء أطباء القلوب نقص رهيب ..

وكان المفترض أن ينهض التصوف بهذا الجانب كما فعل رجاله القدامى ، ولكن  
أغلب الطرق تضم مجانين وملتاثلين لا حصر لهم ..

وأشهد أن حسن البناء كان مربيا صادق الفراسة ناجع الدواء . وكانت طهارة باطنها لا  
يساويها إلا رحابة أفقه وذكاء فكره ..

قلت له يوما - وأنا طالب محدث المشاعر - لماذا لا نكره فلانا وفلانا؟ فقال لي على  
عجل وهو ينظر إلى بجد: لا يكن في قلبك سواد لأحد ، اكره عملهم وتمن الهدى  
لهم ..

وحملقت فيه كأني لا أفهم ، فأعاد النصح بحنان وعطف: لماذا يكون في قلبك حقد  
على الناس؟

لقد عرفت فيما بعد ، بعض أسرار العظمة في نفس الرجل الضخم ، ورأيت من  
مواريث النبوة في أخلاق حسن البناء أنه غزير الحب للناس ، وأنه يأسى لخطئهم  
ويتمنى له المتاب ..

ألم يقل النبي ﷺ في أعقاب نكبة أحد: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون؟  
ألم يقل الله لنبيه - وقد برح به الحزن لضلال الصالين - «فَلَعْلَكَ بَاخُ نَفْسَكَ عَلَى  
آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثَ أَسْفًا»<sup>(1)</sup> ..

إن الذي لا يحسن التنقيب في جنبات نفسه لاكتشاف عللها لا يصلح لا داعيا ولا  
مربيا . . والذى يحرض على اتهام الناس بالكفر والإغضاء عن جهادهم والشماتة فى  
أخطائهم هو امرؤ مريض الفؤاد ..

وقد لاحظت في المهندس شكري أمرا جديرا بالنظر - لأنه منذ أخذ وحوكم وقتل -  
اتصل به رجال مربيون من سماحة النظم العلمانية الحاضرة . . يقول الشيخ

---

(1) الكهف: ٦.

عبدالرحمن أبو الخير فيهم: «.. جاءوه على هيئة حكماء من الكبار، وكان الشيخ شكري في بنائه النفسي يسره أن يأتيه كبراء الجاهلية إما على هيئة مستمعين للبلاغ! وإنما في هيئة أصدقاء ناصحين» ..

وقد تساءلت: لم هذا السرور؟ وماذا يقول لهم؟ إنه مسكونين بني خطته على قتل الإسلام وهو لا يدرى. أقول للطاغوت دعني أعمل.. «أنا لا أشكل عقبة في طريقك، فحجبي للنساء عن الجامعات والمدارس، أقول للطاغوت ها إنذا أريحك من مشاكل تعليمهم وانتقالاتهم!! وهجرتى لا تشکل خطرا انقلابيا عليك، إننى أسهم بذلك في تخفيف مشاكل الإسكان! وترك الوظائف أريحك من المرتبات. التي تدفعها لنا..». «ص ٨٤».

ترك التعلم، وإيشار الهجرة، والبعد عن الوظائف، هذه السخافات الصغيرة وجدت جيشا من النساء والرجال يتبنّاها، بينهم جامعيون وجامعيات، وأعداد من الهمل الفارغين يمثلون مأساة إسلامية.

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه..!!

إننى أقرر بضيق أن أمثال شكري كثيرون في القارة الهندية وجزيرة العرب ووادي النيل.. إلخ.

ناس عملهم قليل، ودعواهم عريضة.

وينبغى أن يعرف الفارق بين بقاء الرجل في غمار الناس وبين وجوده في أماكن القيادة، الرجل العادى يكفيه أى قدر من المعرفة يصحح له شئون دينه ودنياه. أما القيادة فلها نصاب آخر ينمو بقدر أعبائها وامتداد أطراها..

لا بأس أن يكون الرجل حنانياً فقط مادام عمله بين بيته والمسجد، أما أن يكون بهذه الثابة ثم يطلب الصدارة في ميدان الثقافة الإسلامية فهذا سفه..!!

وقادة الأمة الإسلامية في الميدان العلمي والاجتماعي لابد أن تكون أسمائهم ضخمة في العلوم الدينية التقليدية، وأطوارها خلال القرون الأولى، وكذلك في العلوم الأدبية والإنسانية والفلسفية، بل لا بد أن تمتد أبصارهم إلى رحاب الإنسانية في شتى القارات فيعرفوا ما هنالك في القديم والحديث..

إننى أرفض الفتوى من محدث لا يعرف التفاسير! فكيف يقود الأمة رجل حفيف البضاعة إلا من قراءات قريبة؟ إنه كالفلاح الذى لا يعرف من الدنيا غير حقله والنهير الذى يرويه.

وقد سيطر الجهل والغرور على هذا النفر من المتدينين ، فإذا تجمع الشيخ شكرى بعد مقتله يتحول إلى سبعة عشر تشكيلًا عليها سبعة عشر أميرا ، بعضهم يتظر له النجاح في امتحانات الثانوية العامة !!

رأيت هذه الفوضى في ميدان الدعوة؟ أعرف أن وراءها أصابع أجنبية! بيد أن اللوم يرتد علينا قبل كل شيء ..

كيف؟ إننا تحدثنا بشيء من الإسهاب عن الخلاف الفقهي وطبائعه ونتائجها ، غير أن الأمر أحيانا يخرج عن دائرة هذا الخلاف ، ويمسى علاما على انهيار خلقى لا على تفاوت فكري !

سمعت من يقول: إن الشرك تطرق إلى تفكير حسن البناء!

شرك؟! نعم ، فإنه جعل التوسل بالرسول إلى الله من القضايا الفرعية!

قلت: إذا دعا مسلما ربّه توسلا إليه بنبيه يكون مشركا؟! إذا تشدّدت وتحفّظت وتطيّرت فقل: يكون مخطئا لأنّه ترك الأصح إلى الأضعف في صيغ الدعاء المأثور ..

إن الداعي على هذا النحو مسلم يقينا ، والإمام الشهيد ما أخطأ قط في قوله: إن هذه الصيغة من التوسل لا تحوى كفرا ولا شبه كفر! أما الزعم بأن الشك تطرق إلى تفكير حسن البناء فهو سفالة مقبوحة!!

ولغط آخرون من خصوم الأئمة الأربع بكلام يثير الدهشة . قالوا في ثورة الإخوان المسلمين على الحكم النصيري: إن هذا الصراع سواء في نتائجه المحتملة ، كيف؟ الإخوان مذهبيون ، وإذا حدث أن انتصروا فذلك يعني أن الأحناف مثلا سوف يحكمون ، وأبو حنيفة ليس خيرا من «أسد» النصيري!!!

الحق أنّي ما تصورت ناسا يتسمّون بالسلفيين يبلغون هذا القاع من الإسفاف ، وأدركت أنّي أمام خيانة عظمى ، وأن خصوم التوحيد وأعداء الله ورسوله قد نالوا من أمتنا مناً لا هائلا!!

تحقيق لأبي حنيفة في الأولين ، وتحقيق لحسن البناء في الآخرين ، وتبقى أمتنا بلا تاريخ .

ثم ينطلق الأقزام والأمساك يعرضون أفكارهم على الأمة اليتيمة ، لتجري وراءهم إلى الهاوية ..

إنّي أحذر من الثقافة المسمومة التي تقدم للشباب الغضّ ، وأذكر أنّي - بعد احتلال

طائفة من الشباب للحرم المكيّ - قلت لرجل مسئول: هؤلاء ضحايا فكر معوج وتعليم مغشوش، وقد رأيت أشباها لهم في عواصم إسلامية كثيرة، يُلقنُهم الجهل والغلوّ رجال لهم أسماء ولا مسميات وراءها . . .

رأيت في عين أحد هم نية القتل وأنا أذكر له بهدوء أن الفتى عندنا من خمسين سنة ألف رسالة عنوانها «القول الواقفي في إباحة التصوير الفوتوغرافي»، وأننا لو فرضناه مخطئاً فالخلاف الفقهى في قضية ما، يخرجها من دائرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فلا معنى لهذه السخاائم الكامنة ضد التصوير والمصورين . . ! لكن الشاب كانت تبرق عيناه بنظرات الفتى، فعلمت أنني مع ولد عديم التربية، التحق بجماعة دينية لأنه لم يجد عصابة لقطع الطرق يلتتحق بها، فهو فاتك في ثياب واعظ!

ومع ذلك فهو ضحية متهددين في الدين فقدوا الإنصاف والاتزان، يختارون من الأقوال الفقهية ما يلائم أذواقهم - وقد تكون سقيمة - ثم يعرضون ما يختارون على أنه الدين الأوحد، مع أن ما اختاروا هو الرأى الأضعف، ولو كان رأياً صحيحاً ما جاز عرضه إلا على أنه رأى وحسب، وليس عقيدة ينشأ عنها كفر وإيمان . .

\* \* \*

إن تاريخ المسلمين العلمي أشرف كثيراً من تاريخهم السياسي، وإن مجهد الأئمة والمربيين، من مجتهدين ومقلدين هو الذي حفظ الإسلام برغم ما أصاب أجهزة الحكم فيه من عطب بالغ . .

نعم في تاريخنا العلمي ما يستحق النقد والغربلة، ولكنه في صميمه تاريخ فكر دءوب وسعي مخلص وبحر متلاطم الموج من المواهب والمدارك الجديرة بالدرس .

ولم تجتمع الأئمة في تاريخها العلمي على ضلاله، ولم تعرف قداسة إلا لكلام المعصوم عليه الصلاة والسلام .

ويوم يجيء رجل من وادي النيل أو صحراء نجد ليهيل التراب على ذلك التراث كله، فهو يقطع شرایین الحياة عن الأجيال الحاضرة والمرتقبة . . وهو يخدم بذلك - عن وعي أو غباء - الغارة الاستعمارية على دار الإسلام .

وهنا نستلتفت النظر بقوة إلى أن ما يدبر للإسلام بليل، أقسى وأنكى مما يلقاه في وضح النهار . .

إن المؤامرات تحاك بخبث لتدمير يومنا وغدنا، ولن ينفع أداة ذلك الحكومات العميمية

ووحدها ، أو الانقلابات العسكرية المصنوعة . . بل أداة ذلك اختراق أجهزة الدعاة في نقطة ما ، والنفذ منها إلى داخل الجماعات الإسلامية<sup>(١)</sup> ليتم - على نحو ما - عمل أخرق ، يطير بالنشاط الإسلامي ويوصي أمامه أبواب الحياة . .

من أجل ذلك نهيب بالشباب المسلم أن يكون يقظاً . وبالوجهين المسلمين أن يضبطوا كلماتهم وأحكامهم فلا يعطوا العدو فرصة للوثوب من خلالها . .

احذروا من يجسم الشكل ويؤدي الموضوع . .

احذروا من يشير الفرقة ولا يبالي الجماعة . .

احذروا من يصعد بالفروع إلى الأصول أو يهبط بالأصول إلى الفروع . .

احذروا من يسط لسانه فينا ولا يقول كلمة أبداً في أعدائنا . .

لقد رأيت من لم يكتب حرف ضد الصهيونية أو الصليبية أو الشيوعية أو العلمانية . .  
ومع ذلك ألف كتاباً ضد مسلمين ربما كانوا مخطئين أو مصيبيين . .

ما أخر سك هنا وأنطقك هناك؟! إن لم تكن العمالة لعدو الله فنحن أغنياء عن الحمقى الذين تهيجهم الصغائر ولا تهيجهم الكبار! أو الذين هم أشداء على المؤمنين رحماء بالكافرين . . ! آية الخوارج في كل عصر ومصر . . . !

\* \* \*

---

(١) المخابرات الأجنبية المعادية للإسلام ، والتي تتربص به الدوائر ، مزودة بجيش من علماء النفس والتاريخ والسياسات المحلية ، يدرسون نواحي الضعف والقوة والإخلاص والخيانة والتركيب الاجتماعي للحركات الإسلامية ، ويستطيعون بأساليب ملتوية افتعال أحداث الذي يودي بهذه الحركات ، ويقدمها لمحكم عسكرية خاصة .

## خاتمة

قد أعطى نفسي الحق في مخالفة أى فكر ديني سابق أو لاحق، ولكنني لا أعطيها أبداً حق الشذوذ أو الخروج على الإجماع ..

إنني أوثر السير مع الجماعة الكبرى، وأحب وحدة الصف والهدف، وأرى أن الفرقة هزيمة وعداب وشئم، وأرفض أن تكون القضايا الصغرى سبباً في تنازع الأئمة، وأوصي أن نثبت بمعاقد الدين وعراه الوثقي.

إن رب العالمين يغفر الصغائر إذا اجتنبت الكبائر، فهلا تعلمنا من ذلك تجاوز الهنات إذا احترمت الأمهات؟

إن التعاليم العشرين التي وضعها حسن البنا - رضى الله عنه - تضمنت خيراً كثيراً، وألحقت جماعته بالركب الإسلامي الكبير، ولم تفردها بسمة شاذة، ولم تجعل منه رجلاً لطائفة منفصلة عن سواد الأمة.

إنه إمام بين عدد من الأئمة الذين ظهروا خلال القرون الأربع عشرة يخدمون الكتاب والسنة، ويستمدون شرفهم من الولاء المطلق لله ورسوله، والحفاوة المطلقة بكل من يلقون في هذا الميدان الطهور، وإن اختلفت الملامح النفسية والفكرية ..

وقد تعلمت من حسن البنا الإنصاف للغير مهما خالف في الرأي. نعم، عندما أخالف أحدها في حكم ما فلا يجوز أن أهمل ما لديه من صواب كثير، وموهاب قد أفاءها الله عليه، يجب أن أحترم ذلك فيه، بل يجب أن أحترم ما وراء خطئه من غيره دينية، تربطني به وإن أنكرت قوله ..

إن الذي أقلق حسن البنا، ويقلق كل مصلح بعده، أصحاب الأهواء الجامحة والمعارف الضحلة عندما يستبدّ بهم جنون العظمة، ويريدون فرض قياماتهم على الناس باسم الدين !!

ولعل إخراجي لهذا الكتاب يرجع إلى ضرورة الحفاظ على الإسلام من هوس أولئك الأغرار، إلى جانب أن الجمهور فقير إلى حقائق إسلامية كثيرة حرم منها دهراً .. المسلمين ينهضون بالعلم لا غير.

## مقررات عشرة:

ذلك وقد أعطيت نفسى الحق فى إضافة عشرة مقررات أخرى أحسب أنها بحاجة إلى إشاعتها.

وشرحها وارد فى كتبى الأخرى وفى مؤلفات الرجال الذين يكذبون فى الحقل الإسلامى الرحب.

لا أدرى أأصبت فى هذه الإضافة أم أخطأت؟ وحسبى أن الحق قصدت... !!

\* \* \*

وهذه هى الإضافات التى أرى المجتمع الإسلامى محتاجا إليها:

- ١ - النساء شقائق الرجال، وطلب العلم فريضة على الجنسين كليهما، وكذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وللنساء - فى حدود الآداب الإسلامية - حق المشاركة فى بناء المجتمع وحمايته.
- ٢ - الأسرة أساس الكيان الخلقى والاجتماعى للأمة، والمحضن الطبيعى للأجيال الناشئة، وعلى الآباء والأمهات واجبات مشتركة لتهيئة الجو الصالح بينهما. والرجل هو رب الأسرة، ومسئوليته محدودة بما شرع الله لأفرادها جميعا.
- ٣ - للإنسان حقوق مادية وأدبية تناسب تكريم الله له، ومنزلته الرفيعة على ظهر الأرض، وقد شرح الإسلام هذه الحقوق ودعا إلى احترامها.
- ٤ - الحكام - ملوكا كانوا أم رؤساء - أجراء لدى شعوبهم، يرعون مصالحها الدينية والدنيوية ووجودهم مستمد من هذه الرعاية المفروضة، ومن رضا السواد الأعظم بها، وليس لأحد أن يفرض نفسه على الأمة كرها، أو يسوس أمورها استبدادا..
- ٥ - الشورى أساس الحكم، ولكل شعب أن يختار أسلوب تحقيقها، وأشرف الأساليب ما تمحض لله، وابتعد عن الرياء والمكاثرة والغش وحب الدنيا.
- ٦ - الملكية الخاصة مصونة بشروطها وحقوقها التى قررها الإسلام، والأمة جسد واحد لا يهمل منها عضو، ولا تزدرى فيها طائفة، والأخوة العامة هى القانون الذى ينظم الجماعة كلها فردا فردا، وتخضع له شئونها المادية والأدبية.

٧ - أسرة الدول الإسلامية مسؤولة عن الدعوة الإسلامية، وذود المفتريات عنها، ودفع الأذى عن أتباعها حيث كانوا، وعليها أن تبذل الجهد لإحياء الخلافة في الشكل اللائق بمكانها الدينية.

٨ - اختلاف الدين ليس مصدر خصومة واستعداء، وإنما تنشب الحروب إذا وقع عدوان أو حدثت فتنة أو ظلمت فئات من الناس.

٩ - علاقة المسلمين بالأسرة الدولية تحكمها مواليف الإخاء الإنساني المجرد، وال المسلمين دعاة لدينهم بالحججة والإقناع فحسب، ولا يضمرون شر العباد الله.

١٠ - يسهم المسلمون مع الأمم الأخرى - على اختلاف دينها ومذاهبها - في كل ما يرقى مادياً ومعنوياً بالجنس البشري، وذلك من منطلق الفطرة الإسلامية والقيم التي توارثوها عن كبير الأنبياء، محمد عليه الصلة والسلام.

تلك هي المبادئ العشرة التي اقترح إضافتها، والتي أتقدم بها مع التعاليم العشرين لمجدد القرن الرابع عشر الإمام الشهيد حسن البنا، رضى الله عنه.

ولمن شاء أن يقبل أو يرفض ...

وآخر ما ندعوه: ﴿واعف عننا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) البقرة: ٢٨٦.

# الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
١٦	هيمنة الإسلام على الحياة كلها
٢١	الكتاب والسنّة معاً
٢٢	هجوم على السنّة
٢٤	عتاب وتصحيح للمفاهيم
٢٦	حقائق محترمة
٢٨	الحقائق لا الأوهام أساس الإسلام
٣٠	الإسلام يحترم العلم وحقائقه
٣١	المحكم من القرآن أساس الاعتقاد والتشريع
٣٤	بين النص والمصلحة
٣٥	عمر لم يعطى حد السرقة
٣٥	عمر لم يحرم الزواج بالكتابيات
٣٦	إمضاء أمر الله نماء وبركة
٣٨	الخلاف شؤم والفرقـة عذاب
٣٩	الأئمة الأربعـة رجال لا نظير لهم
٤٢	الخلاف الفقهي وتعـدد المذاهب
٤٣	مـقررات قبل بيان أسباب الخلاف المذهبـي

## الموضوع

## الصفحة

٤٤	أسباب الخلاف الفقهي
٥٢	أخبار الأحاداد وزنها العلمي
٥٣	خبر الأحاداد لا يفيد القطع
٥٩	مدرسة الرأى ، ومدرسة الأثر ومدارس أخرى
٦٣	مدرسة الموازنة والترجيح بين مدرستى الأثر والرأى
٦٦	الاجتهداد الفقهي علامة صحة وهو شرف لتاريخنا
٦٧	احترام المخالف دين العلماء
٧٣	التعصب المذهبى
٧٣	تعصب مقوت
٧٦	انشغال بسنن وشكليات عن عظائم الأمور
٨٠	حوار جاد حول التقليد والاجتهداد
٨٢	خصلتان مهمتان للشباب المسلم
٨٨	نحو سلفية واعية
٩٠	مفاهيم قاصرة لمعنى السلفية
٩٤	المذاهب الفقهية وسلطات الدولة
٩٦	اقتراح بتأليف لجنة للنظر في التراث الفقهي
٩٨	السياسة والمذاهب الفقهية
٩٩	الاجتهداد ضرورة إسلامية وإنسانية
١٠٤	الخلافات الموروثة قيمتها وأثرها
١٠٥	السلفية في إطارها الصحيح
١٠٧	فرق ضالة

## الصفحة

## الموضوع

١٠٩	الشيعة وأهل السنة
١١٢	معنى الابتداع وأنواع البدع
١١٤	أخطاء نستلتفت النظر إليها ونحذر منها
١١٥	البدعة الإضافية
١١٥	البدع التركية
١١٨	الحب والبغض في الله ومعنى الولاية والسنة في زيارة القبور وبناء المساجد ..
١٢٠	تصحيح المفاهيم
١٢٢	صلة المسلم بالمقابر
١٢٦	التوسل ما يجوز منه وما لا يجوز
١٢٦	معانى الوسيلة في الشرع والعرف
١٢٨	توسل مختلف عليه
١٢٩	توسل مرفوض باتفاق العلماء
١٣٢	تقاليد المسلمين غير تعاليم الإسلام
١٣٣	الإسلام كرم المرأة
١٤١	الانحرافات النفسية والبدنية
١٤٥	قلوب قاسية
١٥٠	المستوى الثقافي للأمة الإسلامية
١٥٢	مصالحة
١٥٤	الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدتها فهو أحق بها
١٥٨	العقل ومكانته
١٥٩	الإعجاز العلمي في القرآن الكريم
١٨٩	

---

## الموضوع

---

### الصفحة

---

١٦٧	الدائرة الإسلامية
١٧٢	وجوب التفرقة بين النوع والشخص المعين
١٧٦	التكفير
١٨٤	خاتمة

\* \* \*

## مؤلفات الشيخ محمد الغزالى

### وفق تاريخ ظهورها تقريرا

- ١ - الإسلام والأوضاع الاقتصادية.
- ٢ - الإسلام والمناهج الاشتراكية.
- ٣ - الإسلام والاستبداد السياسي.
- ٤ - الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين.
- ٥ - من هنا نعلم.
- ٦ - تأملات في الدين والحياة.
- ٧ - عقيدة المسلم.
- ٨ - خلق المسلم.
- ٩ - التعصب والتسامح.
- ١٠ - فقه السيرة.
- ١١ - في موكب الدعوة.
- ١٢ - ظلام من الغرب.
- ١٣ - جدد حياتك.
- ١٤ - ليس من الإسلام.
- ١٥ - من معالم الحق.
- ١٦ - كيف نفهم الإسلام.
- ١٧ - الاستعمار أحقاد وأطماء.
- ١٨ - نظرات في القرآن.
- ١٩ - مع الله دراسات في الدعوة والدعاة.
- ٢٠ - معركة المصحف.

٢١ - كفاح دين.

٢٢ - الإسلام والطاقات المعطلة.

٢٣ - حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة.

٢٤ - هذا ديننا.

٢٥ - حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي.

٢٦ - الجانب العاطفى من الإسلام.

٢٧ - دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين.

٢٨ - ركائز الإيمان بين العقل والقلب.

٢٩ - حصاد الغرور.

٣٠ - الإسلام في وجه الزحف الأحمر.

٣١ - قذائف الحق.

٣٢ - الدعوة الإسلامية تستقبل القرن الرابع عشر.

٣٣ - فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء.

٣٤ - دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين.

رقم الایداع : ٩٧/١٣١٦٢  
I.S.B.N. : 977 - 09 - 0403 - ١

### مطبع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيفويه المصري - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)  
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)

دستور

## الوحدة الثقافية بين المسلمين

هناك تحديات تواجه الدعوة الإسلامية، بل تواجه الرسالة الإسلامية ذاتها، أقلها من الخارج وأكثرها من الداخل ! ! نعم فإن الآفات التي تنخر في الكيان الإسلامي أثبتت الامر ارض الموطنة وقد أثبتت به معاطب مخوفة، ثم انتهت به خواتيم القرن الرابع عشر الهجري إلى حال تسوء الصديق وتسر العدو ..

عندما نعرض المذاهب العلمانية برامجها السياسية والاقتصادية نحسن التفاهم مع الطبيعة البشرية، ونحسن تقديم الحكم بريثاً من نزوات الاستبداد الفردي، وتقديم المجتمع بعيداً عن شهوات الشع و الآثرة والظلم البغيض ..

أما نحن فماذا نقدم للناس ؟ شورى هي حبر على ورق، وتراحم هو حديث منابر، وشعائر توقف فيها بض الحياة، فلا هي حب لله ولا هي حنان على الناس ! !

إننا متّهبون إلى الإسلام ومتّهرون له في آن واحد، متّهبون له بالتراث وخارجون عليه مادياً وأدبياً ! !

ولست أتعامل على الجيل المعاصر، ولا على الجيل الذي سبّقه، إن موجة الجزر بدأت قبل ذلك، ثم شدت في انسحابها الأجيال المتأخرة إلا قليلاً من تثبت بالحق في مصادره المعصومة، واستئنات كيما تبقى أعلام الإسلام قائمة ...

